المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثامن والثمانين

١ مارس سنة ١٩٣٦ — ٧ ذي الحجة سنة ١٣٥٤

العلم يجاري الطبيعة

في توليد عناصر مشعة

تباري الراديوم

الراديوم اشهر عنصر في طائفة من المواد الكيائية تعرف بالعناصر المشعة ، وصفتها التي تتميز بها عن سائر العناصر ، هي اطلاقها انواعاً من الاشعة ، اطلاقاً ذاتيًّا ناجماً عن انحلال ذرّاتها . وقد ثبت بالتجربة والامتحان ، ان بعض الاشعاعات التي تنطلق منها ، وبوجه خاص ما يعرف بأشعة غمًّا ، لهُ تأثير مفيد في معالجة السرطان

الاّ ان هذه العناصر المشعّة نادرة في الطبيعة ، ولذلك نجدها غالية الثمن ، حتى ان الغرام الواحد من عنصر الراديوم ، يزيد ثمنهُ الآن على عشرة آلاف جنيه ، وقد كان قبل عقدين من السنين يبلغ ثلاثين الفاً او نحو ذلك . ولذلك يصحّ القول ، بأن الكشف الحديث ، عن تحويل بعض العناصر غير المشعّة ، الى مواد مشعّة ، تقدُّم عظيم الشأن في علم الطبيعة ، وقد يكون ، بل لا يبعد ان يكون ، فتحة جليلة اخرى ، من فتحات العلم النظري لعلوم الطب العملية

هذا الكشف الجديد ، الذي اثبت ان الانسان يستطيع ان يحوّل بعض العناصر غير المشعة الى عناصر مشعة بأساليب صناعية ، نتيجة النشاط العجيب ، الذي بدا في علم الطبيعة التجريبيّ ،

ودار حول نواة الذرّة ، في الغالب ، في السنوات الخمس الاخيرة . فقد اذيعت الانباء الاولى عن هذا الكشف في ١٥ يناير سنة ١٩٣٤ في رسالة للسيدة ايرين كوري جوليو (كريمة مدام كوري مكتشفة الراديوم) وزوجها الاستاذ جوليو ، وقد نالا جائزة نوبل الكيائية عن سنة ١٩٣٥ جزاء لهما على هذا الكشف العظيم

ومنذ ما اذاع هذان العالمان نتائج مباحثهما الاولى في هذا الموضوع ، أكبّت عليه طائفة كبيرة من البحّاث في مختلف البلدان ، فتوسعت فيه ، وايدت بتجاربها الحقائق التي كشفها الباحثان المتقدمان . وفي مقدمة الذين تناولوا هذا البحث ، واضافوا اليه ، اللورد رذرفورد واعوانه في جامعة كمبردج ، والاستاذ انريكو فرمي في جامعة روما ، والاستاذ ارنست لورنس في جامعة كاليفورنيا الاميركية وغيرهم . ولكي يسهل على القارىء قدر قيمة هذه المكتشفات الحديثة حق قدرها ، لا بدّ لنا من تلخيص ما كان يعرف عن تركيب الذرة في العشرين السنة الاخيرة ونحوها

فالذرة كانت في بدء هذه الحقبة ، وفي خلالها ، تحسب مؤلفةً من جزء مركزي كثيف ثقيل الوزن يعرف بالنواة ، تحيط به ، وحدة او اكثر من الكهربائية السالبة تعرف باسم الكهارب (الالكترونات) . فالنواة تحمل شحنة كهربائية موجبة او اكثر تعدّل بها فعل الشحنات السالبة التي تحيط بها ، وكذلك تصح الذرة متعادلة الكهربائية او محايدة

وكانت العناصر المختلفة ، تختلف بحسب هذا الرأي ، في عدد الكهارب التي حول نوى الذرّات . واطلق على عدد الكهارب حول النواة اسم «العدد الذري» . واسندت خواص العنصر الكيائية الى عدد الكهارب ، . ورتبت العناصر من اخفها الايدروجين ، الى اثقلها الاورانيوم ، وفقاً لتسلسل الارقام من واحد الى اثنين وتسعين (١ — ٩٢) وكان رقم كل عنصر يدل على عدد الكهارب التي حول النواة في ذرته . فالذرّة الثقيلة هي التي نجدها في العناصر المشعة كالاورانيوم (٩٢) ولكنها عناصر نادرة على كل حال . حالة ان العناصر التي كان لها اكبر شأن في بحث الذرّة وتركيب نواتها كانت من العناصر الخفيفة الوزن ، لسبب سنبينهُ

والى القارىء جدولاً بالعناصر الستة عشر الاولى وامام كلّ منها رقم يدل على عدد الكهارب التي تحيط بنواتها اي على عددها الذري

ايدروجين	١	فلور	٩
هليوم	٢	نيون	١٠
ليثيوم	٣	صوديوم	١١
بريليوم	٤	مغنيزيوم	١٢
بورون	٥	الومنيوم	١٣
كربون	٦	سليكون	١٤
نتروجين	٧	فصفور	١٥
اكسجين	٨	كبريت	١٦

يتضح للقارىء الملم الماماً بسيطاً بتركيب الاشياء التي تحيط به ، ان هذه العناصر كثيرة الوجود ، في الهواء الذي نتنفس والماء الذي نشرب والخشب الذي نصنع منهُ كراسينا ومكاتبنا والورق الذي نكتب عليهِ ونطبع صحفنا وكتبنا والحجر الذي نبني منهُ بيوتنا

وهكذا تبيَّن للعلماء ان بين الكهارب التي حول نواة الذرة ، وخواص العنصر الكيائية ، صلة وثيقة . الاَّ ان ذرّات العنصر الواحد قد تختلف وزناً او كتلة . فكيف يفسَّر ذلك ؟

ان كتل الذرّات في عنصر واحد قلَّما تختلف اختلافاً كبيراً ، بل ان اختلافها على كل حال لا يؤثر تأثيراً عظيماً ، في تصرّفها الكيائي . ولذلك لا يهمُّ الكياوي ، من الوجهة العملية ان يميِّز بين الذرات المختلفة وزناً في عنصر واحد ، لان الاختلاف غير كبير ، ولانهُ لا يؤثر كثيراً في الخواص الكيائية

الاَّ ان الاختلاف في الكتلة ، في ذرّات عنصر واحد ، يعني اختلافاً في بناء النواة . ولذلك يمكن أن نحسب النظائر المختلفة موادَّ مختلفة لا مادّة واحدة (النظائر ترجمة لفظ Isotopes وبهِ يراد طائفة من ذرّات عنصر ما تختلف كتلةً عن طائفة اخرى من ذرّات العنصر نفسهِ) ولعلَّ أشهر مثالٍ على ان اختلاف الكتلة يؤثر تأثيراً ظاهراً في تصرف الذرّة وخواصها الكيائية عنصر الايدروجين . فمعظم ذرّات الايدروجين كتلتها ١ ولكن هناك ذرّات ايدروجين كتلتها ٢ وهي نادرة . اي ان ذرّة من نظير الايدروجين النادر تزن ضعفي ذرّة من الايدروجين المألوف . ولما تناول العلماء دراسة هذا النظير ، تبيَّن لهم انَّ لهُ خواصَّ كيائية تختلف عن خواص الايدروجين المألوف . لذلك اطلقوا عليهِ اسماً خاصًّا بهِ فدعاهُ علماء اميركا « دوتيريوم »

Dentrium ودعاهُ علماء انكلترا « ديلوجين » Diplogen . وقد كان مكتشف هذا النظير الاستاذ هارولد يوري ، احد علماء جامعة كولومبيا الاميركي ، فنال جائزة نوبل الكيائية عن سنة ١٩٣٤ وكان لاكتشافه ، مقام خطير ، في المباحث الكيائية ، وفي المباحث الطبيعية كذلك الخاصة بطبيعة نواة الذرّة

كان معظم التقدم في طبيعة الذرّات ، محصوراً حتى مطلع سنة ١٩٣١ في دراسة الكهارب حول النواة ، بل ان البحث في هذه الكهارب ، حال دون اي تقدُّم يذكر في فهم طبيعة النواة وتركيبها . ولما كانت المسائل المتعلقة ببناء الذرة معتدة كلَّ التعقيد ، فقد كان من حسن الطالع ، إمكان قسمتها الى قسمين ، احدهما يدور حول طبيعة الكهارب ، والآخر حول طبيعة النواة . ومع ان العلماء جمعوا حقائق كثيرة عن طبيعة النواة ، في خلال السنين التي تلت الكشف عن الراديوم ، الاَّ اننا نستطيع ان نقول ، ان البحث الحديث في دراستها ، بدأ حقيقة سنة ١٩٢٨ . ففي تلك السنة وحواليها ، حاولت جماعتان من علماء اميركا تطبيق قواعد الميكانيكيات الموجية على ذرّات العناصر الثقيلة لتفسير انحلالها وانطلاق دقائق الفا منها وهذه الدقائق كما يعلم القارىء نوى ذرّات الهليوم . وكانت الجماعة الاولى مؤلفةً من الاستاذ غرني والاستاذ كوندون Condon — وعنهُ تنقل هذا المقال وقد نشرهُ في مجلة الفيزيك اميركا عدد يناير سنة ١٩٣٦ — في جامعة برنستن . وكان على رأس الجماعة الثانية الاستاذ جامو G. Gamow الذي قام ببحثهِ مستقلاً عن الجماعة الاولى . فقد اثبت هؤلاء الباحثون ، انهُ اسهل على الدقائق الصغيرة ، ان تخترق نوى الذرّات مما كان يظنُّ

وكان للنجاح الذي اصابته هذه المباحث النظرية في تفسير بعض ظاهرات الاشعاع الطبيعي فائدة كبيرة ، لانها بيَّنت ان إحداث تغير في تركيب النوى باطلاق دقائق مكهربة عالية الضغط الكهربائي عليها ، ايسر مما كان يظنُّ . فقد كان الرأي حتى ظهور هذه المباحث ، ان الدقائق التي تطلق من نوى الذرات ، يجب ان تطلق عليها بطاقة عدة ملايين من الفولطات ، فاثبتت هذه المباحث ، ان اطلاقها بطاقة أقلُّ من ذلك كثيراً ، كافٍ لاحداث التغير المنتظر في بناء النوى

وشرع العلماء بعد ذلك في برنامج واسع النطاق ، آيته اطلاق دقائق مكهربة بكهربائية عالية الضغط على نوى العناصر وقد ظلت هذه الطريقةُ الوسيلةَ المقدَّمة على غيرها في دراسة النواة . وعمادها

استحداث تيار من الايونات ، من الايدروجين او الدوتيريوم مثلاً . والايونات هي ذرّات وقد فقدت كهرباً أو اكثر من كهاربها التي تحيط بالنواة . فتصبح الذرّة بعد انفصال كهرب او اكثر عنها ، وهي مكهربة كهربائية موجبة . فاذا أُطلقت هذه الايونات في مجال كهربائي عالي التنخط ، جذبتها القوى الكهربائية السابقة جذباً عنيفاً ، فتكتسب سرعة عظيمة اي تكتسب زخماً Momentum وطاقة Energy وكذلك يتحول تيار الايونات ، الى تيار من الدقائق المكهربة العظيمة الطاقة ، فتوجه الى لوح ، من المادة التي تُرام دراستها

فاذا يحدث حينئذ ؟

من المعروف عند علماء الطبيعة ، ان قطر النواة ، لا يزيد $\frac{1}{10000}$ جزء من قطر الذرة . ولما كانت الذرات التي تتألف منها مادة اللوح الذي توجه اليه الايونات صغيرة جداً ، فمن البحث أن يحاول الباحث ان يوجه تيار ايوناته الى ذرة بعينها ، دع عنك نواةً بعينها . وعليه فمن الواضح ان طائفة كبيرة من مقذوفات هذا التيار تصطدم بمادة اللوح ، وتخترقها من دون ان تقرب قرباً كبيراً من احدى نوى الذرات . هذه المقذوفات تختلط عند اختراقها لمادة اللوح ، بكهارب الذرات — وكهربائيتها سالبة كما تعلم — فتبطل كهربائية الكهارب كهربائية المقذوفات الموجبة ، فتفقد المقذوفات زخمها وطاقتها وتستقرّ . وكذلك تستقر معظم هذه المقذوفات من دون ان تمس احدى نوى الذرّات في اللوح الذي وجّهت اليه او تقرب منها

على انهُ من حظ بعض الايونات ، او هذه المقذوفات المكهربة ان يكون توجيهها الى النوى اسدَّ وأحكم ، فتقترب منها ، ولكنها في اقترابها تجد قوة تبعدها عن النواة ، وهي قوة التدافع بين دقيقتين مكهربتين كهربة واحدة . فالايون كما بيّنا موجب الكهربائية وكذلك نواة الذرة ، فاذا قرب عند اقتراب الاول الى الثانية ، هو ميل الى التدافع . فيحرّف مسار المقذوفة حول النواة . فبعد ان تكون المقذوفة سائرة بزخم عظيم في خط مستقيم تنحرف وتسير في خطّ منحنٍ . الاّ ان هذا الانحراف يقل كثيراً ، بازدياد طاقة المقذوفات وسرعتها اي انه كلما زادت الطاقة الكهربائية التي تقذف المقذوفات ، يقل انحرافها بفعل الدفع الكهربائي . ثم ان الانحراف الناشىء عن الدفع الكهربائي ، اقل في العناصر التي ارقامها الذرية صغيرة منهُ في العناصر التي ارقامها الذرية كبيرة . وهذه الحقيقة تفسر لنا ، ما عجبنا له عند القراءة عن هذه

الباحث ، وهو ان البحث يكاد يكون محصوراً ، او هو حقيقة محصور في البيوم والبريليوم والبورون والالومنيوم وغيرها من العناصر التي أرقامها الذرية صغيرة (راجع الجدول في هذا المقال)

بعد التغلب على جميع هذه العوائق ، تصل بضع مقذوفات من ملايين المقذوفات الى النواة وتصدمها. اما ما يكون من أثر هذا الاصطدام فهو موضوع البحث . والمقدر ، ان مقذوفة واحدة من عشر ملايين مقذوفة ، او مائة مليون مقذوفة ، تصيب نواة واحدة ، اي ان احتمال اصابة الهدف تختلف من (١ : ٠٠٠٠٠٠٠٠ر١٠) الى (١ : ٠٠٠ ٠٠٠ر١٠٠)

وتختلف الاساليب المستعملة في توليد الطاقة الكهربائية العظيمة لاطلاق المقذوفات باختلاف المعاهد . ففي بعضها تستعمل تيارات كهربائية عالية الضغط من رتبة مليون فولط او اكثر ، فتمكن العلماء من الحصول على مقذوفات سريعة عظيمة الطاقة يستطيعون توجيهها الى نوى الذرات ، على نحو ما كان اللورد رذرفورد يوجه دقائق الفا المنطلقة من الراديوم من نحو عشرين سنة . اي ان رذرفورد كان يعتمد على مقذوفات تنطلق من تلقاء نفسها من العناصر المشعة وأما علماء اليوم فيصنعون قذائفهم غير معتمدين على الطبيعة

ومن هذه الاساليب اسلوب بارع ابتدعهُ الاستاذ لورنس احد علماء جامعة كاليفورنيا فانهُ اخذ تيارات من نوى الايدروجين الثقيل، واطلقها في حقل كهربائي ، بطاقة عشرة آلاف فولط فقط ، ولكنهُ استنبط طريقة لاسراعها accelerate في هذا الحقل ، حتى اذا بلغت منتهى الاسراع الممكن كانت طاقتها من رتبة مليوني فولط مع ان الطاقة الاساسية التي دفعها كان ضغطها عشرة آلاف فولط فقط. فاذا صارت طاقتها مليوني فولط وجهت الى لوح من الالومنيوم او الصوديوم او اي مادة يراد البحث فيها

هذا هو ملخص الطريقة بوجه عامّ فما هي النتائج ؟

اسفرت التجارب في خلال السنوات الاربع الاخيرة ، عن تحويل العناصر باحداث تغير في تركيب نواها ، في طائفة من معامل البحث العلمي في اوربا واميركا . ويصحب هذا التحوُّل في معظم الاحيان ، انطلاق مقادير كبيرة من الطاقة بتحوُّل المادة الى طاقة الحركة . وهذا التحوُّل من المادة الى الطاقة هو ما تنبَّأ به اينشتين سنة ١٩٠٥ ولكن ليس ثمة امل ما الآن ، في استعمال هذا الفعل الطبيعي مصدراً لتوليد الطاقة من المادة . فمع ان كلَّ مقذوفة تصدم النواة ، تولِّد طاقة

عظيمة ، بالقياس الى طاقة حركتها ، ولكن اذا قيست هذه الطاقة المولّدة بمجموع الطاقة التي تنفق في اطلاق جميع المقذوفات التي لا تصيب نواة على الاطلاق ، وجدنا اننا من الخاسرين . يضاف الى هذا اننا الآن لا نستطيع ان نلجم الطاقة الناشئة عن اصطدام المقذوفة بالنواة ، لنستعملها في ما يفيد

الاّ ان بعض التحوّل في نوى الذرّات يتمّ بطريقة اي ان الذرّات التي تصطدم بالمقذوفات تبقى تشعّ الطاقة اشعاعاً بصيغة اي انها تتصرف كأنها ذرّة عنصر مشعّ كالراديوم مثلاً . واول مثال اكتشف من هذا القبيل اكتشفته مدام ايرين كوري جوليو ، كريمة مدام كوري ، وزوجها الاستاذ جوليو . فانهما اطلقا المقذوفات على عدّة عناصر ، منها عنصر الالومنيوم . وكانت مقذوفتهما نوى عنصر الهليوم منطلقة بطاقة عظيمة ، فأصبح الالومنيوم بذلك عنصراً مشعّاً . نعم إن التجارب السابقة كانت قد اثبتت ان اطلاق مقذوفات من هذا القبيل على الالومنيوم تفضي الى اشعاعات مختلفة تطلق من الالومنيوم . ولكن الظاهرة الجديدة التي اكتشفها جوليو وزوجته كانت ان الاشعاع استمرّ بضع دقائق بعد وقف اطلاق المقذوفات . فتبيّن لدى البحث ان الالومنيوم كان يطلق كهارب موجبة (بوزيترونات) . والبوزيترونات تشبه الكهارب المألوفة ، الاّ ان شحنتها الكهربائية موجبة بدلاً من ان تكون سالبة

فلما فحص الهليوم المشع بأساليب البحث الكيماوي والطبيعي المعروفة ظهر ان ما حدث للالومنيوم كان كما يلي : انهُ عند اطلاق نواة الهليوم على الالومنيوم ، تصيب احدى نوى الهليوم المنطلقة نواة الالومنيوم فتندمج الواحدة في الاخرى ، ويطلق منها على اثر الاندماج نوترون . والنترونات كما لا يخفى على قراء المقتطف هي دقائق ليس لها شحنة كهربائية وكتلتها مثل كتلة نواة الايدروجين اي (١) وقد اكتشفها الاستاذ شدويك الانكليزي سنة ١٩٣٢ . اذاً عند ما تصطدم نواة الهليوم بنواة الالومنيوم تضاف شحنة نواة الهليوم الى شحنة نواة الالومنيوم فيصبح عدد الشحنات على نواة الالومنيوم ١٥ اي يتحوّل الالومنيوم الى فصفور . وعدد الشحنات الموجبة على النواة في ذرّة للفصفور ١٥ كما ترى في الجدول . ثم عند بحث هذه الذرّة الجديدة من الفصفور يثبت انهُ فصفور لا عهد للعلم به من قبل واذن فهي ذرّة غير مستقرّة لذلك تميل الى الانحلال في بضع دقائق بعد تكوينها ، فتطلق بوزيتروناً والبوزيترون شحنة موجبة واحدة من

الكهربائية فتبقى نواة الذرّة الجديدة وشحنتها ١٤ وهي شحنة نواة السلكون. هذه النواة مستقرّة وعندها يقف كل تحوُّل. فالالومنيوم تحوَّل باطلاق هذه المقذوفات عليه الى فصفور غير مستقرّ فالى سلكون

هذا مثال من امثلة عديدة تناولها البحث بعد ما اكتشف الاستاذ جوليو وزوجتهُ هذه الظاهرة

وقد استعمل بعض الباحثين نوى الايدروجين المألوف والايدروجين الثقيل (الدوتيريوم) ومن العناصر التي اطلقت عليها نوى الدوتيريوم عنصر الصوديوم. وزعيم هذه التجربة الاستاذ لورنس الاميركي بجامعة كاليفورنيا

فاذا يحدث في هذه الحالة؟ تجتذب نواة ذرّة الصوديوم نواة الدوتيريوم التي تصيبها، فتندمج الاثنتان، وينطلق بروتون اي نواة ذرّة الايدروجين المألوف. اي ان دقيقة وزنها نصف وزن نواة الدوتيريوم تنطلق على اثر الاندماج ويبقى النصف الآخر في نواة الصوديوم. فيزيد وزن نواة الصوديوم واحداً عما كان. ولكن شحنتهُ الكهربائية تبقى على ما هي اي انهُ يبقى صوديوماً. هذه النوى من الصوديوم التي يحدث لها ما تقدم مشعّة وتبقى تشعُّ مدة اطول من مدة اشعاع الالومنيوم الذي اطلقت عليه نوى الطيوم. ويمتاز الصوديوم المشعّ على الالومنيوم المشعّ في انهُ يطلق اشعة غمّا وهي عظيمة الطاقة من قبيل الاشعة السينية. ولا يخفى ان لاشعة غمّا فعلاً في معالجة بعض انواع السرطانية، ولذلك اتجهت الانظار في جامعة الاستاذ لورنس الى امكان استعمال هذه الاشعة المنطلقة من الصوديوم المشع في علاج السرطان بدلاً من الراديوم او جنباً الى جنب معهُ

ويعلم القراء ان الراديوم يفقد نصف فعله بعد انقضاء ١٦٠٠ سنة عليه ولكن الصوديوم المشع الذي اصبح مشعّاً بفعل الانسان، يفقد نصف فعله في ١٥ ساعة وثلاثة ارباعه في ٣٠ ساعة وسبعة اثمانه في ٤٥ ساعة وهكذا. لذلك لما رحل الاستاذ لورنس من كاليفورنيا الى شرق الولايات المتحدة الاميركية، ليحاضر، في هذا الصنف من المواد المشعة، تمكن زملاؤهُ في كاليفورنيا من اعداد صوديوم مشعّ وارساله إليه بالطيارة فعرضه على جمهور العلماء الذي استمعوا لهُ

الموسيقى العربية

وعبده الحمولي

خليل مطران

(١)

مات عبده فمات فن وزال آخر شعاع من عصر توارت شمسه في ظلمة الأبد . فقد كان اسماعيل شمساً في سماء مصر . وكان كل ذي شأن من معاصريه ككوكب يستمد منهُ نوره . فلما أفلت لحقت بها تلك الانوار يتلو بعضها بعضاً الى ان تمّ الزوال بوفاة صدّاح تلك العظمة الشمّاء وغرّيد ذلك الملك العظيم

وكثيراً ما كان عبده يبكي لحناً من الحان ذلك العهد فيسلبه لنا من خلال مدامعه الجارية وفمانه الشجية كأنهُ زينة مُنارة بألوف المصابيح حافلة الجماهير الفرحين الطروبين . وكأن مصر دار ذلك العرس تضحك بالانوار لمستقبلها العابس . وكأن الامير أمير الزمان يومه وغده . وكأن الوفود من عرب وعجم اعوان دولة تشاد . وانما كانوا مقدّمة أمل رفيع المعاد . وكان « عبده » منهُ على اريكته بشير السعادة الخالدة في ذلك الاستقلال الزائل . فاذا فرغ من انشاد صوته ورجعنا الى انفسنا نظرنا حولنا فرأينا دولة اليوم ورجال هذا الزمن . ولم يثبت لدينا من حقيقة ذلك الحلم الرائع إلاّ ذلك المغني المتنحب على حالٍ حالت . ونعمةٍ زالت . ودولة دالت

ولقد كان في مصر قبل انقضاء هذه الأشهر الاخيرة مغنيان هما « عبده » « وعثمان » فاليوم نحن ولا مغنٍ في الفرح . ولا معزٍ في الترح . الاّ ما كان من قبيل رجع الصدى الذي يتردد حيناً بعد هتاف الهاتف

كان عبده مبتكراً يخلق اللحن خلقاً من حاضر ما يوحي به اليه فيحبّر به المهرّة ويطرب الشامين ما يشاء التطريب بالنغمة والاعجاب بقدرة مبتدعها . وربما كسر القيد ونقض القاعدة

وندَّ عن المألوف . فطار وحلق . وقد بكم العود ، وعيَّ القانون ، وأنصت الناي . مطلقاً صوته يمرح في سماء التطريب . فمن وثبة الفسر الى انحدار السيل . الى خطف البرق . الى تغريد القمري الى نوح الحمامة . الى انين الجدول . كل هذا والصوت عال منخفض . جهوري خافت . رنان مرتجف . مشبع ضئيل . والنغمات تجتمع اصولاً وتفترق فروعاً . وتلتقي وتنفرد وتتداني وتتباعد وتتواصل وتتفاصل مفضية بعضها الى بعض متسلسلة على مقتضى سلامة الذوق والمهارة الفنية منتهية الى القرار

وكان « عثمان » مؤلفاً بارعاً في ترتيب الالحان . بصيراً بأخذ النغمات من مواضعها وجمعها على نسق مستحب . كلفاً بصناعته جادّاً في اتقانها إرادة ان يستفيض عنهُ طلاوة الصوت بحسن الاسلوب ولطف السياق . ولهذا كان لا يغني متفرداً . ولا يطلق صوته إلاّ على اجنحة الآلات . فاذا لحّن اغنية واسمعها الناس لأول مرة خرجت متقنة صحيحة الوضع رائعة للسمع . ولكن يبدو عليها اثر أعنات الفكر ويُشتم منها ريح التصنع المذاب في السهر على تخريج اجزائها . وتوجيه ضروبها . والملاءمة بين رقتها ومتانتها . على ان هذا لا ينفي ان « عثمان » كان ضريب « عبده » وانهُ أثبت بنتيجة عمله ان لحسن التأليف مكاناً بجانب الابتكار وان للاجتهاد منزلة قد تعادل منزلة الاختراع . بل ان المجتهد قد يكون ذا فضل على المخترع بما يهيئهُ لهُ من مواد الابتداع . ومن الحق ان يُقال ان « عثمان » كان في اخريات هذه السنين واضع معظم الالحان فيأخذها « عبده » عنهُ ويكسوها من الحلل والحليّ ما تشاء بديهته الخاصة به فيبدو هي سوقة حسان اذا هي ملكات بتيجان . وبينا هي اشخاص ترمقها عيون المعجبين ، اذا هي ارواح تنسمها قلوب المحبين

وعلى هذا كان « عثمان » يجدد للناس روح « عبده » و « عبده » يسمع الناس علم « عثمان » فهما العاملان المتكاملان احدهما بالآخر على ما بينهما من تحاسد وتباغض وتباعد

هذه صفة « عبده » مغنياً وتلك منزلته التي لم يدانه فيها من ارباب فن الموسيقى الاّ « عثمان »

أما اخلاقه فكانت اخلاق كرام الناس وبها شرّف قدر مهنته التي كانت الى عهده تعد من المهن الوضيعة . فقد كان انيس المجلس . كارهاً للغيبة راغباً في مجانس الظرفاء المتأدبين ، محدثاً ذكيًّا لا تفوته شاردة ولا واردة من طرف الكلام جوّاداً جود الامراء منطقاً وديعاً كأنهُ ابداً في حضرتهم وفيًّا لاصدقائه لا يضن عليهم بما فيهِ نفع لهم ورضى . مجاملاً لذوي قربه محتاطاً لهم لا ينهض منهم إلاّ من ركب الدنايا واختار بما يسميهِ شرف الحرفة

ولو كتب الله لهُ فسحة في الاجل لعاش عيشة مقيدة بنظام . ولكنهُ كان مطلق هوى النفس كما هو شأن النوابغ ولا شك في ان نعم الله الكثيرة قد حسبت عليهِ رحمهُ الله رحمةً واسعة

(٢)

اما وقد اشرنا بما يقتضيه المقام من الايجاز الى منزلتي « عبده » و « عثمان » فيجمل بنا

تسهيلاً لفائدة هذا المقال ان نتكلم على فن الغناء العربي كما هو الآن ونبحث فيما اذا كان ينبغي ان يبقى كما استخلفنا عليه هذان القيدان او ان يعدّل ويكيّف بحيث يصبح أتم تأثيراً في النفوس وأصلح لأن يشعرها ما هي في حاجة اليه من الخلال الشريفة والفضائل

فالموسيقى فيما اشتهر من تعريفها انما هي تأليف اصوات تحدث طرباً في قلوب السامعين. والطرب قد يكون سروراً وقد يكون شجواً ومعناه في الحقيقة الانفعال الذي تولده الانغام في النفس أيًّا كان

ومن اوصاف الموسيقى انها في بناء الاصوات كفن العمارة في تشييد الابنية وتأليف اجزائها والمناسبة بين رسومها ونقوشها وتفاطيعها وتحلياتها يسميه الافرنج بموسيقى البناء على ان اساسها التناسب كما هو أساس كل فن نفيس وهذا التناسب في الموسيقى يعرف اصطلاحاً بالايقاع، والايقاع قديم قدم الموسيقى غير ان المشين من العرب حصروه في نغمة نغمة مما يغنون. فكان في حقيقته مفضياً الى الملل بخلاف الافرنج فانهم استخدموه وسيلة للتنقل من نغمة الى نغمة ولاعطاء كل نغمة جميع الرنات التي يتم بها طربها التاجم عنها بذاتها او باجتماعها مع سائر الانغام التي يتألف منها الصوت

ولا غرو ان يكون مفتونا على مثل هذا الجهل الذي ابقى الموسيقى العربية على حالها الفطرية فان شعراءنا — الا بعضهم — وكتّابنا عدا القليل منهم — لا يزالون الى الآن ارقاء الجناس، وعبيد مراعاة النظير، وخدمة السجع، وذبّاحي المعاني الجليلة وناسخي الحقائق، وماسخي الصور الجميلة في الطبيعة، وجاحدي وجدانات النفس وانفعالات الحس ليقتدوا بأمة هم تركوا عاداتها واخلاقها، وعبروا خيامها وصحاريها وأنكروا ملبسها ومأكلها ومشربها، ولم يحتفظوا بشيء من خلالها ومزاياها. ولم يستبقوا منها الا النسبة اليها. فلا هم يحسنون تقليد ادبائها ولا هم ينتزعون من لغتها لهم لغة خاصة فصيحة ذات اساليب ومصطلحات وألفاظ تمكنهم من التعبير عما يخالج ضمائرهم ويخامر نفوسهم بما ينطبق على الواقع ويكون صدًى حقيقيًّا لما يشعرون به

كتب اعرابي في صدر منظومة له « فما بكى » فلم يسهل واحد منهم منظومة بعد ذلك الا وهو واقف باكٍ. ولنظم آخر ابياتاً كثيرة روي واحد سميت قصيدة فتحه في ذلك كل ناطق بالضاد من صحراء الجاهلية الاولى العريقة في الهمجية الى ساحة المعرض العام بباريس في أجمع زمان لاسباب الحضارة وكل كتب القصيدة على ذلك النمط. وذكر احد ظرفائهم ان الارجوزة حمار الشعر فلم يروا عقب ذلك ارجوزة الا وهما اربع قوائم تمشي عليها. وهكذا هم يتقيدون بسلاسل التقليد. وكتّاب اللغات الاجنبية يذهبون كل مذهب في اختراع التراكيب وابتداع الاساليب التي يظهر معها كل خفي ويتجسم كل روحاني، وتتمثل كل صورة، ويصور كل شعور

فهم أبناء عصرهم ونحن ابناء العصور الخالية . وهم يحيون بما ينظرونه ويحسونه . ونحن نحيا بما ننقله حتى في التصور والحس .

ومعلوم ان الموسيقى شقيقة للادب مطبوعة على غرارة فكيف كان الادب تكون الموسيقى . وهي الآن منحطة في الشرق لانه منحط وانحطاطها على قدر . فكلاهما يجب نقده وتنقيحه واخراجه الى ما تقضي به الحاجة الماسة . والاّ فأي مصلح للامة يكون اقوى في البيان ؟ وأي بيان يكون اشد وقعاً في النفس من الذي توصله اليها النغمة وتمزجه بها مزجاً ؟

على ان الاصلاح الذي ينتفيه ميسور اذ يكفينا أن نبدأ بتطبيق الموسيقى العربية على الموسيقى التركية تطبيقاً تدريجيًّا الى ان يألفها الذوق ، وتوضع لها قواعد ، وترسم علامات ، ويغنى الدور الواحد بنغمة واحدة وألفاظ واحدة في المنتديات وفي البيوت وفي الاسواق . فاذا وصلنا الى هذه الدرجة انسقنا بحكم السير الطبيعي الى ما هو اعلى فأعلى . وهكذا فعل الاتراك . اذ اخذوا عن الارمام الذين غناؤهم اقرب الى الغناء الشرقي . فأصبحوا الآن ينشدون في ملاعبهم اجمل الروايات الموسيقية الاجنبية بألفاظ تركية وقد لا يمضي زمن حتى ينشىء بعضهم رواية موسيقية متقنة فيبلغون بها الغاية

وكان المرحوم « عبده » قد شرع في نقل شيء عن الموسيقى التركية . ومنها أخذ الاهات الطويلة التي يصاعده فيها جمهور المغنين وهي احسن ما في غنائنا الآن . غير انه لم يتمنَّ له معين على احداث الرموز التي هي اساس علم الموسيقى والتي بغيرها لا تكون الانغام الا فوضى . واذكر اني شكوت اليه يوماً هذا القصور وقلت له . ان الرموز الموسيقية موضوعة منذ نيف وخمسة آلاف سنة . وانها اول ما رسمت في الهند وفي الصين . فمن المخجل ان تكون مصر سيدة الموسيقى في الشرق الآن ولا يستطاع اثبات لحن من الحانها على صحيفة يعلم منها اخواتنا الفاصون او ابناؤنا الآتون اي فن كان فننا في التلحين وما كان «عبده» وكيف كان اسلوبه ؟ وهل كان جديراً بالمحل الذي احل فيه من اكرام الناس ؟ فأجابني : انه كان يود ذلك وانه سعى ما سعى للوصول اليه فلم يفز بطائل . وانه لم يجد واحداً في القطر يستطيع ان يعرفه معنى لحن من الالحان الاجنبية تركية كانت اوغير تركية . وان كل ماحصله من معنى الاتراك وأدخله في المغنى العربي كان سماعيًّا اجتهاديًّا رائده فيه موافقة الذوق المألوف ، ومراعاة الاصطلاح المعروف

لا جرمَ ان عملاً كهذا ليس مما يقوم به فرد أوعى صدره ما اوعى من المعارف الموسيقية المختلفة . وبلغت ثروته ما بلغت من السعة . وانما هو عمل شركة او جمعية تستقدم اساتذة من الاستانة لتخريج جمهور من ذوي الفطرة الموسيقية والاصوات الحسنة على مبادىء هذا الفن . وتعليمهم حقيقة مقصده وشرف غرضه ، وتدريبهم على التأليف فيه كل بما يوحي اليه علمه وعقله

وترشده اليه ملكته كما يفعل ذلك الذين يدربون على الانشاء ، وتاتج مثل هذا التدريس أبين من ان اطيل الكلام عليها فحسبي الاشارة

اما اذا بقيت الموسيقى على ما هي عليه الآن فانها بلا ريب تلذنا ولكنها تمثلنا ابداً باخلاق الرعاة الفوضى وان كنا في أزياء المدنيين الحضريين لان هذه الاصوات الآنية ، وهذه الآلات المرضية ، وهذه النغمات الصدرية لا تصدر عن بأس وحزم ولا تدل على شرف وعلم

(٣)

بقي ان نصف كيف ينبغي ان تكون الموسيقى العربية ليحسن تصورها الذين يروعهم من الموسيقى الافرنجية دوي الطبل وقعقعة النحاس وطنطنة المثلثات الحديدية ، وخوار المعازف المدنية ، الى ما يماثل ذلك مما يختلط على ذهن جاهله ويسوء وقعه في نفسه لعدم ادراك معناه . وانما الموسيقى في اصطلاح الفريقين فن كالكتابة او الرسم سوى انها تمثل لنا بالصوت ما يمثله لنا الانشاء بالالفاظ التي تستثير في مخيلتنا تصور مقصوداتها وما يمثله الرسم بالصور التي تنطبق على مرئياتنا

وبديهي أن كلاً من هذه الفنون لا يرينا مما يمثله إلا جانباً ويدع لنا الجانب الآخر تتمهُ بما تخيله أو نقله أو نشعر به ، فالكاتب اذا حدَّث عن عاصفة مثلاً وصف لنا شمساً محمرة كالجمرة في كبد السماء يحيط بها قتام يتناها الى ان تطفىء فيشمل الظلام ويكون ليلاً . ونشر سحائب سود كثيفة ترسل في الجو رعوداً مايثة الدوى ثم صادعة ، وبروقاً ملطفة اللمعان ثم ساطعة ، واطلق ريحاً مجومياً عاصفة تمر على البلد الموصوف فتهدم واهية مبانيه وتذري رماده وتجتث اشجاره العاتية وتصفع وجوه زجاجه بالبرد وتجري بطرقه سيولاً فاذا ابلغ السيول منتهاه وصف لنا في خلال هذه الروائع كلها طفلاً يتيماً هائماً على وجهه وقد لجأت الناس الى ما كنها جزعاً وقد اطمأنت الاطفال بين ايدي آبائها وامهاتها في مآمنها وانما يقف ذلك الطفل الصغير في ذلك الموقف الرهيب ليحرك في قلبنا وتر حنان ورفق خلال خفقان الهلع وثورة الدهشة فمن قرأ هذا الوصف رأى تكلح الشمس وافولها وانتشار السحائب السود ولمع الوميض المتتالي وتقلع الاشجار . وتقوض الجدران على التوالي وسمع زئير الرعد القاصف وهدير السيل الجارف . وركض الزمهرير العاصف وركوع البناء الواقف . ورأى في اثناء هذا الحادث الجلل دهشة ذلك اليتيم الخائف وسمع خفقان قلبه الصغير الواجف كأن ما قيل حاضر بين يديه وكأنه منه على كثب ينظره بعينيه ويسمعه باذنيه مع انه في الحقيقة لم يرَ ولم يسمع من ذلك شيئاً . فالكاتب رمز له بما ينبّه عنده هذه التصورات الشتى ويحملها على الشكل الذي أحبهُ ثم لهُ ما أراد على قدر مهارته وللالفاظ في بلاغ قصده رنة لا تنكر . وللتراكيب امتزاج بالنفس لا يجحد . ولاصوات الحروف لعب بالسماع والقلب لا ريب فيه . ولكن كل هذا ليس الا من المتممات . فاذا قدرنا بعد

هذا ان رساماً تولى تصوير هذا المشهد فغاية ما تستطيعهُ تمثيل قدّة كالهلال في الشمس الحمراء في جهة الافق . وتكديس طبقات من الغيوم القاتمة في صدر السماء . وتحدير خيوط كثيفة من المطر الغزير . واقامة أمواج من الزبد في الطرق السائلة بالوحل والماء تلاطم من الحجارة اشباه أثياب العجوز الفلجاء، واماله حائط وصرع شجرة وتقصف اخرى ، وتكسر زجاج ، ووقفة طفل باكي الاطمار في موقف الحيرة والجزع بعينين مجلاوين وقد سالت منهما دمعتان . ولكن الرسام يرتب هذه الاجزاء ويحكم وضع كل معنى مقصود في اللون الذي يلونه حتى انك لتسمع الرعد وانت تنظر البرق وتحس الدمار وانت ترى آثاره وتشعر بخفقان قلب الطفل وانت ترى الانفعال البادي على وجهه والدمعتين المتسلسلتين من مقلتيه

وصفوة القول ان الكتابة فن منبه التصور والحس رمزاً . وان الرسم فن منبه لها نظراً . فكان والحالة هذه لا بد من فن متمم لهذين الفنين لينبه التصور والحس سمعاً . وهذا ما بنيت عليه الموسيقى منذ بضع مئات من السنين في اوربا على اعتبار انها فن تضيء مثلها قابل لتأدية المعاني التي يؤديانها . وقد وصلت الآن في تلك البلاد الى هذه الغاية . واصبحت عاملاً من اكبر عوامل تقدمها العجيب

فلنصف الآن كيف تخيل تمثيل الموسيقى للمشهد الذي ذكرناه آنفاً وان لم تكن ممن لهم رأي في هذا الفن . هنا اسأل الصديق الذي يقرأ هذه السطور ان يتخيل انهُ اجاب دعوتي وصحبني الى دار غناء لأريه بسمع أذنيه ما نظره في الرسم بعينيه . فنحن الآن اذن جالسان في تلك الدار على كرسيين متجاورين . وهذه امامنا مجالس الضاربين والعازفين

انظر ايها الصديق أن عدد هؤلاء نحو المائة امام كل منهم دفتر فيه رموز الاصوات التي ينبغي ان يحدثها في الاوقات المعينة له . وهذا كل ما عليه . وعلى الاستاذ الذي فوق المنصة ان ينبه لعامة الترتيب ويمنع الشذوذ . اجمع حواسك الآن واصغ بكليتك فقد أشار الاستاذ بان يبدأوا

ماذا تمثل لك هذه السحابة من النغمات التي تخرج من الاوتار مضطربة سريعة مبتدئة من القرار ؟ أليس هذا أول تهدد الريح المنذرة بالهجوم ؟ أو ليس فيها ما يشعر ببرد الزمهرير ؟ أتسمع كيف تترقى صاعدة متدافقة كأنها علت فوق الارض ذاهبة في الجو كلما جازت شوطاً زادت قوة واتساعاً الى ان تخيلها بلغت السحاب ؟ هذا تنبيه يسمو بالفكر على مثل البساط الروحاني ليوصله الى الافق الأعلى ويشهده حادثاً جليلاً فقد دنت الغيوم من الشمس فاغرة فاها . وانضمت اصوات المعازف النحاسية الى نغمات الاوتار وبلغت الصيحة الى منتهاها . حتى اذا غاص السحاب الضاري جانباً من الشمس وادماها بانيابه حكت الضلوع هذه الصكة الفجائية المنكرة التي ختمت بها حكاية الحان . فكأن الشمس قد انتفت كالقطعة الحمية من النحاس الرنان . وكأنها انشطرت شطرين

وتوارت بالحجاب . وبعد هذا تأمل كيف تراجعت اصوات تلك الصيحة هابطة تدريجاً الى أن انقطع خوار المعزف ، واستقلت رنات الاوتار تحدر كرش المطر في اول انهماره

الى هذا المقام انتهت الانذارات

انظر كيف أخذ جمهور النغمات يخرج من عامة الآلات متموجاً تموجاً ثقيلاً كأول تحرك البحر ليهيج. أتسمع انسكاب الويل الشديد وتدفق الميازيب وعصفات الريح الطويلة التي تبدأ مثل ارنان النادبة وتنتهي مثل غمغمة الأسد الجائع الذي جاس يأكل فريسته ؟ أتسمع قرع الحجارة تحت السيول ؟ أتسمع تقصف الاشجار المتكسرة ؟ أتسمع وقع الصخور وتهدم الجذران يشمل كل ذلك دوي الرعد الذي يحدثه الطبل ويفرّعهُ الصدى الى عدة رعود صغيرة متتالية يحدثها الطبلان الصغيران تحت النقر السريع المتتابع . أليس لكل صوت من أصوات هذه العاصفة ما يحاكيه إما في آلة او في جمع صوتي آلتين على ترتيب معلوم ؟ ألم ترتسم البرق خلال غضب الرعد ورسم الشجرة الواقعة خلال تقصفها وهي تتكسر على مناتنه بها ؟ أو لم ترَ نواصي السيول واعرافها البيض خلال وكفها وتهدُّرها وصعودها وتحدُّرها ؟ . هذا منتهى ما يكون هول العاصفة

اسمع الآن كيف أخذت هذه العناصر الجمة تتناوب مراوحاً بين بعضها والبعض . السر في ذلك من جهة ان يبقى في النفوس شعور باستمرار العاصفة وقد تراخت قليلاً بعد الشدة كما هو شأن العواصف ومن جهة اخرى التمهيد لاسماع الناس أنة ذلك اليتيم في حيرته وخوفه . هذه أنة اليتيم تنطلق من أوتار ذلك العود الضخم القائم كالامير بين الآلات كأنهُ سرير داود بين اسرة الملوك في زمانه. أتشعر بما فيها من لذة وحنان ؟ ألست مدركاً من نفسك انها زفير طفل حزين؟ أما في هذه الآونة عثرات اشبه بعثرات قدم الطفل المتحير في خطها وعدم انتظامها ؟ ولكن هنا انقطعت النغمة اللطيفة وعاد الانذار بالهول . سيستأنف جميع ما سمعتهُ من الصيحات والجلبة غير انهُ ملتف كأنهُ مسموع عن بعد ومن وراء حجاب كثيف . ولمَ هذا ؟ لأن ما يستأنف ليس اصوات العاصفة بالذات بل صداها في دماغ ذلك اليتيم المروع الضعيف

هذا بيان واحد من الف من الامور التي تصلح لها الموسيقى ويكون موقعها من النفوس بها كموقعها من النفوس بالرسم والكتابة . ومن المعاني ما يكون تأثيره بالموسيقى أشد وامتن ، على أن لكل من هذه الفنون مزيته التي لا تجحد في تنشيط العزم وازالة الملل . فان المرء يسمع ويبصر لا بأحدهما

قالى هذه الغاية الشريفة من اصلاح فن الموسيقى ينبغي ان تتجه الرغائب العامة في مصر فان « عبده » كان خير مغنٍّ لزمانه وعهده عهد صبابة ورخاء . اما نحن فان اردنا النهضة من الحطة التي نحن فيها فينبغي لنا مغنٍّ يهض عزائمنا الخائرة ويرفع أبصارنا الى السماء

المقامة الكبكجية

تصنيف

مستفز الحريري والهمذاني

أمين الريحاني

حدثني العُشّة قال :

كنت في مكتبة المدينة، اتطفل في الكتب الثمينة ، فمرّت على سفر من الاسفار ، مغلّف بالغبار هو « بلوغ الادب ، في الضحك والطرب » . وقد كنت في غمّ وا كتئاب ، فاستبشرت بذلك الكتاب ، ورحت امنّي النفس بالكنز المكنون ، في الفكاهة والمجون ، وانا اقول لها : كفالك الكدح في الورق المصقول ، من مؤلفات كبار العقول . هذا كتاب في الضحك فابشري ، ولا تستصغريه ولا تستكبري ؛ فالضحك من نِعم الحياة ، لسائر المخلوقات ، حتى للعُثّ والمكروبات

ثم زيّنت حنجرتي ، وشحذت ناقرتي ، ودخلت الكتاب ، من اون الابواب ، تنقرت منهُ بضع صفحات ، في الاصول والغايات ، وكنت كمن ينشد ابا الصنّاحة في جنازة . فخرجت مسرعاً الى الفراء استنشق نقي الهواء

بعد ذلك استشعرت الامل ، وعدت الى العمل ، فدخلت الكتاب العويص المعاني ، من الباب الوسطاني ، وشرعت اقرم فيهِ ، قَرْمَ الشريه بل قرمَ الفقيه ، فتقذت من خلال غباره الى حواشي اسراره ، وتمثرت هناك بمدَرهِ وحجاره ، بل سقطت بين فصليه ، كمن أُغمي عليهِ ، فبادرتْ اليَّ الشقيقات ، بالمراوح والمنشات ، فأنقذتني من شر النكبات

ثم شمرت بنشاط تجدد ، وعزم تسدد ، فهجمت هجمات متوالية ، على برج انعم العاية ، بل طفقت احفر تحت اساسها ، بكاية بعبرها وقرطاسها ، فهدرتْ وهي تهبط عليَّ ، فصحت : اليَّ اليَّ ! ان في هذه الابراج جنًّا يجنجنون ، ويضحكون ويقهقهون

وهناك بين الردم رأيت سراجاً ضئيل النور ، وسمعت صوتاً كصوت الناعور ، فاذا بجنّي من اقزام الجن ، يتمطى ويئن ، بدا صغيراً وغدا في لحظة كبيراً خطيرا . وجهه كالسنكسار[1] المفتوح ، والاحرف فيه كالفروح ، متنه صغير الحد ، وهامشه بياض يمتد ، وفي رأسي الصفحتين عينان مستطيلتان ، هما العنوان . وفي اسفلهما تتزاحم وتلتف الحواشي ، كالشعر في لحية النجاني . ومن وسطه تبرز الاقلام ، كأنها السهام . يداه محبرتان ، وساقاه محدلتان طويلتان ، تحتها رجلان ستديرتان ، كأنهما دولابان . فكان يدرج في مشيه كالدولاب ، وكلما تكلم سقط من فيه الكتاب تلو الكتاب

وقف هذا المخلوق العجيب في نور السراج الكئيب ، ثم صاح بي ، وهو يدرج من صوبي : كفاك فضولاً وافتراء ، يا ابنة الصوف والفيراء !

فتشجعت وقلت : احسنت احسنت ، ومن انت ؟

فقال ، وهو ينفخ كريح الشمال : انا كَبْكَجُ رب الكتابة والكاتب ، وحامي الكتب والمكاتب . احميها للطالب والسالك ، واحفظها من المهالك ، ومن غوائل امثالك ، ولكي رأيتك للعلم طالبة ، وبالتفقه راغبة ، فجئت اعينك لبلوغ الادب ، في علم الضحك والطرب . فاعلمي ، وُقيت شر العيون ، ان الذين لا يضحكون ، في ما يكتبون ، هم للزمان ، البواصر والآذان . فلا عجب اذا كان العلماء ، للضحك اعداء . فان حياة الانسان ، لأشجان كلها واحزان . فهل يضحك المنكوب والمحزون ، وهل في التطريب ما يطرب المظلوم والمغبون ؟ أولم يقل الفيلسوف الشهير ، مشرّح الناير ، ان الضحك دليل على ضعف العقل والتفكير ؟ أولم يقل العالم بترهات الانام ، الاستاذ ابو كلام : كلما تغلغلت في اسرار الحياة ، بعدت عن الضحك والمضحكات ؟ أو لم يقل احد الاخصائيين ، بالجنون والمجانين . . . .

(١) كتاب ضخم كبير في تراجم الصالحين واعمالهم يقرأ في الكنائس

قالت العُشّة : وبين كان كَبْكَجٌ يخطب خطبتهُ ، ويعزز بالادلة حجتهُ ، احسست بشيء يضغط عليَّ ، عند يمدّ رِوَي ، فانسللت من حضرة ذلك الفول ، وانا اقول : ما اثقل الحكماء ، وما ابلد الحكماء ، اولئك الذين لا يرون في الحياة ، غير الدود والحيّات . فقد تشدقت في العلوم ، ما يكشف الصوم ، فاذا بالسفر الجليل ، كالحمل الثقيل ، على قلب العليل

فقلت ، وما أطلقت : أفلا يضحكك من لا يضحكون ، وهم في خرائب الضحك ينقبون ؟ أوَلا ترين النكتة في النقاب ، الكثير الاثقاب ؟

فتبسمت تلك الوادعة ، وقالت متواضعة : مثل هذا التفكير . هو دون عقلي الصغير . ولكني مضيت في الامر ، اشد في الكتب الضّاحكة والزمر . فلقيت الكتاب ، الذي يضحك حتى اليوم في الغاب ، ويطرب حتى الغراب . والغريب في عنوانه ، انهُ لا ينبيء بشيء من بيانه ، وهذيانه ، هو « فصل الخطاب ، في علم الاكتئاب » . وأني اشهد بكبكج الدسيم ، انهُ كتاب كريم ، يلقيك في بحر من الحبور ، ويرفعك الى سماء الطرب والسرور ، فينسيك كل هم ، ويجدد فيك حتى البشرة والدم

ولقد طربت بآياته ، في اول صفحة من صفحاته ، وفيها ان الاكتئاب ، هو رأس الاسباب ، في بلاء الشيوخ والشباب . وفي غيرها الحديث الشريف ، والقول الطريف . فقد رُوي عمن كان مثال الورع والوداعة : « روّحوا القلوب ساعةً بعد ساعة » . وقال ابن اسحق لمن تزوّجوا ، وبوزر الوقار رزحوا : « لقد طرب الصالحون وفرحوا » . وفي الصفحة الاخيرة ، هذه الدرّة الصغيرة : « الوجه العبوس ، بدهن الضبّ مغموس »

بعد هذا الخطاب ، عادت العُشّة الى الكتاب ، تقضم في صفحاته ، وتتلمظ بطيباته ، وهي تحسب الحياة كل الحياة ، ساعةً من اللذات . وبين هي في ذلك النعيم ، ظهر كَبْكَجٌ الظليم ، فصاح بها قائلاً : أتحتقرينني ، وتمرين من ظل عرنيني ! ألا ومن يرى الاقلام ، وركّب الالفاظ والكلام ، سأسحقنّك سحق الكراويه ، يا ابنة الطافس الغاويه !

ثم تناول بطرفي الباهم والسّابه ، كتاب الغم والكآبه ، ونفخ فيهِ نفخةً صفرت ودوت ، فطارت العُشّة وهوت ، فنظر اليها وهي امامه ، ثم درج عليها وفي فمه ابتسامه ، وتوارى وهو يقول : من عاش قليلاً ، كمن عاش طويلاً . وفي بواكر اللذات ، تُحمَد النهايات

الفريكة — لبنان

الحركات الاستقلالية

في مصر القديمة

للدكتور حسن كمال

لا يخفى ان تاريخ مصر القديم يضم حوادث اربعة آلاف سنة أي منذ ابتداء ظهور الحضارة على سواحل البحر الابيض المتوسط لما كان العالم عائشاً في ظلمات الجهل والوحشية ولعلّ أهم ما يستوقف نظر الباحث في هذا الموضوع ما اصاب البلاد من غزو الاجانب واختلاطهم بالمصريين وتأثير ذلك في الاذهان والاخلاق الوطنية

وكان القطر في مبدىء مدنيته منقسماً الى عدة امارات صغيرة مستقلة اخذت تلتئم تدريجاً حتى تكوّن منها مملكتان عظيمتان احداهما بالوجه القبلي والاخرى بالوجه البحري . وامتازت المملكة الاخيرة بسرعة تقدمها في الحضارة . ومنذ عام ٤٢٤١ قبل الميلاد لقبت مصر « بأرض القطرين » نسبة الى جزئيها البحري والقبلي . وحوالي عام ٣٤٠٠ ق . م انضم هذان الوجهان تحت سلطة الملك مينا فكان هذا الملك اول من حكم ارض مصر مجتمعة واول ملوك الاسرة الاولى المصرية . واعتبر المؤرخون عهد مينا هذا حدّاً فاصلاً في تاريخ مصر القديم اذ قسّموه الى قسمين . القسم الاول ويرجع تاريخه الى ما قبل الأسر والقسم الثاني ويعرف بحكم الاسر . وقد اثبتت لنا المباحث والحفائر الاثرية ان زمن حكم الاسر جاء نتيجة مباشرة لرقيّ وتقدم تدريجي في حضارة الزمن السابق

والفضل في رقي الحكم المصري مدة حكم الاسر الاولى التي تقدر بحوالي اربعة قرون يرجع الى ضمّ سائر جهاته تحت حكم الملك مينا وسلالته الذين اتخذوا مقرّهم في باديء الامر مدينة طيبة بالقرب من المرابة المدفونة . ثم انتقلوا بعد ذلك الى منف . وفي هذه المدينة ارتقت حضارة البلاد وزاد عمرانها وقوى نفوذها فسمّى الاثريون هذا العهد « المملكة القديمة » . وفي هذا العهد تجلّت حكومة البلاد وادارتها الداخلية بأجلى مظاهر الكمال . واخذ النفوذ المصري يمتد الى ما وراء حدود المملكة

ولما تولت الاسرة السادسة الحكم سنة ٢٩٢٥ ق . م ساست القطر حتى عام ٢٤٧٥ ق . م وفي عهدها اخذ يدبّ في نفوس حكام الاقسام شعور الاستقلال والكبرياء . وكانوا قد احتفظوا بمراكزهم الادارية لاسرهم منذ زمن الاسرة الخامسة . بهذه الطريقة مهّد هؤلاء الحكام الطريق لتجزئة القطر المصري الى امارات مستقلة صغيرة وشلّ نفوذ السلطة المركزية بالبلاد

هكذا تمكن حكام الاقاليم المصرية من اسقاط بيتهم الفرعوني المالك في اواخر حكم الاسرة السادسة حوالي سنة ٢٤٠٠ ق.م .. ومن دواعي الاسف اننا لم نهتد الى كيفية تطوّر تلك الادوار وغاية ما وصل الينا عن ذلك العصر قائمة باسماء ملكية اعتبر (مانيتو) اصحابها ملوك الاسرتين السابعة والثامنة المنتيين . وقال انهم حكموا مدة لا تزيد عن ثلاثين سنة . اما الاشخاص المسؤولون عن هذا الانقلاب العظيم فلم نهتد اليهم للآن . لكننا نظن انهم كانوا معادين لملوك المملكة القديمة . لانهم نهبوا المعابد وخرّبوا الهياكل والمقابر والنقوش والرسوم البديعة بنظام وتدبير . وحطموا التماثيل الجرانيتية الجميلة والصوّانية وألقوا بعضها في الآبار . لذلك لا يبعد ان كان ذلك العصر عهد فوضى وخراب عجز فيه ملوكه وامراؤه عن تشييد مقابر او آثار لم تستدل منها على حوادث زمنهم

لكن المعروف ان مثل هذا الانقلاب الفجائي لا يحصل عادة الاّ من غزو اجنبي عن طريق الدلتا غالباً . وهذا الغزو سبّب تقهقر حكام منف العظيمة الى (اهناس) الحفيرة . قال الاستاذ (بتري) ولعلّ الملك (خيان) الذي جاء عنهُ انهُ حكم القطر طرًّا مثل الهكسوس كان احد الملوك الاجانب الذين غزوا القطر وابادوا سلطانه بعد حكم الاسرة السادسة . وقد نسب بعض الاثريين هذا الملك الى عهد الهكسوس . لكن (بتري) عارض في ذلك واعتبره اسيويًّا غزا مصر عن طريق تل بسطة (قرب الزقازيق) وحكم في الوقت نفسه شمال جزيرة العرب والعراق ومصر بدليل تمثال الاسد الذي وجد بالعراق واسم ذلك الملك العظيم منقوش عليه . زد على ذلك ان القاب هذا الملك مثل « امير الجبال » و « ضام الاقاليم » تشير ايضاً بطريق غير مباشر الى بداوته واتساع ملكه

ووصلت الينا رواية لا يبعد انها من تلك الازمنة جاء فيها ان ساحراً يدعى (انوور) انذر فرعون مصر بحصول اضطرابات وقحط في المملكة يصير فيها الغني فقيراً والفقير غنيًّا . ثم يغزو البلاد قوم اجانب فينقلب النظام رأساً على عقب . وبعد ما سرد الساحر كثيراً من هذه الاخبار المحزنة قال انهُ سيأتي بعد ذلك رسول « يطفىء نار ذلك اللهيب فيمدحه الخلق ويعتبرونهُ راعيهم السلامة قلبه . ويبقى هذا الرسول يلم شعث الضال من قومه فيلتف الناس حوله ويعضدونه بكل قواهم لينجيهم من بلائهم ومصائبهم . . . . فيدفع الضرر بذراعيه بقوة . . . . . »

والظاهر ان طرد الاجانب من مصر وتشتيت ورد انتظام الى القطر وارجاع السكينة والطمأنينة اليه انما يرجع الى امارة إهناس الواقعة جنوبي الفيوم وهي مركز عبادة حوريس منذ مبدأ عهد الاسر . واول من ارتقى عرش مصر من هؤلاء الاهناسيين هو (إختويس) واليه ينسب حب الانتقام والجبروت والفظاظة اكثر مما تنسب الى سواه . وجاء في نقوش اسيوط ان حالة القطر المصري كانت وتشتت سيئة وان ملوك اهناس قاوموا ذلك السوء وحاولوا ازالته . فكان « كل موظف يدير عمله كالمعتاد بلا مشاجرة ولا مطاحنة ... وبطل قتل الطفل جوار امه وسفك دم الرجل قرب زوجه ووقف فعل السوء .... وضرر الرجل لبيته » . وجاء بمقبرة اخرى « اذا جن الليل مدحني كل من نام في الطريق لانه اصبح آمناً كالذي يقطن داره . ذلك لان فزع الامة من جنودي كان حامياً له في وحدته »

هذه هي اقدم رواية لغزو الاجانب لمصر واضمحلالها ثم تغوتها عليهم وطردها اياهم واسترداد استقلالها سالماً بالتالي

بعد ذلك اخذت شمس طيبة تبزغ تدريجاً لاول مرة في افق التاريخ فأخذ حكامها ينافسون ملوك اهناس ودار بين الطرفين نزاع انتهى بفوز طيبة وانتقال مقاليد الحكم الى حكام الصعيد وتولت بعد ذلك الاسرة الثانية عشرة الحكم وساست الامارات الصغيرة بالحلم والدهاء فتقدم القطر كثيراً ولبست البلاد ثوب التمدين والنعيم لمدة تنيف على مائتي سنة تقريباً اي من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ١٧٨٨ ق . م ويعرف هذا العصر عند الاثريين « بعصر الآداب » لانها بلغت فيه اعظم شأوها . فالشعر والنثر بلغا اقصى درجاتهما من حيث المتانة والجودة كما ان الحفر والعمارة تقدما بدرجة مدهشة

وفي سنة ١٧٨٨ ق . م . سقطت الاسرة الثانية عشرة واشتعلت في البلاد نار ثورة داخلية انتهت بانقسامها وتمزق كلمتها وتطاحن امرائها على العرش . بعد ذلك استولى على البلاد قوم من مملكة اسيوية شاسعة سماهم (مانيتو) هيكسوس حكموا القطر المصري مدة قرن تقريباً واتخذوا في اثنائه مدينة (أواريس) أو (هوارة) الواقعة شرقي الدلتا مركزاً لهم . وذلك حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد . اما (هوارة) فأصلها بالمصرية القديمة — حا أوار — ومنها اشتقت اواريس و هوارة (راجع تاريخ الشرق الادنى للاستاذ المرحوم هول Hall ص ٢١٧)

وليس من السهل معرفة موطن امبراطورية الهيكسوس وأصلهم وأخلاقهم . اذ الغالب ان رواية (مانيتو) ان هؤلاء القوم فينيقيون صحيحة . والثابت ان اهالي بلاد العرب كثيراً ما هاجروا الى سوريا . ولذلك لا يبعد أن هذين القطرين اتحدا بعد مجهودات حربية تحت ادارة حاكم قوي وكوّنا مملكة واحدة . ويرى الاستاذ (كنج King) ان اصل الهيكسوس من بلاد

العرب هاجروا الى الشمال اثر عوامل داخلية ومن هناك غزوا مصر . وقد حدثت بعد ذلك هجرات شمالية مماثلة لهذه بدأت من تلك الاصقاع وانتهت بغزو (بابل) وتأسيس المملكة الارامية وانتشار الاسلام . ومما يعزّز ذلك تلقيب المصريين للهيكسوس بلقب (عامو) — ويعني اصحاب المصاة الملتوية — وهو اللقب الذي اطلقوه غالباً على عرب الصحراء (راجع تاريخ بابل للاستاذ كنج ص ١١٩)

واتضح لنا من الآثار ان السوريين الذين أتوا الى القطر المصري أيام الاسرة الثانية عشرة كانوا متمدينين راقين . كما ان حروب الفراعنة في سوريا بعد طرد الهيكسوس من مصر اثبتت وجود حضارة عظيمة هناك . والظاهر ان انهيار صرح امبراطورية الهيكسوس العظيمة ترك بعض تأثيراته في أهالي فلسطين وسوريا استمرت عدة اجيال بعد بسط النفوذ المصري عليها

من ذلك يتضح ان امبراطورية الهيكسوس سامية الاصل . وقد عثر على جُعَل لفرعون من عهد الهيكسوس عليه اسم (يعقوب حر) — اي (يعقوب آل) اشارة الى احتمال تبوّء احد رؤساء بني اسرائيل الملك في تلك العصور الغامضة . وهذا الامر يتفق مع احتمال دخول بني اسرائيل مصر وتقلد . واذا صحّ هذا الاستنتاج كان عبرانيو مصر عرباً تابعين لامبراطورية الهيكسوس . ولا يبعد ان يكون وجود هؤلاء العرب بمصر سبباً في تلقيب تلك الامبراطورية « بدولة الرعاة » . ولا يبعد ايضاً ان تكون نظرية (يوسيفوس) القائلة بأن بني اسرائيل قوم من الهيكسوس فيها شيء من الحقيقة وان لم تكن هناك ادلة على صحة ذلك

اما كلمة « هيكسوس » فأصلها بالهيروغليفية (حكاو خاسوت) واللفظ الاخير لا يبعد انهُ كان يُلفظ في عهد المملكة الحديثة (١٥٥٠ — ٧١٢ ق . م .) (شاسو) . وعلى ذلك فيكون اسم الهيكسوس بالمصرية القديمة في العهد المذكور (حكاو شاسو) ومعناه حكام البلاد الاجنبية وهي صفة اطلقها المصريون على الاجانب من عهد الاسرة السادسة (٢٤٢٠ — ٢٢٧٠ ق . م .) حتى العهد اليوناني (٣٣٢ ق . م .) وعلى ذلك فلفظ هيكسوس هو في الاصل (حكاو شاسو)

ويستدل من رواية (مانيتو) والنصوص القديمة ان الهيكسوس فرضوا الجزية على انحاء القطر المصري كله . وقد عثرنا على بعض آثار للهيكسوس جهة جبلين باقليم الشلال الاول ولذلك لا يبعد ان دخول الهيكسوس الى مصر كان تدريجاً أشبه شيء بهجرة غير مصحوبة بحروب او منازعات . لكن (مانيتو) اخبرنا انهم لما دخلوا مصر استولوا على منف (جوار سقارة) وانهم اتخذوا هوارة — اواريس — جوار بور سعيد — قاعدة الحكم بمصر لقربها لآسيا . وكان ملك الهيكسوس وقتئذ يدعى (خيانزر) وقد ولّى وزيره المدعو (إنحو) حاكماً على مصر يدير امورها وينظم معايدها والغالب ان حكم الهيكسوس لم تزد مدته على مائة وخمسين سنة في

مصر (١٧٠٠ — ١٥٥٠ ق . م .) وبديهي أن معظم ملوك مصر المعاصرين للهيكسوس كانوا بمثابة ولاة تحت حكمهم

وقد اثار حكم الهيكسوس في المصريين شعور البغض لهم حتى طردوهم وتخلصوا منهم والمعروف عن هؤلاء القوم انهم ادخلوا الخيل الى القطر المصري لاول مرة ودربوا المصريين على الحروب العلمية ، وعليه فالمصريون مدينون لهم بكثير من ارشاداتهم النفيسة وتعاليمهم القيمة مهما عظم مقدار الخسارة والتلف والضيق الذي حل بالبلاد في عصرهم

***

اما كيفية طرد الهيكسوس فتتلخص في أن مصر كانت مقسمة وقت حكمهم الى عدة اقسام تحت ادارة « ملوك مصر » على ما رواه مانيتو . وان كل ملك من هؤلاء كان منفرداً ومستقلاً بادارة اقليمه تحت اشراف الهيكسوس . ولا يخفى ان مثل هذه الحالة اضعفت نفوذ المصريين كثيراً امام عدوهم الاجنبي . لكن ملوك طيبة وبعض حكام اقسام مصر اتحدوا بعد ذلك وجمعوا كلمتهم وشبوا حرباً على العدو وربما كان ابرز هؤلاء الملوك هو المدعو (سكنرع الثالث) (١٦٠٠ ق . م .) وقد عثر المرحوم كمال باشا على مومياءه ضمن كنوز الدير البحري الكبرى وهي الآن محفوظة بالمقبرة الفرعونية بالقاهرة وقد وجدت بهذه المومياء جروح شنيعة ميتة بالرأس أثر قتال ونزاع قبل الوفاة يرجح انهُ حصل وقت حرب المصريين مع الهيكسوس . ولو امكن عمل قائمة شرف عالية لمن ضحوا بأنفسهم في سبيل بلادهم لأتى هذا الملك في اولها . لانهُ ناضل بنفسه بين جنوده بل وتقدمهم حتى تمكن العدو من اصابته في رأسه فهشم جمجمته في خمسة مواضع (راجع كتاب المومياءات الملكية للاستاذ اليوت سميث ١ — ٣) . وتعدد الاصابة دليل على شدة عناد هذا القائد وقوة ايمانه بواجبه نحو وطنه

ولما توفي هذا الملك تبوأ كرسي الملك بعده ابنهُ (كامس) الذي امضى ينفذ خطط سلفه لانقاذ وطنه من براثن العدو . وبهذه الطريقة وضع لنا اسلافنا انموذجاً نقتدي به يتلخص في اتمام العمل الوطني الشريف كلٌ بحسب قدرته . لانهُ ما لم يدرك كنه لا يترك جله . بهذه الطريقة جاء دور (كامس) بطل الكفاح ومثال القائد من حيث النشاط والامانة والاخلاص . فأتى بأعمال جليلة تكشف اعمال (جان دارك) و (جورج واشنطون) وغيرهما . لكنها للاسف مجهولة بين من يجب عليهم الالمام بها . كان من حظ (كامس) ان تمكن من كسر شوكة الهيكسوس لاول مرة وشل نفوذهم بالوجه القبلي . فأثبت بذلك لأهل وطنه امكان قهر العدو والتغلب عليه . بل وطرده من الوطن . حصل ذلك شمال مدينة الاشمونين بمصر الوسطى وكان الهيكسوس وقتئذ تحت قيادة القائد (تتي) (راجع مجلة العاديات المصرية جـ ٥ ص ٣٩)

واهم مرجع تاريخي لاعمال هذا الملك العظيم هو النص الوارد على لوحة كارنارفون رقم ١ التي اكتشفت بطيبة (لوقصر) عام ١٩٠٨ ميلادية والتي يرجع تاريخها الى حوالي عام ٥٠ بعد حكم (كاموس) المذكور فقد جاء بهذا اللوح ان الملك (كاموس) يخاطب مجلس اعيان مملكته في السنة الثالثة من حكمه قائلاً ضمن خطبة طويلة :—

« انظروا الى العدو لقد وصل الى الاشمونين ومنع كل انسان من الراحة لانه استبدهم وأذلهم اذلالاً . لقد اخذت على نفسي مناضلته حتى ابقر بطنه لان امنيتي هي تحرير مصر وسحق الاسيويين » . وورد بعد ذلك على لسان جلالته « لقد ركبت السفن الليلية يتقدمني فيها جيشي المتأجج حمية . . . . وأرسلت جواسيسي لاتمكن من سحق العدو . . . . وأمضيت اليوم في مدينة (نفروسي) — وهي مدينة قديمة تقع شمال الاشمونين بضعة أميال — اناضل (تتي) ابن (أبو فيس) ولم اتركه يفلت مني . هكذا رددت العدو الذي استولى على مصر . . . . وأمضيت الليلة في سفينتي وقلبي جذل . فلما طلع الفجر انقضضتُ عليه كالنسر . فما وافت ساعة تعبير الفم (اي ميعاد الافطار) حتى كان النصر مكتوباً لي . فهدمت جدرانه وتشتتُ رجاله واضطرَّت زوجته الى الهرب نحو ساحل النهر . وكانت جيوشي كالاسود . . . . . ها ! لقد اخذ اقليم (نفروسي) يسقط في ايدينا . . . . . »

***

الى هنا انتهت عبارة لوحة كارنارفون فلم تتمكن من معرفة مدى تقدم قوات (كاموس) وهل هي ثابتت سيرها حتى (منف) او ارجأت الاستيلاء على هذه المدينة الى وقت آخر. وعلى كل حال فكاموس هو اول فرعون نفذ ارادته بالقوة وتشتيت . ولا تزال جثة هذا الملك العظيم محفوظة بمقبرة القرعانة بالقاهرة ومعها مصاغه وأسلحته الحربية

ولحكمة ارادها الله توفي (كاموس) قبل اتمام عمله الذي تهيأ له اعظم تهيء وبذر بذوره ومن اضلاع ابنه (احمس) اول ملوك الاسرة الثامنة عشرة على قول مانيتو . تولى احمس العرش عام ١٥٨٠ ق . م . تقريباً وكان حكمه اولاً محصوراً في الوجه القبلي بقسم طيبة . وبعد ما اثبت لاهالي اسوان عزمه على مراعاة حسن الجوار كاجداده ولى وجهه نحو الهيكسوس . ولم تصل الينا نصوص احمس الاول عن ذلك الكفاح . وكل ما اهتدينا اليه في هذا الصدد هو تلك النقوش الواردة على جدر قبر ضابط مصري من جهة الكاب كان موالياً للملك طيبة واشترك معهم في مهاجمة الهيكسوس . وهذا الضابط يقال له (احمس) ووالدته تدعى (إبانا) ووالده (بابا) هذا كان موظفاً في حكومة (سكنرع (الثالث) السابقة الذكر

(كأس من برونز وزجاج وجدت في أشيا ويرجع إلى ١٤٠٠ ق . م)

(تمثال امرأة تسحق القمح من كيش وجد في أخرة سنة ٢٥٠٠ ق . م
تكرم حضرة صاحب السعادة الدكتور أمير فارس
وزير الثقافة والإرشاد القومي بدمشق)

رسم على قصعة حجرية من تل فكة يعود إلى نهاية عصر التنور يرجع إلى ٣٠٠٠ ق.م.

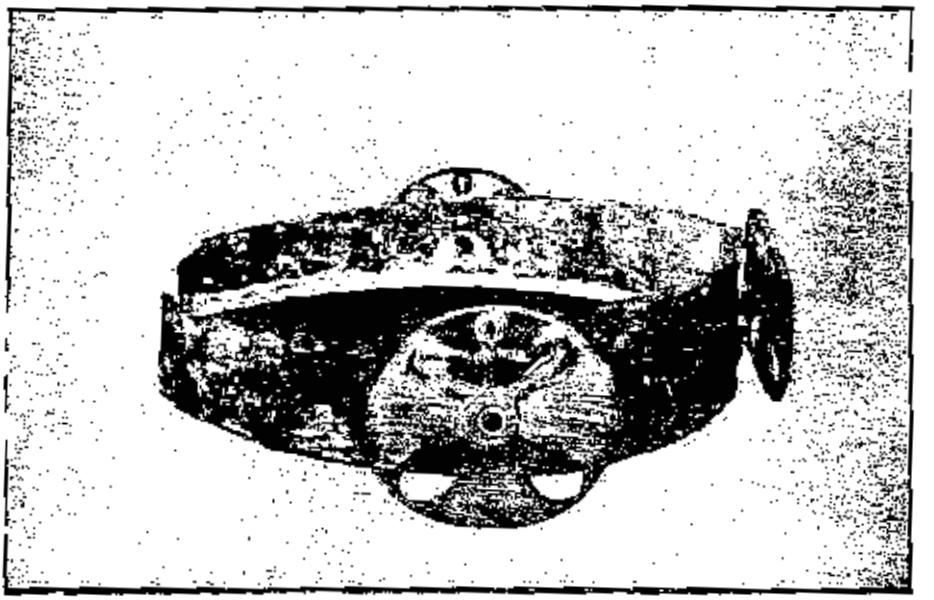

تاج من الذهب من الوركاء من حفائر ريجمي الجزء ويرجع إلى ٣٦٠٠ ق.م.

واليك ترجمة ما قاله احمس بن ابانا عن سيرته ايام الملك احمس الاول : —

« قضيت ايام شبابي في مدينة الكاب وكان ابي ضابطاً في جيش جلالة ملك القطرين البحري والقبلي سكنفرع المرحوم . وكان يسمى (ابانا) وهو ابن (روينيت) . ولما توفي وظفت مكانه في سفينة تسمى (القربان) وذلك ايام الملك احمس الاول . وكنت اذ ذاك شابًّا لم اتزوج فلما تزوجت وصارت لي اسرة نقلت الى الاسطول الشمالي لما شوهد فيَّ من الشجاعة والاقدام » . من هذا يتضح انه نقل من اسطول الكاب وارسل شمالاً لمحاربة الهيكسوس . وبعد ان صار ضابطاً بحريًّا انتظم ضابطاً بريًّا في حرس الملك الخاص . وقد اشار الى ذلك بقوله « وكنت اتبع الملك في سيره حيثما اقله عجلته ولما حاصر الملك مدينة (اواريس) اظهرت لهُ بسالة وأنا أحارب على قدميَّ فعينني جلالتهُ في السفينة المسماة (ضوء منف) . ثم حارب جلالة الملك في مياه ترعة (يزدكو) جهة (اواريس) وقد حاربت وقتلت بيدي فأحضرت يداً مقطوعة من رجال العدو برهاناً على شجاعتي واقدامي . فبلغ ذلك الخبر رسول الملك فأنعم عليَّ جلالة الملك بعد ذلك بنشان الشجاعة الذهبي . ولما قامت الحرب مرة ثانية في هذا المكان دخلت النزاع وحاربت بيدي وأحضرت يداً أخرى (من أسير) فأنعم عليَّ جلالة الملك مرة ثانية بالنشان الذهبي لشجاعتي . في ذلك الوقت العصيب قامت ثورة عظيمة في اقسام مصر جنوب الكاب تطلبت ذهاب الملك أحمس الاول شخصيًّا مع (أحمس) ابن (ابانا) لقمعها . وقد اخبرنا عن ذلك احمس ابن أبانا بقوله « حضر الملك وحارب قسم مصر جنوب هذه المدينة (الكاب) واسرت حينئذ رجلاً حيًّا نزلت به إلى البحر قابضاً عليه كما لي سائر في طريق المدينة وعبرت به الليل فعلم بذلك رسول الملك فأنعم عليَّ جلالتهُ بمكافأة ذهبية مضاعفة ولما خمدت الثورة رجع الملك مصحوباً بأحمس بن ابانا الى اواريس . قال أحمس المذكور ما ترجمتهُ « فسقطت أواريس في قبضة جلالة الملك . وهناك اسرت رجلاً وثلاث نسوة فكان المجموع أربعة وهبهم لي جلالة الملك عبداً » وكان ذلك عام ١٥٨٢ ق . م . وهو أقدم عيد استقلال معروف في تاريخ الامم .

***

قال أحمس ابن ابانا بعد ما ذكر سقوط أواريس « ثم حاصر جلالة ملك مصر مدينة شاروهن (شرحان) — بجنوب فلسطين — لمدة ثلاث سنوات واستولى عليها » ويعتبر هذا أول حصار طويل معروف من نوعه في التاريخ . هكذا تتبع الملك أحمس الأول عدوه بعد خروجه من مصر حتى قذفهُ في فينيقيا حيث لم تقم لهُ قائمة بعد

وقد كان حكم الهيكسوس وطردهم من مصر عظة كبيرة للمصريين افهمتهم لاول وهلة معنى الاستعمار وسياسة البطش . فأنشأوا جيشاً عظيماً منظماً استعملوا فيه العجلات الحربية مستعينين على جرّها بالخيل التي جلبها الهيكسوس الى القطر المصري وقت غزوتهم له . فتحولت مصر بذلك الى امبراطورية حربية . شأن كل امة تتحد كلمتها . وتلمّ شعثها وتتولى تحرير نفسها بيدها

***

ويجدر بنا في هذا المقام ان نذكر فضل السيدة المصرية في هذه الحركة العظيمة الوطنية ومقدار كفاحها وعظم تأثيرها النسائي في حكام مصر وقتئذٍ . اذ لا يبعد مطلقاً ان تكون القوى المعنوية بين المصريين وقتئذٍ راجعة الى تشجيع الجنس النسائي . ومثل هذا المجهود المزدوج كثيراً ما يشاهد في مواقف الدول الاستقلالية مهما تباينت عناصرها . لكن في مصر وقت طرد الهيكسوس كانت الزعامة النسوية في قبضة الملكة (آحوتب) زوجة (سكنرع الثالث) الذي مات شهيد الوطن في حومة الوغى كما ألمعنا سابقاً وقد رزق منها (كاموس) و (احمس الاول) و (نفرتاري) فلما توفي الزوج قام الابن الاكبر بدوره . ولا يبعد مطلقاً ان يكون ذلك تحت تأثير والدته حبًّا في القصاص من اجل دم الوالد . ثم أتى دور (احمس الاول) الذي تزوج بأخته (نفرتاري) الشهيرة والتي كان لها شأن كبير في الحركة الوطنية حتى عبدها قومها على حد سواء مع زوجها . وقد عثر على تابوتها بالدير البحري

ولا بدّ ان الملكة (آحوتب) عمّرت فوق المائة سنة . وكان في امكانها ان تتولى الحكم بنفسها . لكنها تركته لاولادها ليكافحوا في سبيل بلادهم كفاح الابطال وهي من ورائهم تشد ازرهم وتراقب احوال مملكتهم الداخلية . فيالها من والدة حكيمة رشيدة

لقد شهدت الملكة (آحوتب) كل حركة الاستقلال من اولها الى آخرها ورأت بعينيها انتقال مصر من الحضيض الى العلياء ومن الذلّ والعبودية الى السؤدد والجبروت وهكذا كتب لها المولى ان تفتح عينيها اولاً على بلدها وهو في حالة الهوان وأن تغمضها آخراً ووطنها حرٌّ باسطٌ سلطانه على ممالك آسيا والسودان بفضل مجهودها ومجهود زوجها وأولادها . فأنعم بهذه العائلة وأكرم بشهامة رجالها ونسائها

ولما توفيت هذه الملكة حنطت جثتها بكل احترام ووضعت في تابوت ذهبي خاص ومعها حليّها والهدايا التي قدمت لها في حياتها من زوجها واولادها . وكان هذا المصاغ معتبراً اكثر ما عثر عليه من الآثار الى عهد قريب ويتكوّن من أساور وخواتم ومروحة ذهبية ومرآة من البرنز ذات اليد الابنوسية وغير ذلك

بين الحقيقة والخيال

لرامي الراعي

— أنتَ من أنت وما أنت أيها الخيال

— وأنتِ من أنت وما أنت أيتها الحقيقة

— أنا الحقيقة وكفى

— وأنا الخيال وكفى

— أنا المعلوم المحدّد الملموس ولي اتباعي

— وأنا المجهول الذي لا حدّ له ولا تطاله يد ولي اتباعي

— أنا كلمة الله في خليقته

— وأنا خليقته في رأسه قبل ان أخرجها منهُ فأراها النور

— أنا الجوع والشبع والظمأ والماء والرداء

— ليس في ذلك ما يدعو الى الفخر والمباهاة

— أنا جسد المرأة ووصالها

— وأنا جمالها وسرّها وفتنتها وقلبها وسحرها ووحيها . . . انا ما تراهُ فيها ولا يؤخذ منها

— أنا الأبجدية والأرقام

— هي قيودك أيتها العبدة ، أما أنا فلا حدّ لي ولا قيدَ يقيّدني

— أنا الراقد وسريره

— وأنا الحلم ووثبتهُ

— أنا الحياة والموت

— وأنا وراءها النعيم والجحيم

— أنا الكأس وخمرتها

— وأنا السكرة والعربدة

— أنا المنطق والجبر والهندسة واللاهوت

— وأنا الشعر

— أنا سقراط وأفلاطون واقليدس

— وأنا هوميروس وڤرجيل ودانتي وملتن

— أنا اليقين

— وأنا الشك

— أنا العقل الجميل

— وأنا الجنون الجميل

— أنا الحجر الذي تراه بارزاً في البناء

— ولكن البنّاء اخذه من مقالعي فبناؤه لم يقم في الارض الاّ بعد ان تخيّله

— أنا الحكمة والعدل والفضيلة والبطولة والشرف والاباء والكرامة والمجد

— هي كلمات انتزعتها من قلبي وقت تادين انها لك . . . هي كلمات طنّانة رنّانة تذفت بها ارحامي فجاءت على صورتي ومثالي خيالاً لا حدّ لهُ ولا تعريف

— أنا الكنيسة والصلاة

— وانا لهب العقيدة

— أنا العصفور وجناحه وغصنه وصيّاده

— وأنا لونه وتغريده

— أنا قلم الكاتب ومداده

— وأنا وحيه والهامه

— أنا نصف التاريخ

— وأنا نصفه الآخر

— أنا القناعة

— وأنا الطموح

— أنا الصخرة الراسخة التي لا تتزعزع

— وأنا الموجة الهائجة التي لا تستريح

— أنا الحقيقة

— وأنا الخيال

— أنا الانسانية

— وأنا الروحانية

— أنا قمر الليل

— وأنا أشباحه

— أنا العود ووتره

— وأنا أنّته . . .

— وظلّ الخيال والحقيقة يتقران على هذا الوتر ليلة كاملة . . .

— وطلع الفجر وهما يتجادلان ويستشيطان غضباً ويتنازعان السيادة . . وأنا اتفرج عليهما واسمع لحديثهما العالي

— وأشرقت الشمس فأقبلت عليها أسألها أن تقول كلمتها فأعرف مَنْ من الاثنين أوثره على الآخر : الحقيقة أو الخيال . .

— فأطرقت الشمس برأسها قليلاً ثم التفتت اليّ وقالت :

— أنظر الى وجهي وأشعتي : أنا النار والنور، وهكذا أنت فتارك خيالك ونور حقيقتك فكن للشمس المشرقة فيك ولا تعجب لشطريك اللذين يتنازعان السيادة في رأسك فكل منهما عظيمٌ في دائرته وقويٌ بنفسه

تركة التاريخ

في نفوس الشعوب الضعيفة

لعبد الرحمن شكري

تختلف الاخلاق باختلاف الامم الى حدّ كبير وليس معنى هذا ان امة تخلو افرادها من صفة حميدة او ذميمة فكل الصفات حميدها او ذميمها في كل نفس وفي كل امة وانما تختلف مقادير ممكن الصفات من النفوس. والحكم على اخلاق نفس او امة انما يكون بحسب ما فيها من الصفة سواء كانت حميدة او ذميمة فاذا كانت الصفة ضعيفة لم تكن مما توسم او توصم به واذا كانت شديدة كانت من خصائصها. والتاريخ هو مجموع العوامل التي أثرت في نفوس الافراد والامم من عوامل جغرافية واجتماعية وغيرها وهو يدلنا على ما تتصف به النفوس وما يغلب عليها من الخصال وما لا يغلب عليها. فعند دراسة التاريخ لا بدّ من دراسة مؤثرات الجغرافية البشرية اذ لكل بيئة خصال واخلاق مرجعها الى طبيعتها فترى البدو على خصال غير خصال الحضر وترى سكان الجبال موسومين بخصال يرجع اثرها الى طبيعة ارضهم ومناخهم وحاصلاتهم. فالشجاعة والكرم والجد والصدق والثبات واضدادها يمكن ردها الى البيئات التي تبت فيها كما ينبت النبات ويمكن تمييز البيئات تنشأ فيها. ويستطاع معرفة مدى اثر البيئة في حياة القوم الاجتماعية ثم ان حياة القوم الاجتماعية هي مجموعة مؤثرات منها ما يزيد او ينقص من أثر المؤثرات الجغرافية. وقد ينتقل قوم من مكان الى مكان مغاير للاول فتختلف صفاتهم النفسية بمرور الازمان او قد يختلف بعضها وضوحاً وشدة ونباتاً او ضعفاً واضمحلالاً وقد تغلب على نفوس القوم صفات من مكانهم الجديد وهي قد كانت أقل وضوحاً في مكانهم القديم وقد يكتسبون في مكانهم الجديد انواعاً اخرى من الصفات والقوانين والشرائع وأنظمة الحكم لها آثار في الحياة الاجتماعية بعيدة المدى طويلة المرباقية على التاريخ فتسمي في النفوس صفات القوة او صفات الضعف وهي وليدة المؤثرات الجغرافية الى حدّ كبير اذ تختلف النظم والشرائع والقوانين كاختلاف البيئات الجغرافية ولكن اختلاط تلك البيئات واتصال شعوبها يؤديان الى انتقال القوانين والنظم من مكان الى مكان على مرور الازمان الاّ ان انتقالها أسرع من انتقال الاخلاق والصفات من النفوس. فالنظم والقوانين تنتقل بالهجرة او الغزو او المصاهرة أو

التعلم او المحاكاة . وقد تترك المؤثرات الاجتماعية أثرها حتى بعد زوالها فتبقى الآثار أجيالاً في بعض الامايين وقد يزول بعضها ويبقى البعض أو قد تبقى كلها معدّلة محوّرة

— واذا نظرت الى شعب درج في عصور التاريخ المختلفة على العزة والذمة والقدرة وجدت فيه صفات تختلف عن صفات الشعب الذي درج في عصور التاريخ على ضد تلك الحالات . وقد تتبدل عزّة الشعب الاول وتزول فتبقى فيه صفات العزّة عهداً طويلاً وقد تتبدل حالة الشعب الثاني وتزول ذلته كما تزول شرائعه القديمة فتبقى فيه صفات نشأت من العصور القديمة فتظهر في نفوس آحاده صفات وضيعة حتى ولو ظهر الشعب بمظهر العزة والنهوض . لان الحكم يكون بالصفات المتأصلة في النفوس وبمظاهرها في حياة الناس ويكون الحكم على مثل هذا الشعب لا محالة برد هذه الصفات الى مسبباتها القديمة . ولا مناص من ذلك ولا يمكنه ان يخفيها عن احد او ان يرغم احداً على القول بذهابها الاّ اذا استطاع ان يتخلص منها ومحت عزيمته على ذلك واتخذ العدة للنجاة منها . اما ادعاء العزة والظهور بمظهرها والنضب من وصف ما ظهر منهُ مما يحسب انهُ قد نجى فلا يزيده الاّ تمادياً في صفاته القديمة واعتزازاً بها وهو يحسب ان انكارها خلاص منها كما يحسب الكاذب ان انكاره كذبه يجعلهُ صادقاً في حين تكون صفاته القديمة كالطابع او الختم لا مفرّ لهُ منهُ . وكل ما يمكن ان يقال فيه انهُ شعب تبدلت احواله فظنّ انهُ قد تخلص من آثارها او هو يغالط نفسه من العجز ويحسب ان في مغالطة النفس تخلصاً منها لعجزه عن الاخذ باسباب التخلص . وحسبانه هذا قد يكون اما من الجهل بشؤون الحياة والعالم والتاريخ وأما لانهُ يعتز بمخلفات وضيعة بعثها في الظاهر ولكنهُ يعتز بها لانها صارت نفسه ومن الذي لا يعتز بنفسه ولا يطلبها بطلاء العزة ولا يتخذ من صفات الذلة قوةً وعضداً وهي قوة وعضد كما سنوضح الاّ انها قوة تمنع الضعيف من الفناء ولكنها لا تنهض به لخصال الذلة انما نشأت كي تقي الذليل من شرّ سطوات القوي ولكنها لم تنشأ كي تنهض به الى مرتبة الثاني . وهذه الخصال هي الحسد والمكر والكذب والخداع والتعاون على الدسّ والغيبة والنميمة والرياء والبذاءة والقسوة والنفاق والغش . وسنوضح لماذا نشأت هذه الصفات في الاذلاّء كي تقيهم سطوات المقتدر واذا اجتمع في وسط من الاوساط أثر هذه الصفات التاريخي وأثرها الناشيء من ضرورتها بسبب ازدحام السكان وما يكون بسبب ازدحام السكان من التقاتل على الرزق كانت هذه الخصال في أشد حالاتها وأرذل درجاتها وأحط مميزاتها وظواهرها وقد نشأت هذه الخصال من سنة الاستماضة في الطبيعة وهي سنة عامة في الطبيعة التي تعوض على المرء صفة بدل التي يفقدها فاذا فقد القدرة عوضته هذه الصفات كي يبدأ بها القدرة ويحمي نفسه . وانما مثلها مثل الجراثيم التي تنشأ في الجسم كي تحارب الجراثيم الاخرى الساعية عليه التي تريد ان تقتاله . والطبيعة تعوض الحيوان عما يفقده فالاعمى يعوض عن بصره خيالاً واحساساً لما حوله وكذلك النفوس المستضعفة تعوض على مرور الزمن من

المكر والكذب والحسد والنفاق والبذاءة ما تصون به اذا صانت وما تدرأ به القدرة وهذه صفات مشاهدة في الشعوب الضعيفة التي تعاني أثر العصور القديمة وقد ينتهي أجل الذلة التي سببت هذه الخصال فلا تزول بزوالها الا ان هذه الصفات تكون قد أصبحت طباعاً موروثة جيلاً بعد جيل وقد تكون مقطوعة الصلة بالضرورة التي دعت اليها في أوساط الاذلاء عند ما كانت هذه الصفات قائمة مقام القدرة

أما القدرة نفسها فتشاهد مصحوبة بضد هذه الصفات لان المقتدر في غنى عنها فالأذل في حاجة الى الكذب كي يخفي به عيوبه وكي يحط به من قدر منافسيه في الحياة . اما المقتدر فني قدرته حماية تسهل عليه الاعتراف بالخطأ اذا أخطأ وفيها أنفة تأبى الا ان تنافس الاجادة بالاجادة وتأبى الا ان تناضل القوة بالقوة لا بالكذب والمكر والدس والغيبة والنميمة والحسد واللؤم وغيرها من الصفات التي يلجأ اليها العاجز بحكم قسه او بحكم ماضيه وماضي قومه او حاضره . فهذا الاحياة له الا بان يناضل بأمثال هذه الصفات وهذا أمر بدهي . ولا شك ان هذه الصفات هي درع العاجز وسلاحه في معترك الحياة وتكون عوضاً له من القدرة . وسنة الاستعاضة هذه في الطبيعة ليست مشاهدة في حياة الانسان فحسب بل في حياة الحيوان والنبات ايضاً وقد تنتهي الذلة التي سببتها فتبقى صفاتها وهذا هو ما يضلل الباحث اذ يرى عند غير الذليل كذباً وحسداً ومكراً وخداعاً ونميمةً وغيبةً وقسوةً وغشاً فيراها عند العزيز وعند المقتدر او عند من يظهر بمظاهر العزة والقدرة فيضل عن سبب نشأتها وعن حقيقة استفحالها في نفوس الاذلاء وظهورها فيهم اكثر من ظهورها في نفوس الاعزة المقتدرين وتستفيض كتب القصص والتاريخ التي تدل على استفحال هذه الصفات في نفوس الارقاء ايام كان الرق شائعاً . فالكذب والغيبة والنميمة والدسائس صفات نقرأ لها نوادر كثيرة في حياة الارقاء وقد شوهدت غلبتها في الامم الذليلة بحكم ماضيها او حاضرها وفي الاوساط التي تعتريها الذلة بسبب التفاوت على الحياة الناشىء من كثرة السكان وازدحامهم . وشوهدت اضداد هذه الصفات في اضداد هذه البيئات واذا انتقل انسان من بيئة ماضيها اعتراه الذلة إلى بيئة أعز أحس أن آحاد البيئة الاعز أسرع إلى تصديق محدثهم من آحاد البيئة الاذل لان الرجل في الثانية تعود أن يكذب وأن يسمع الكذب فهو لا يسرع إلى تصديق محدثه إلا لهوى في النفس او اذا ادعى التصديق وهو مكذب . ومن أجل ذلك يدعي الرجل في البيئة الاذل أنه أذكى من الرجل في البيئة الاخرى لانه يفطن إلى خداع الخادع ويسيء الظن بالقول والعمل حتى ولو كانا صالحين . بينما قد ينخدع الرجل في البيئة الاعز لانه لا يفترض الكذب في الناس قدر افتراض الاول وهذا هو السبب الذي جعل آحاد البيئة التي تذيع فيها صفات الذلة يدعون الذكاء النادر لانهم وقد يدعون القدرة والعزة لان الكذب والحسد والنميمة والغيبة والمكر تقوم القدرة في حياة العاجز بحسب سنة الاستعاضة في الطبيعة التي وصفناها. وقديماً قال مؤلف الخرافة القديمة عن آلهة الخرافات (عبثاً تحاول الآلهة ان تتغلب على قوة الجهل

والنباء) فجعل للجهل والنباء قوة وكأنه قد فطن الى سنة الاستعاضة الطبيعية التي وصفناها

وما يصدق في حياة الانسان يصدق في حياة الحيوان أيضاً لان الحاجة واحدة فالثعلب اضعف من الاسد وهو ايضاً أكثر مكراً ودهاء وكذباً. وبذاءة اللسان انما نشأت في أول الامر لتحمي الضعيف من سطوات القوي وتشمل البذاءة اللعنات المخيفة والدعوات المفزعة وغير القول وكلها اشياء قد يتجنبها المقتدر ويزهد في ان يناضلها وهو لا يزهد في ان يناضل القدرة بالقدرة . ويعرف ذلك الاذل فيحتمي بها . ولا تزال البذاءة أقرب إلى ألسنة الاذلاء والارقّاء وذوي العاهات. والمرأة اذا فقدت حياءها كانت أبرع في الشتائم من الرجل واسرع اليها منه . ثم تدرّج الناس إلى استخدام البذاءة في غير ذلة خصوصاً في الاوساط التي يشتد فيها التناحر على المعاش او على الظهور في الحياة ولكنها في اولها ناشئة من سنة الاستعاضة الطبيعية واجتماع هذه الصفات كلها واستفحالها في شعب قد يحرمه السعي لتمكين اضدادها من صفات القوة في نفسه اعتزازاً بصفات الذلة لما قد يظهر فيها من الذكاء الرخيص كما اوضحنا ولانها استعيض بها عن القدرة فظنّ انها قدرة وقوة وعلى قدر تمادي المجتمع في صفات الذلة هذه يكون بعده عن مراقي الرقي والنهوض مهما فاخر بالنهوض لان صفاته هي صفات التخاذل والاثرة والغش التي تحبط الاعمال العامة وتمنع من الثقة المتبادلة بين آحاده . ولا يفطن القوم الى ان صفات الذلة هذه وان كانت قد حالت بينهم وبين الثناء لا تصلح للنهوض فهي أداة بقاء لا أداة ارتقاء وهي إذا التبست عليه واختلطت بأضدادها كانت كما يختلط الامر على الانسان فلا يميز بين الوقاحة الناشئة من فقدان الحياء وبين الشجاعة المصحوبة بالحياء والاولى من صفات الاذلاء بالرغم من مظاهرها وهي اشد ما تكون في الرقيق اذا تحكم وفي المرأة اذا بذلت فاذا تدبرنا كل هذه الامور علمنا ان تركة التاريخ في النفوس كثيراً ما تكون تركة مثقلة بالديون

اذا نظرنا في تاريخ مصر القديمة ونقوشها التي تصف اخلاقها رأينا النقوش في اواخر الامبراطورية الحديثة تصف صفات الضعف التي ذكرناها وتندد بها وتلوم عليها واذا راجعنا تاريخ الدولة البيزنطية الاغريقية الرومانية رأينا فرقاً كبيراً بين الرومان في اول نشأتهم عند ما كانت صفات القوة النفسية ظاهرة موصوفة مأثورة عنهم مذكورة في كتب تاريخهم وبين الرومان والاغريق في اواخر عهدهم عند ما صاروا الى صفات الضعف النفسي من مكر وكذب وكيد وتحاسد وتخاذل وتباذ وغيبة ونميمة وغش ونعني ان هذه الصفات صارت أوضح اثراً في حياتهم وتاريخهم وقد كانت ولا شك موجودة من قديم الزمن شأنها في كل زمن ومكان ولكنها نمت وكان نموها كي تكون كدرع يتقي بها الضعيف القوي شأن نموها دائماً في النظم الفاسدة والاوساط المختلة. على ان نمو هذه الصفات وتكاثرها كان له اثر كبير في زوال هذه الامم وفنائها فهذه الصفات المنحطة هي أداة بقاء الى حدٍّ ما ولكنها اذا تكاثرت أضعفت جسم الامة وأدت الى زوالها

كوندياك وديدرو

وأثرهما في فن التربية[1]

لحسن كامل

﴿فلاسفة القرن الثامن عشر﴾ تقدم فن التربية في القرن الثامن عشر تقدماً كبيراً. ويرجع أغلب الفضل في ذلك الى مجهودات فلاسفة هذا القرن. ويلاحظ الباحث ان التربية لم تبق بعد القرن السابع عشر موضع اهتمام رجال التعليم فحسب بل اصبحت الشغل الشاغل لكبار المفكرين الذين أخذوا في دراسة مسائلها الحويصة. وتوسع بعضهم في هذه الدراسة حتى وصل الى حد التعمق. ويكفي ان نعرف أنهم تناقشوا كل ما عرض له روسو من مسائل التربية لكي يتبين لنا أنهم لم يتركوا ناحية من نواحيها الهامة الاّ ودرسوها دراسة وافية. ونرى أن هذه الدراسات — على الرغم مما فيها من اخطاء — قد اظهرت للناس حقائق كانوا يجهلونها حتى ذلك العهد

كوندياك

﴿كوندياك (١٧١٥ — ١٧٨٠)﴾ كان كوندياك عالماً نفسانيًّا ماهراً نافس لوك الانكليزي في ميدان الفلسفة. ولكنهُ لم يصل الى ما وصل اليهِ هذا الاخير من المنزلة في عالم التربية. ومع ذلك فان لهُ كتاباً نفيساً عنوانه دراسات Cours d'études يحتوي على ثلاثة عشر مجلداً جمع بين دفتيه دروسه في تربية تلميذه فرديناند حفيد لويس الخامس عشر

﴿تغلب روحه الفلسفية﴾ من الخير أن نسود روح الفلسفة نظريات فن التربية. ولو كان كوندياك قد اقتصر على تطبيق الرأي القائل بان فن التربية هو مجموعة قواعد مستنتجة من علم النفس لتجنب ما وجه اليهِ من نقد مرّ. ولكنهُ راح يحشر في التربية مبادىء فلسفية بحتة لا تتفق — على الرغم من صحتها النظرية — مع فن تربية الرجال فيقول مثلاً « ان طريقتي في التربية

(١) الجانب الاول من فصل في « فلاسفة القرن الثامن عشر وأثرهم في تطور فن التربية » لحسن كامل مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة التربية الثانوية الاميرية. والجانب الثاني يشتمل على بحث في هلفيتيوس وكنت

لا تشبه في شيء اساليب التعليم المتبعة . ولكنها تتلخص في ضرورة أن يمر الطفل بما مرّ به العلماء ورجال الفن ». وبمعنى آخر يجب أن يلاقي الطفل ما لاقاه التقدم الانساني من بطء وتخبط وان يفعل ما فعلتهُ الشعوب من قبل !..

ولا ريب في أن ثمة قسطاً من الصحة في خطإ كوندياك . فالعلوم والفنون بدأت بملاحظات خاصة . ثم ارتقت بعد ذلك الى مستوى المبادىء العامة . ولسنا نعارض في ضرورة انتهاج هذه الخطة بنفسها في التربية . فمن الخير أن نبدأ بان نقدم للطفل وقائع خاصة ثم نقوده — خطوة خطوة من ملاحظة الى اخرى — الى القانون الذي يهيمن على هذه الوقائع ويلخصها. ولكن هناك بون شاسع بين طريقة الاستنباط التجريبية هذه وبين مبالغات كوندياك. فليس من المعقول بتاتاً أن نلغي تماماً طريقة العرض التركيبية (la méthode synthétique d'exposition) تلك الطريقة التي تتلخص في ضرورة الاستفادة من تجارب القرون الغابرة لتعليم الحقائق الثابتة مرة واحدة ومن الخرق أن نحاول إرغام الطفل على أن يبدأ بفرده عمل القرون مرة ثانية

وأعجب من هذا أن هواجس كوندياك الفلسفية جعلتهُ يتوهم إمكان اعداد الطفل للتحليل النفساني منذ يده دراسته فهو يقول : « يجب أن يعرف الطفل منذ البدء ما له من مواهب.. وأن تشعره بالحاجة الى إستخدامها » أي ان أول ما يجب أن يفكر فيه الطفل هو التحليل النفسي ومعنى هذا أن كوندياك لا يريدنا أن نعمل على ان يكون الطفل يقظاً بل يريد أن نبدأ بافهامه ما هي اليقظة !

والخطأ في هذا ظاهر . اذ كيف نفكر في أن نجعل من الطفل عالماً نفسانيًّا صغيراً وان تكون دراسة علم النفس الخطوة الاولى في التربية . أن هذا العلم « هو اكثر العلوم دقة وأصلحها لختام مختلف الدراسات وتتويجها » ؟...

﴿ ضرورة التباحث مع الطفل ﴾ كان روسو قد انتقد فكرة لوك في وجوب « أن نتباحث مع الطفل وان نعمل على أن يستخدم عقله » . فاراد كوندياك أن يرفع من شأن هذه الفكرة ويعيد ثقة الناس بصحتها فقال . « اني اعتقد أن ملكة استخدام العقل تنمو بنمو الحواس. وعلى ذلك فكما أننا نستطيع أن نستخدم حواسنا منذ الطفولة فاننا نستطيع استخدام عقولنا ايضاً منذ هذه السن »

وأساس خطإ كوندياك في هذه الفكرة أنهُ لا يعترف للملكات الفكرية بطابع خاص بل يقول بان مصدرها جميعاً الحواس . وعلى ذلك فهو لا يفرق بين الاحساس المجرد وبين عملية استخدام العقل . وليس هناك بين المفكرين من وافق كوندياك على قوله « بان موهبة الطفل في الفهم لا تقل عن موهبة الرجل الكامل » وكل ما هنالك أن للطفل منطقاً غريزيًّا يساعده على إمكان البدء في استعمال عقله . ولكن هذا الاستعمال الطفلي لا يمكن أن يطبق الاّ على ما ألفهُ الطفل من

الاشياء المحسوسة الملموسة . ومن الخطأ ان نحاول توجيهه الى إستخدام عقله في تميز الاشياء العامة المجردة أو الحكم عليها

﴿ دروس مبدئية ﴾ ونحن نلخص هنا التعاليم الاولى التي يعطيها كوندياك لتلميذه تحت عنوان « دروس مبدئية » وعناصرها هي : ١ : طبيعة الافكار : ٢ : عمليات النفس : ٣ : العادات : ٤ : التميز بين الروح والجسد : ٥ معرفة الاله

يعجب كل رجال التربية كيف فكر كوندياك في وضع هذه النظريات الفلسفية العالية في متناول طفل في السابعة من عمره لما يدرس بعد قواعد النحو والصرف في لغته ! .. ومهما اكد لنا كوندياك صحة رأيه فليس من شك في ان خير ما يعرض على الطفل في هذه السن هو بعض الطرائف النافعة وبعض الاقاصيص التاريخية اذا امكن . ويدعي كوندياك انهُ بعد ان علم تلميذه كيف يدرس الطفولة ويفكر في خواصها وجد انها قد تكون أسهل ما يمكن ان يدرسه الطفل من الموضوعات واكثرها اثارة لحب الاستطلاع عنده ! ! . . .

﴿ فن التفكير ﴾ فاذا فضح عقل الطفل بفضل ما درسهُ من تحليل نفساني وآراء عامة في التقدم البشري أصبح في نظر كوندياك صالحاً لان يدخل مدرسة عادية يسير فيها بحسب نظام الدراسة العادي. وهنا نجد لكوندياك بعض الآراء المقبولة . فقد كتب يقول مثلاً : «ان دراسة قواعد النحو والصرف مجهدة اكثر منها نافعة اذا لقنت للطفل منذ نعومة أظفاره » . ولعلَّ من أغرب الغرائب أن يكون هذا هو رأي كوندياك في قواعد النحو والصرف وهو الذي يعتقد ان دراسة نظريات علم النفس في متناول الاطفال ! . . .

ويريد كوندياك ان يبدأ تلميذه بقراءة الشعر (الفرنسي طبعاً) ويفضل المؤلفين المسرحيين وخصوصاً راسين ويقول في ذلك « ان على الطفل أن يجيد معرفة اللغة اولاً ولا بأس من أن يدرس القواعد المجردة بعد ذلك » . وقد كتب كوندياك نفسه مؤلفاً في قواعد النحو والصرف عنوانه « فن الكلام » . ونصح تلميذه بقراءة ثلاثة من كتبه الاخرى وهي « فن الكتابة او البلاغة » و« فن استخدام العقل او المنطق » وأخيراً « فن التفكير » . وقد اصبحت هذه المؤلفات قديمة على الرغم من ان فيها فصولاً ممتعة للغاية وقد عني كوندياك في كتابتها بتنسيق الافكار اكثر من عنايته بتنسيق الاسلوب

﴿ اجزاء اخرى من كتاب « دراسات » ﴾ . يظهر ان غرض كوندياك الوحيد هو ان يجعل من تلميذه رجلاً مفكراً . وعلى ذلك فهو لا يريد أن يبدأ تلميذه دراسة اللغة اللاتينية الاَّ بعد ان يتكوَّن ذكاؤه بحيث لا يجد في هذه الدراسة الاَّ صعوبة واحدة هي صعوبة حفظ الكلمات . وكوندياك لا يستسيغ كثيراً اللغات القديمة . ولا يرى ان لمرتها شأناً جوهرياً .

وهو يريد استبعاد اللغة اليونانية تماماً . ولكنه يعلّق شأناً عظيماً على الدراسات التاريخية ويقول في هذا الصدد عن تلميذه حفيد لويس الخامس عشر : « بعد ان عرف الامير كيف يفكر اصبح غرضه الاساسي الالمام بالتاريخ »

﴿ التفكير الشخصي ﴾ عرف كوندياك مكانة التفكير الشخصي ومقامه. فوضع كفاءة الحكم على الامور فوق قوة الذاكرة . وقد يكون فيما سنذكره من كلام كوندياك ما يرفع من قيمته كمربٍّ بعد ما وجهناه اليه من نقد كثير

يقول كوندياك : قد يكون للتربية التي يقصد بها تثقيف الذاكرة نتائج باهرة . ولكن هذه النتائج لا تدوم الاّ مدة الطفولة . وكل من لم يحفظ الاّ عن ظهر قلب جاهل . ومن لم يتعلم كيف يفكر لا يعد متعلماً او هو نصف متعلم وهذا اقبح بكثير » . ويقول ايضاً : « لا تكون المعلومات نافعة الاّ اذا كانت ثمرة من ثمرات التفكير . ونحن نعرف الاشياء التي نستطيع ان نذكرها عند الحاجة معرفة اتمّ من تلك التي لا نستطيع ان نذكرها اذا أردنا . وعلى ذلك فلا يكفي ان نزوّد الطفل بالمعلومات بل يجب ان نتركه يبحث وينقب بنفسه ليعلّم نفسه بنفسه . وان مسئلة ارشاد الطفل لهي اهم المسائل . فاذا كان ارشادنا له منتظماً تكوّنت عنده آراء صحيحة وتمكن من فهم نتائجها وعلاقة بعضها ببعض »

ويخرج كوندياك من كل ذلك بأن تربية الرجل نفسهُ بنفسه افضل كثيراً من تربية الغير له

﴿ نقده للاسراف في التعبد ﴾ وقد كتب كوندياك صفحات رائعة ضمنها نصائحه لتلميذه الامير محذراً اياه من الاسراف في التعبد . ونحن نكتفي بأن نذكر منها هذه الكلمات : « مولاي حذار من الاسراف في التعبد . فان من شأن التدين الاعمى ان يصرفك عما يجب عليك القيام به من الفروض الدينية . واياك ان تصلي دائماً لمجرد ان الصلاة واجبة . واعلم ان القساوسة سيمتدحون ترددك على الكنائس لتنتهي بأن تحل محلهم ويحلّوا محلك »

ديدرو

﴿ ديدرو (١٧١٣—١٧٨٤) ﴾ مؤلفات ديدرو خيالية اباحية في بعض الاحيان . وقد يدهش من لم يقرأ له الاّ هذا النوع من المؤلفات ان يرى اسمه بين اسماء المربين . ولكن هذه الدهشة لا تلبث ان تزول اذا ذكرنا ان ديدرو كان كثير التنقل في ابحاثه يحب ان يجدد مواضيعها . فبينما نجد له دراسات دسمة مجهدة . نجد له ايضاً دراسات اخرى سهلة مسلية

﴿ مؤلفاته في التربية ﴾ وعلى اي حال فليس هناك محل للريب . فقد اهتمّ ديدرو بمسائل التربية فعلاً ووضع كتابين فيها اولهما في عام ١٧٦٣ وعنوانه « تقييد كتاب هلفيتيوس عن

الانسان » وثانيهما في عام ١٧٦٦ وعنوانه « برنامج الجامعة » وهو الكتاب الذي وضعه تلبية لطلب كاترين الثانية وضمنه برنامجاً كاملاً للتعليم

﴿ صفاته كرب ﴾ لم يكن لديدرو الشخصية الطبيعية التي تسمح له بأن يكون مربياً كاملاً ولكن رجاحة عقله وميزاته الاخرى الطبيعي منها والمكتسب جعلته محلاً لثقة كاترين الثانية تلك الثقة التي ظهرت في تكليفه وضع برنامج لتنظيم تعليم الشعب الروسي

وديدرو الى جانب ذلك مفكر عالم متمكن في شتى العلوم . وقد عرف بشغفه العظيم بالآداب وظهر هذا الشغف في اشتراكه في اعمال « الموسوعة » الفرنسية . كما انه كان شديد التعلق بتكبير وبانتظام الحديث ولكنه كان في الوقت نفسه شديد الميل الى الآداب القديمة النموذجية حتى لقد قيل ان قراءة اغاني هوميروس كانت في نظره كترتيل الصلوات في نظر النفاوسة

﴿ ضرورة التعليم ﴾ ويمتاز ديدرو عن معظم معاصريه وعن روسو نفسه بفيدته الراسخة في اثر التعليم من الوجهة الخلقية فهو يقول : « ان التعليم يرقق الاخلاق ويساعد الانسان على فهم واجبه فهماً صحيحاً . وهو يقضي على الرذائل او يخفيها » . ويستنتج ديدرو من ذلك ان التعليم ضروري للجميع لا فرق في ذلك بين الكبير والصغير . وناذى ديدرو بضرورة فتح ابواب المدارس لجميع الاطفال على ان يتعلموا فيها القراءة والكتابة والحساب وتعاليم الدين المتعلقة بالاخلاق والسياسة بل انه طالب بأن يكون التعليم اجبارياً ومجانياً بحيث « يجد الطفل في مدرسته خبزاً لتغذيته بجانب ما يجده من كتب لتعليمه »

﴿ فكرة التعليم العام ﴾ وكان رأي ديدرو ان يعهد للدولة في ادارة شؤون التعليم . ويقول ان هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يصح بها نظام التعليم مستنداً الى اساس قوي متين . وكان مثله الاعلى ان يترأس الجامعة رجل من رجال الدولة يعهد اليه في شؤون التعليم العام بأسرها على ان يمسن بنفسه على الامتحانات ويعين نظار المدارس ويفصل الطلبة والاساتذة والمدرسين

﴿ نقد معاهد العلم الفرنسية ﴾ وكانت المدارس الثانوية تسمى اذ ذاك كليات الفنون . وقد وجه ديدرو اكبر قسط من اهتمامه الى نقد الطرق المتبعة فيها . واليك شيئاً من هذا النقد : « لا يزال رجال التعليم يدرسون في كلية الفنون ما يسمونه الآداب الجميلة وليست هذه الآداب الا لغتين ميتتين لا ينتفع بدراستها الا عدد قليل من الافراد . والاغرب من هذا انهما تدرسان ستة أو سبعة أعوام من دون أن يصل الطالب إلى اتقان إحداهما . ويدرسون أيضاً البلاغة وهي فن الكلام قبل تدريس فن التفكير أي أنهم يحاولون تعليم التلاميذ طرق تنسيق العبارة قبل أن يفكروا في تزويدهم بالآراء الصحيحة . ولا يزالون يدرسون المنطق ويرغمون الطلبة على أن يحشوا رؤوسهم بدقائق فن أرسطو ونظريته في الاستنتاج التي لا فائدة منها بتاتاً . ولا يزالون يدرسون

الاخلاق . ولا أعرف بالضبط ما يقولونهُ للطلبة عنها . ولكني أعرف أنهم لا يقولون كلمة واحدة عن ملكات القلب والعقل وصفاتهما . ويدرسون أيضاً ما يسمونهُ علم ما وراء الطبيعة فيثيرون بذلك في رؤوس الطلبة مسائل تحوطها الاشواك ولا تؤدي دراستها إلاَّ إلى التشكك والتعصب . ويدرسون علم الطبيعة فيمزون جهودهم في مناقشات عن المادة . يدرسون كل ذلك ولكنهم لا يقولون كلمة عن التاريخ الطبيعي ولا عن الكيمياء ولا يذكرون إلاَّ بضع كلمات عن علم وظائف الاعضاء وتجارب الاجيال السالفة والجغرافيا

***

﴿ الاصلاحات التي يقترحها ديدرو ﴾ وبعد أن وجه ديدرو كل هذه الانتقادات الى التعليم في أيامه أخذ يشرح ما يقترحه هو من اصلاحات . فجاء بعضها معقولاً والبعض الآخر خاطئاً

كان لديدرو رأي — أخذه عنهُ فيما بعد أوجست كونت والمدرسة الواقعية — وهو أنهُ يجب أن تربط العلوم وترتبها بحيث يكون كل علم قائماً على أساس ما سبقه من العلوم ويسهل في الوقت نفسه دراسة العلم الذي يعقبه على أن يكون رائدنا في هذا الترتيب فائدة كل علم بالقياس الى الآخر . ولقد وزع ديدرو الدراسات المدرسية على أساس هذه الفكرة وهو يقول أن ترتيب العلوم من وجهة التربية يختلف عن ترتيبها المنطقي . وذلك لان الاتصال الطبيعي لكل من العلوم بالعلوم الاخرى يعين له مكاناً خاصاً يختلف عن المكان الذي يجب أن يشغله للفائدة التعليمية التي تعود من وجوده في هذا المكان

ولكن ديدرو ينسى أنهُ في توزيع الدراسات لا يجب الأخذ بمبدأ الفائدة التعليمية فحسب بل المهم أن ترتب العلوم بحيث تتفق وتقدم سن الطفل ونمو استعداده الذهني

﴿ تفضيل ديدرو للعلوم ﴾ وعلى الرغم من أن شغف ديدرو بالعلوم لم يكن اكبر من شغفه بالآداب الاَّ أنهُ لم يعط للتربية الأدبية ما أعطاه للتربية العلمية من الشأن . وقد أخذ بهذا المبدأ بعده كوندورسيه وأوجست كونت . وديدرو يفضل العلوم الى حد أنه يخصص الخمسة الاعوام الاولى للدراسة في كلية الفنون لتعلم الرياضيات والميكانيا وعلم الفلك والطبيعة والكيمياء . ويترك ثلاثة الاعوام الباقية لدراسة النحو والصرف واللغات القديمة

ويقول أحد علماء التربية أن خطأ ديدرو في هذا الرأي لا يقتصر على أنه غض كثيراً من قدر الآداب وانتقص من قيمتها بل انهُ وزع الدراسات العلمية نفسها توزيعاً خاطئاً فوضع الرياضيات قبل الطبيعة واعتبر دراسة الحيز اسهل من تعلم القراءة . وانه من الخطل ان نجهد انتباه الطفل بارغامه على دراسة مسائل عديدة مبهمة مجردة تاركين بذلك حواسه من دون عمل . وأن نرجىء الى ما بعد ذلك دراسة التاريخ الطبيعي والطبيعة العملية وهي الدراسات التي توافق

الاطفال باعتراف ديدرو نفسه فهو يقول عنها أنها تمرين مستمر لحواس النظر والشم والذوق كما أنها تمرين نافع للذاكرة

ولا يكفي لاعتبار خطأ ديدرو أن نعرف أنه يتكلم عن طلبة كلية الفنون وهم طلبة في سن الثانية عشر إذ أنه لا ريب في أن عقل الطالب في هذه السن ليس من التضوج بحيث يستطيع أن يتصرف تماماً ستة أعوام أو سبعة لدراسة استنتاجات العلوم الرياضية الباردة

﴿ رأيه في ماهية الآداب ﴾ وموقف ديدرو من الآداب القديمة مدهش حقاً فيما نراه يرجيء دراسة هذه الآداب إلى سن التاسعة عشرة او العشرين ولا يخصص لها في هذه السن إلا عاماً واحداً نجده يتكلم عن القدماء وخاصة عن هوميروس في حماسة شديدة غريبة فيقول مثلاً « ان هوميروس استاذ عظيم أدين له بكل ما لي من قيمة ان كان لي قيمة . وان دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية هي السبيل الى اكتساب سلامة الذوق »

فكيف نفسر هذا التناقض الغريب في موقف ديدرو ؟ هناك من المؤلفين من يقول بأن ديدرو كان يعتقد ان الآداب الجميلة لا تصلح الا لتكوين الخطباء والشعراء وانها لا تصلح لانماء ملكات الفكر . ولما كانت هذه الدراسات نوعاً من الزخرف فهي لا توافق الا اقلية صغيرة من الطلاب ولا يمكن لهذا السبب أن تسبق دراسات الفرض منها التربية العامة للناس جميعاً ويقول آخرون ان ديدرو كان يجهل ان هاتين اللغتين اداة عجيبة للتمرين العقلي وانهما اضمن الوسائل واكثرها سهولة لاكتساب صفات الدقة والوضوح وصحة الحكم وهي صفات لازمة لكل اعمال الحياة

***

﴿ رأي مارمونتيل ﴾ ويظهر ان ديدرو كان يعتقد أن دراسة اللغات هي مجرد استذكار مجموعة من الكلمات وانها لذلك لا تصلح الا لتمرين الذاكرة وتقويتها ولكن مارمونتيل وهو أحد معاصري ديدرو الذين لم يصلوا الى مرتبته في النبوغ وجه الى رأيه هذا نقداً مراً وكان اصوب منه في الحكم على فائدة دراسة اللغات عند الصغر . فقد قال :

ان عملية انتقاء الكلمات واستعمالها ، تلك العملية التي نقوم بها اثناء النقل من لغة الى أخرى ليست تمريناً مفيداً للذاكرة فحسب وإنما هي عملية تقتضي تحليل الافكار . وان دراسة اللغات هي دراسة لفن تمييز الفروق الدقيقة بين الافكار ومجزئة هذه الافكار لفهم دقائقها والعلاقة بينها وان حفظ كلمات جديدة من لغة أجنبية ليصحبه دائماً اكتساب آراء جديدة ولذلك فاني اعتقد أن تلاميذ السنين الاولى الذين يدرسون اللغتين اليونانية واللاتينية يتعلمون في نفس الوقت مبادىء في الفلسفة أعظم ثروة واكثر اتساعاً وفائدة مما يتصور الانسان

سياحة
الى باطن النجوم

لفتحي معلوف
دائرة العلوم الطبيعية بجامعة بيروت الاميركية

قد يعجب القارىء الكريم ، اذا لم يكن ملمًّا بعلم الفلك ، من نصّ هذا الموضوع . وكأني به يقول : ما عسى هذا الكاتب ان يحدّثنا عن داخل النجوم ، أتراه يطلق لخياله العنان فيطلع علينا بملحمة شعرية تصف لنا ما في بواطن الاجرام من اهوال ، طمعاً في ان يحل من الخلود محلّ ماتن او دانتي او المعرّي . والاّ فكيف له ان يزعم الحصانة العلمية في مثل هذا البحث وهو يتناول بقعة من الكون هي اقصى ما يكون عن عالم الحس والادراك المباشر

مهلاً ايها القارىء العزيز ، فقد تقتنع قبل ان تأتي على آخر المقال ،بان هذا الموضوع ليس بغريب عن عالم البحوث العلمية في محاولة اصحابها استجلاء غوامض الكون . وسترى فيه عمل الخيال في فرض ما يمكن ان يكون عليه باطن النجوم ، ثم ترى عمل الفكر الاستنتاجي في تتبع ما يجب ان ينتج حتماً فيما لو صحت النظريات ومتابعة هذا الاستنتاج الى ان يتصل بعالم الحس والادراك المباشر ، وكذلك ترى النظرية التي كانت من قبل عثيثة تحت حجب لا تخترق ، ماثلة امام محكمة الاختبار ، المحكمة التي لا يقر العلم سواها

***

﴿ كيف ندرس النجوم ﴾ كلنا يعلم ان نور الشمس عند ما ينكسر في منشور زجاجي ، ينحلّ الى ألوان قوس قزح . وسبب ذلك هو ان النور الابيض مزيج من ألوان مختلفة . واختلاف الالوان معناه اختلاف موجات النور التي تحدث تلك الالوان . ولما كانت زاوية الانكسار تتوقف على طول موجة النور المنكسر . فالالوان المختلفة تنكسر على زوايا مختلفة فيقع أطولها ، وهو الاحمر ، على جانب وأقصرها ، وهو البنفسجي على الجانب الآخر ، وتتدرّج بقية الالوان بينهما . وقد اصطلح العلماء على تسمية مجموعة هذه الالوان بالطيف

على اننا لو فحصنا طيف الشمس فحصاً دقيقاً لوجدناه غير مستمر كما يبدو لاول وهلة ، وانما تقطعهُ خطوط سود دلالة على ان هنالك موجات ذوات أطوال معينة لم يمكنها ان تتخلص من جو الشمس اذ امتصتها بعض المواد التي هناك . فكل خط اسود مثلهُ موجة مفقودة وكل موجة مفقودة دلالة على مادة معينة موجودة في فلك الشمس . ولما كان من الامور اليسيرة في المختبر معرفة الموجات التي يمتصها كل عنصر ، تمكن العلماء من تعيين العناصر التي يتألف منها جو الشمس بواسطة الخطوط السود في طيفها . وكذلك تمكنوا من تعيين المواد الموجودة في اجواء النجوم بدرس اطيافها

لا يكفي ان نبوح هذه الاطياف بسرّ المواد التي تتألف منها اجواء النجوم ولكنها تفشي لنا اسراراً اخرى لا تقل عنها شأناً : من ذلك انها تخبرنا عن شدة الحرارة في سطوح هذه الاجرام . واليك كيفية ذلك : اذا أحمينا قطعة من الحديد على النار ارتفعت حرارتها حتى تصل الى درجة الاشعاع . اذ ذاك نرى نوراً احمر منبثقاً من الحديدة فاذا مضينا في احمائها رأينا ذلك النور يميل الى الابيض فالى الازرق . هذه التجربة البسيطة ترينا ان هناك علاقة بين حرارة الاجسام وبين لون النور المنبثق منها ، ولذلك يتكن مراقب القبة الزرقاء بالعين المجرّدة من التمييز بين النجوم من حيث الحرارة ، فكلما مالت النجمة الى الاحمرار كانت اقرب الى البرودة وكلما مالت الى الزرقة دلّ ذلك على شدة حرارتها . على اننا لو اردنا ان نجري هذه التجربة بدقة لحللنا النور المنبثق من الحديدة الى طيفه ولوجدناه يقتصر في بادىء الامر على الاحمر فقط ثم كلما ارتفعت الحرارة اتسع الطيف وظهرت فيه الموجات الصغيرة بالتتابع . فدرس الطيف اذن يمكننا من تحديد درجة الحرارة في الجسم المشع

ترى اذن ايها القارىء الكريم كيف ان هذه الاشعاعات الضئيلة التي يحملها الينا الاثير من الاجرام القصية تحمل رسالات بينة لقوم يعقلون . ولقد اصبح تحليل الاطياف ودرسها (Spectroscopy) علماً قائماً بذاته

اطلت الشرح قليلاً في هذه المسألة على الرغم من كونها لا تتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع البحث وما ذلك الاّ على امل أن أفوز بثقة المطالع بالابحاث الفلكية فلا يحسبها كما يفعل الكثيرون مجرّد تخيلات وافتراضات . بل يرى كيف انها تقوم على اختبارات حسية لا تدع مجالاً فسيحاً للريب . على ان الرجوع بكل المسائل الى جذورها كما فعلت بهذه يجعل من مقالتنا كتاباً جسيماً . ولذلك سأقتصر في اغلب الاحيان على ذكر النتائج رأساً

لا شك انك تعجب بعد الآن اذا اخبرتك ان عالم الفلك يمكنهُ ان يعيّن حرارة اي نجم تراه بدقة يعجز عنها الطبيب في تعيين حرارة عليله . ولو اتسع امامي المجال لأثبتُّ ايضاً انهُ بواسطة

فظرية نيوتن في الجاذبية تمكن العلماء من تعيين اثقال عدد كبير من النجوم بدقة يعجز عنها ميزان البطار . ثم انهُ بمعرفة مقدار الطاقة المنبثقة من النجم مع معرفة الحرارة على سطحه يمكن تعيين حجم ذلك النجم . وبمعرفة الحجم والثقل الجرم واحد يتعيّن معدّل كثافة المادة في ذلك الجرم

***

﴿ ماذا نعرف عن النجوم ﴾ يعتقد العلماء ان النجوم تتألف من ذات العناصر التي تتألف منها الشمس . على ان النظام الذري الذي هو اساس اختلاف العناصر المعروفة على الارض ، لا يثبت في ظروف الضغط والحرارة في باطن النجوم ، بل ان الذرّة تتفكك الى اجزائها فتستقل كل واحدة منها بحركتها . وهذا يعرف بفعل التأيُّن (Ionization) وقد كان من نتيجة ذلك ان العناصر الثقيلة لا تظهر في النجوم الحارة ولكنها تبدأ بالظهور المتتابع كلما مال النجم الى البرودة . فلو اقتطفنا قطعة من اي نجم كان وتركناها تبرد حتى تصل الى حرارة الارض لكان لنا منها مواد لا تختلف عن عناصر الارض في شيء

ولقد ادّى درس خصائص النجوم من مثل اثقالها وحرارتها وكثافتها الى نتائج لا تخلو من غرابة كما انها تبعث على التفكير في ما عسى ان تكون اسبابها . من ذلك ان هذه الخصائص لا تتصل بالنجوم الاّ في آماد معيّنة ولتبيان وجه الغرابة في ذلك لا بدّ لنا من مثال يقربها من مدركاتنا المألوفة . لو سألناك عن مدى احجام الحجارة لما رأيت لسؤالنا معنى . وذلك لان الحجارة ذات احجام لا ضابط لها نعرفهُ لتناهيها في الكبر او الصغر . فيمكننا ان نجد حجراً او على الاقل تخيّله ، من اي حجم كان . اما لو كان غير ذلك اي لو ان الحجارة لا تكون الاّ بحجم لا يصغر البتة ولا يكبر البتّة لكان هنالك مجال للسؤال عن سبب هذا الانحصار ولكنا نبحث عنهُ في نواميس الطبيعة . على ان هذا الحظ ان فاتنا في الحجارة فهو لم يفتنا في امر النجوم فانها ذوات آماد معيّنة لا تتعدّاها من حيث الثقل والحجم وشدّة الحرارة وشدّة اللمعان

ثم ان العلماء اكتشفوا علاقات بين هذه الخصائص مما يدل على النواميس الصريحة التي تقيد النجمة في تطوّرها وتحفز بالباحث الى استجلاء تلك النواميس . واليك مثلاً على ما نعني بهذه العلاقات . انا نعلم ان هنالك نجوماً عديدة حرارة سطحها حوالي ٥٠٠٠ درجة مئوية (سنتغراد) ونعلم ايضاً ان هنالك نجوماً عديدة لها عشرة اضعاف قطر الشمس ولكننا لا نعرف نجمة واحدة لها هاتان الخاصتان معاً . مثل هذه الموافقات لا يمكن ان تنسب الى الصدف وانما هي من المعالم التي تهدينا الى حقيقة النجوم وطريقة تكوينها

ثم ان هنالك احداثاً غريبة نعرفها في عالم النجوم . من ذلك نجوم ذات لمعان متغيّر يتضاءل نورها ثم يتزايد وهي تسير في تغيّرها على نمط واحد وفي مدّة ثابتة لا تتغيّر مما يدعو العالم المفكّر

الى السؤال عن سبب قلق هذه النجوم واذا توفّق الى الجواب عاد يسأل عن سبب ثبات النجوم الاخرى وعدم تغيّرها . وهناك نجوم اخرى تكون الواحدة منها في بادىء امرها ضئيلة غاية في الضآلة تكاد لا تدرك بأعظم المراقب واذا بها تتحوّل فجأة الى كتلة من اشد نجوم السماء لمعاناً فكأن انفجاراً هائلاً حدث فيها وتبعه انهيار غير عادي من الطاقة المحرّرة . هذا ايضاً من الاحداث الفلكية التي تنتظر حلاً في نظريّات العلماء عن تكوّن باطن النجوم

عساك تدرك الآن ايها القارىء العزيز ، بعد اتمام النظر في ما مضى ان بحثنا في تكوّن بواطن النجوم ليس من نوع التخيّلات الشعريّة التي لا تدحض ولا تؤيد ، بل ان نظريّة يمكنها ان تعلل لنا سبب اختيار النجوم للآماد المحدودة التي تختص بها من حيث الثقل والحجم وشدّة الحرارة وشدّة اللمعان ، وتظهر لنا علاقات هذه الخصائص بعضها ببعض منطبقة على ما نعرفهُ عنها بالمشاهدة ، وتطلعنا على اسباب الاحداث التي تعرض للنجمة في بعض اطوارها — اقول ان مثل هذه النظريّة لا يمكن ان تكون خلواً من بعض انوار الحقيقة .

***

﴿ نظرية ان النجوم كتل غازية ﴾ يقدّر العلماء وزن الشعاع الذي يترك سطح الشمس (والشمس احدى النجوم العاديّة) في الثانية الواحدة بأربعة ملايين من الاطنان، هذا المقدار الهائل من الطاقة يفلت من سطح الشمس وينطلق في الفضاء موجات كهرطيسية بسرعة ثلاثمائة الف كيلو متر في الثانية . على ان هذه الاشعاعات لا تكوّن على وجه الشمس كما يبدو لاوّل وهلة ولكنها تولّد اوّلاً في الاعماق السحيقة ولا بدّ لها قبل تحرّرها النهائي من صرف بضع مئات من السنين في عراك مستمر مع جزيئات المادة التي تكوّن جسم النجمة . فبينما نراها منطلقة في اتجاه معيّن اذا بها تصطدم بذرّة من ذرّات المادة تمتصها وتبعثها ثم يحدث ما يجعلها تفلت ثانية من قيد هذه الذرة لتسير الى مغامرة ثانية . مثل هذا التصادم قد يحدث لها الف مرة في $\frac{١}{(١٠)^{١٠}}$ من الثانية ويستمر مدة لا تقل عن بضع مئات من السنين ولا ينتهي الاّ بأن تصل هذه الموجة صدفة الى سطح الشمس فتنطلق بسلام الى اللانهاية ما لم تقع في قبضة جرم آخر كالارض مثلاً وهذا نادر جدًّا

واذا ذكرنا ان موجات النور وما شاكلها من الامواج الكهرطيسية ، تحدث ضغطاً في جهة اتجاهها وان هذا الضغط ، وان يكن زهيداً بالقياس الى مقادير الشعاع الضئيلة التي نضطر الى قياسه بها عند سطح الارض فانه متى بلغ تلك المقادير الهائلة في النجوم كما ذكرنا يصبح ذا

شأن لا يستهان به ، بل انه بحسب نظرية ادنغتن Eddington من العوامل الرئيسية في تكوّن النجوم على ما هي عليه

في مقدمة الذين بحثوا امر تكوّن النجوم الفلكي الشهير لاين (Lane) الذي نشر بحثه سنة ١٨٧٠ فقد عالج لاين النجمة على انها كتلة غازية ولكن في زمانه لم يكن يعرف نجوم لها كثافة تتلاءم مع الكثافات التي لعرفها للغازات . فمعدل كثافة الشمس مثلاً ١٤٤ غرام للسنتمتر المكعب اي اكثر من كثافة الماء بأربعين في المائة. ولذلك نظر العلماء الى ابحاث لاين على انها ذات شأن نظري ولكنها لا تنطبق على الواقع . غير انه بعد زمن لاين اكتشفت نجوم ذات كثافات غازية بل ان منها ما تبلغ به اللطافة الى حد هو اقرب الى الفراغ المطلق من اي فراغ يمكن احداثه على سطح الارض . مثل هذه الاكتشافات شجعت الباحثين الحديثين على درس الكتل الغازية ثقةً منهم ان مثل هذا الدرس ان لم ينطبق على جميع النجوم فهو ولا شك منطبق على بعضها

سار أدنغتن في تفكيره . فهو يفرض كتلة غازية كروية الشكل ويأخذ طبقة كروية من هذه الكتلة على بعد معين من مركزها . في النجوم العادية ذوات الاحجام الثابتة تظل هذه الطبقة على حالها دون تقلص او تمدد مما يدل على ان القوى المختلفة التي تعمل عليها انما هي في توازن . ما هي تلك القوى ؟ هنالك اولاً قوة الجذب المركزية التي لو تركت لتعمل وحدها لاحدثت تقلص الكتلة وبدّدت كيانها . وهنالك قوة الدفع الناتجة عن مجرى الاشعة وهي اشبه شيء برياح عاصفة في قلب النجمة . وهي لو تركت لتعمل وحدها لنثرت النجمة في الفضاء اللامتناهي ولبدّدت كيانها كذلك . وهنالك اخيراً قوة الضغط الغازية في داخل النجمة وهذه ايضاً لو تركت لتعمل وحدها لادت بالنجمة الى الانتشار اللامتناهي . اذن فالنجمة الغازية ليست غير توازن بين هذه القوى

وضع ادنغتن المعادلات التي تمثل توازن هذه القوى وتابع نتائجها الرياضية فأدت به الى ناموس يربط شدة لمعان النجمة بكتلتها او بمقدار المادة المتجمعة فيها . وقد عزّز الاختبار نتيجة هذه المعادلات فان النجوم القليلة وجدت مؤيدة لهذه العلاقة بين الكتلة وشدة اللمعان

وقد احبّ ادنغتن ان يختبر مقدار شذوذ النجوم ذوات الكثافات العظيمة عن هذا الناموس الغازي (العلاقة بين الكتلة وشدة اللمعان) فكانت النتيجة المدهشة ، وذلك أن كل النجوم العادية كائنة كثافتها ما كانت لا تحيد عن ذلك الناموس . ما معنى هذا ان يعني ؟ أيمكن ان تكون النجوم ذوات الكثافات المعدنية غازية في تصرفاتها ؟ هذا ما سنتناوله في مقال تالٍ ان شاء الله

خيري

الشاعر والفنان

لحليم متري

أدركهُ الموت منذ أسابيع في لبنان رحمة الله عليه

لم يستطع أن يغالب الموت وان يظفر من الحياة بالشفاء . بل استبطأهُ الموت حيناً ، يوم اعتزم الرحيل الى لبنان ، فترك مصر معتلاً ليأخذ حظه من الصحة والنشاط . فاذا استقرَّ هناك عاد اليه هذا الشبح المخيف متقدماً نحوه رويداً رويداً ، منتهزاً فرصة كهذه الفرص التي ينتهزها الماكرون . فاذا ألحت عليه العلة وضعف الامل في الشفاء ، فقد حثم الموت على فريسته وعاد كأنهُ لم يشعر أحداً بسوء ولم يختطف من المصريين شاعر القرنية الموهوب وفنان الموسيقى البارع الذي عرفتهُ فرنسا ومجدتهُ قبل أن يذيع اسمهُ في وادي النيل

أردت أن أدعوهُ كما أحب وكما كان يفرض اسمهُ على أصحابه من الادباء والفنانين فرضاً . كان رحمهُ الله قوي النفس والشعور ذكي القلب في عينيه هذا البريق الذي يدل على عبقرية الفنان . اذا تأملتهُ تصورت شاباً زاخراً بالحياة مليئاً بالقوة . واذا ما جلست اليه لمحت وجهاً يفيض احساساً بالوجود واستقصاء لمكنوناته وانك لتحكم عليه للنظرة الاولى بانهُ شاعر او فنان وانهُ لابدَّ وان يمت للأدب بصلة . يتحدث اليك في رفق ولين . تحس حديثه عذباً حلواً فيه هذه الجوانب التي تحبب للسامع الاسترسال والتعمق والرقة والتي كانت تتيح للشاعر ألواناً متباينة من الآراء والخواطر

نشأ الشاعر خيري في جوّ اريستوقراطي من هذه الاجواء المشبعة بالتقاليد فظلَّ طيلة حياته محافظاً شديد الحرص على التقاليد الاجتماعية . على انهُ في نزعاته العامة كان يكره هذا النوع من المحافظة . وكان يمج هذا الضرب من الاريستوقراطية . كانت هذه المحافظة تنتسب اليه ويشاء هو ألاَّ ينتسب اليها . كان اذن ديموقراطيًّا بل حرًّا الى أقصى حدود الحرية . لم تحن الاريستوقراطية

على حياته فتفسدها . وانما كانت الاريستوقراطية عوناً للشاعر على هذه العزلة التي يعجز اليها بعض الشعراء والأدباء

نشأ خيري إذاً في هذا الجو فأرسله ذووه في حداثته الى المدارس الفرنسية فشب وهو مولع باللغة الفرنسية والأدب الفرنسي . وكان يقبل الى هذه المجالس الأدبية التي كانت تعقد في دار أبيه . وهناك تعرّف بالشاعر المصري المجيد « اسمعيل صبري » الذي كان يتبادل واياه أحاديث الأدب والشعر . ثم تشوّق الى معرفة أديب الفرنسية المصري وشاعرها الامير « حيدر فاضل » وكثيراً ما دعاه الأمير الى قصره ، فتوطدت بينهما هذه المعرفة التي قامت على الأدب . وهكذا بدأ شاعرنا — خيري — في شبابه الأول يدرس شؤون الأدب ويستوعب حياة الشعراء والأعلام وينشى المجتمعات الأدبية التي تضم طوائف مختلفة من الناس ليشهد واكل ما يُطرقُ فيها من موضوعات الأدب والفن . حتى اذا قدّر لهُ أن يسافر الى باريس قبل الحرب تعرّف بجمهرة الأدباء والشعراء والصحفيين وعاش هناك فترة طويلة نشر في أثنائها كثيراً من قطعات براعته وانتاج عبقريته شعراً فرنسياً عليه هذه المسحة الشرقية الوضاءة بل هذا الطابع المصري القوي . وكان يختلف الى صالونات الأدب والشعر في باريس ينهض بمقارعة أنداده من الشعراء والكتّاب حتى تبنوا هذا الأسلوب « الكلاسيكي » في شعره . وكانت لهُ جماعة كبيرة في يوم من الأيام تتحدث عنهُ وتشيد بأدبه وكانوا يعنون ببحث خواص شعره وتحديد أسلوبه . فمنهم من كان ينقده ومنهم من كان يعجب به . ثم عاد الى مصر بعد ان أصدرت لهُ بعض دور النشر طائفة من دواوينه . فتقبلتها الأوساط الأدبية بالنقد والتقريظ . على أن « خيري » كان من هؤلاء الشعراء الذين تتخطى شاعريتهم أفق مداركهم . فتراهم يصيبون من المعاني الرفيعة ما يقصر عنها جهد الشعراء المفكرين . كان لا يتعمل الشعر ولا يصنعهُ ولكنهُ فيضٌ من الشعر الفرنسي يُفاض عليه في أسلوب جذاب وفكر موهوب . ولقد كانت تمتلج الصور الرائعة في نفسه ، فيخرجها في المعنى العالي واللفظ المختار . فما كانت لهُ اللغة الفرنسية بالشيء الناقص . ولقد ظفر الشعر من « خيري » بهذه المناحي النفسية السيقة التي يحملها عقل الشاعر ونفسه معاً والتي يعرض فيها الشاعر انحاء من التفكير العميق في أبلغ صورة للعاطفة المتقدة . لم يفهم الشاعر من شعره الا هذا التوافق المنوي في امتزاج عقله بعاطفته . لم ينكر العقل ولم ينكر العاطفة وانما كان العقل في شعره قوياً فذ مُدّ . وكانت العاطفة في شعره قوية جياشة فلم تستبد كما استبد العقل على القارىء وانما استقلت العاطفة بالوضوح . ولقد كان هذا وحده حديث النقاد اذ لم يتفهموا معنى لهذا النهوض . ولم يتمرنوا وجوهه وانما هو بعض ما استوى للشاعر من قوة في الاخراج وابتداع في المعاني . وكثيراً ما تقدم اليه أقطاب من أدباء الفرنسية يسألونهُ فيمّ هذا النوع من الابهام فكان يُرسل فيهم من بلاغته

ووفرة محصوله ما دعاهم الى الاعتراف بهذا الانتاج الشعري المنوي وما يضمره من بلاغة رفيعة. ولقد انعقدت بلاغة « خيري » بتقصي ما أوثر في شعره من نسج متلاحم ولفظ منتق . وجماع القول في هذه الناحية أن شعره يتميز بالتجويد اللفظي يحسّنهُ العقل أحيانًا عميقة المعنى وهذه الشاعرية المصرية الصميمة حفلت بضروب من شدة الفطنة وصفاء الذهن ورهافة الحس ودقة الذوق

ولقد غلب على شعره هذه الناحية الحزينة الصامتة التي يجلوها الظلام ويكسبها الصباح . . . ولعلك تستطيع ان تلمس هذا الحزن اذا قرأت قطعاً أو ابياتاً من قطع في ديوانه . ولا دُلّك على روعة هذه القطعة التي يقف فيها عند القبور فيطيل الوقوف والتي أسماها « صفصافتي » حيث يستجمع من طبيعة هذه الشجرة درساً بليغاً في فلسفة الأبدية وجلال الفناء . . . وفيها يقول « أما أنت ايتها الصفصافة الساكنة الكئيبة . المنعزلة البعيدة عن مناهج الحياة المزدوية في ركن الوحدة . فلا يطرق اذنيك سوى تنهدات وأنات اولئك الاحياء الباقين . وزفراتهم المؤلمة المتساقطة من اعماق نفوسهم المتفجرة وهذا النشيد المميت الذي سيودي بك يحيي بحزن اغصانك المتحية الباكية فكأنها بهذا التدلي الأبدي تنقل الآلام المنبثة من قلوب الاحياء المتفطرة . يا صفصافة دموعنا . يا صديقة متوسدي الثرى قد يكون انحناؤك على اجداث الموتى فوق زهور الراحلين . ذات الاكمام الثلجية . حناناً منك ورأفة فتميلين لتسكبي على تلك الارض الغامرة . شآبيب السلوى . وتفيضي عليها حنانك ورحمتك » . او قطعته الخالدة العظيمة « الانفعالات النفسانية » او قصيدته المتفردة « الأرواح العائدة » التي يقول فيها « أيتها الروح الحائرة . يا روح الأم المتحسر عطفاً . السعيد بهذا العطف . ليسهر في بكائه على ابنه العزيز بضمره بالحب الابوي القوي . الذي لن ينتهي الى حد . انك الروح الحب الذي يذهبهُ أبداً . ذلك العطف الذي تتساقط اوراقه في قلب تي لا يعتريه ندم ولا وخز ضمير . أجل ان الارواح تمسُّنا في جوف الليل الهادىء . ونحن في نهارنا الذي يملأهُ انسيان الجنوني الكثير الصخب تطاير في أغلب الاحيان أعز ذكرى لها . تطاير الرماد تذروه الرياح . فتعفو آثارها متغلغلة في طيات القدر المختوم » . ولعل هذا الأثر النفسي في شعر « خيري » يرجع الى فقده أمه فكانت صدمة القدر لشعوره باعثاً للألم المحض . فهو أن جمالاً روحيًّا كان فيما مضى يتوج الكائنات قد ذهب الى حيث لا يعود وأحس الشاعر نكراً من الدهر . وتقلباً من الزمن . . . كان عصر الصباح عليه الندى نظماً ونثراً فلما جاء الهجير جف الندى وغاض الصباح » . أليست الطبيعة خيالاً . . . بل أليس الوجود فناء . تمثل الشاعر امه لذة روحية طواها الدهر واصبح نصيبهُ منها الذكرى يودعها اشعاره وخلجات نفسه . وكان يكثر من حديث الحزن والألم . بل كان يتخيل احزان الناس واحزانه ويجد لذة وصبراً في هذا . ولقد يقف عند الشعراء البائسين الذين لم يصيبوا حظًّا

فهرس

من لدة أومتة فيقرأ فيهم صفحة من كتاب الحياة الزاخر بالألم والحافل بالرهبة. بل يقرأ فيهم اثر هذا الألم. بل انهُ ليقرأ في حياتهم هذا المعنى العظيم ألا وهو ان المجد يشيد هيكلهُ على القبر ويرفع ذاره من رفات الضحول.. ولعلي أرى «خيري» يتحدث بلسان «شلي» القائل «علمتنا الاحزان نظم القصيد فأهدينا للناس في نغمات الشعر ما تلقيناه على ضربات الالم والشقاء»

ظل خيري في مصر الى ان وضعت الحرب اوزارها فتركها الى باريس حيث الجمال والادب والموسيقى وهناك قابل الشاعر بعض اصحابه من الادباء. وهناك بدأ شيئاً جديداً من هذه الحياة العقلية المتعة واستأنف نشاطه الادبي فكان لا يفتر عن وضع شعره وكان يؤم الصالونات الادبية التي حرم منها الادب طوال الحرب حيث تعالج فيها قضايا الادب والفلسفة والفن حيناً وشؤون السياسة احياناً. وقد عرفهُ صالون «فالنتين دوسان بوا» وصالون «البرنسيس دي نواي» وغيرهما. وقد كانت هذه الصالونات محطاً لرواد الادب والعلم واصحاب الفنون يقابلون فيه وجوه الرأي ويتباحثون فيما ينتهم هذه الابحاث الطويلة المنتجة عن حياتهم العقلية والاجتماعية. وكان الادب في عرف طائفة منهم عرضاً يتكيف ويتكوّن طوعاً لعقلية الكاتب ومدى ثقافته وشعوره بالحياة. وكان الفن ايضاً عند طائفة منهم عرضاً يتكيف ويتكوّن بطبيعة ما وهب الفنان من ذوق واحساس والهام. ولقد كان الجدل ينشأ عن هذه النظرات التي يراها الادباء وعن هذه المناحي من الاستنتاجات والعوامل الفكرية المتباينة التي تتناول حظاً غير قليل من تفكيرهم ووقتهم. ثم يذيع هؤلاء الادباء او المفكرون نتائج ابحاثهم في الصحف والمجلات وتنشر هذه البحوث الضافية هنا وهناك وتزداد الحياة العقلية نشاطاً وانتاجاً. واستمرت الحال على هذا النحو الى ان ظهر في باريس عقب الحرب هيئات ادبية ناشئة يتزعمها طائفة من كتّاب الشباب وبعض زعماء الرأي الادبي كما كان يتزعم الشعر ايضاً بعض قادته من الذين اغرم بهم وباديهم الشباب وفي طليعة هؤلاء القادة الكاتب الشاعر العظيم «بول فاليري»

كان ادب هذا الشباب وضعاً جديداً في الحياة الاجتماعية من حيث هي. وقد قام هذا الوضع على ما تخلف عن الحرب من عصف بالاخلاق والتقاليد. فهم الادب والحياة على انهما غرض وان الفساد الاجتماعي اخص ما يمتاز به الخلق. وفهم الادب والحياة على انهما عناء يراد به السخرية. ليس هناك مثل اعلى كما يقولون لان النقص الخلقي والنفسي يشرفان على كل شيء وسيخرج الناس من هذه الحياة كما دخلوها لا سبيل لهم في اصلاح ولا سبيل لهم في تدبير لانهم قد لا يستطيعون اصلاحاً او تدبيراً. وانما هي الحياة التي تملك الاصلاح والتدبير معاً. فليطمئن الناس اذن الى هذا الفساد الشامل وليتكلوا الحياة على هذا النحو وليتدبروا شؤونهم على هذا الوجه فقد آن للمجتمع ان يعلم بالحقيقة الواقعة في ان اخلاق الجيل السابق وآدابه وسياسته لم

تنتج الا حرباً وبيلة ولم تؤد الا الى شر كبير فما شأننا إذن بالتقاليد والاخلاق ؟

وما شأننا إذن بهذه النظريات الخلقية التي تمثلوا في المُثُل تنحوها ونسير عليها . فلندع هذا . ولتكن لنا هذه الرغبة الملحة في الاستمتاع بالحياة . فقد وجب على الانسان المفكر أن يسخر من الظروف لان الظروف تسخر منهُ . وقد وجب على الانسان المفكر ان يتخذ المادة عواناً لحياته الاجتماعية بل يتخذها سبيلاً لحياته بوجه عام . كان هذا بعض ما ثمر أدب الشباب وبعض ما استولى على نفوسهم من شعور . ولعلَّ هذا النوع من المنطق في تفهم الاجتماع كان شديداً غاية الشدة وكان مسرفاً الاسراف كله . كان ثورة فكرية عامة تناولت الأدب ونحلته الى شؤون الحياة بوجه عام . لم تكن هذه النزعة في فرنسا فقط انما كانت تجتاح العالم الفكري في أوربا على الاطلاق . ولقد كان الأدب التمثيلي لساناً من هذه الالسن التي تنطق بهذه النزعة الجديدة . فوضع المؤلفون قصصاً تمثيلية ان كان قد حوى هذه المناحي العديدة في الرأي ومظاهر التفكير وتطور الاجتماع مما لم تألفه النفس وقد لا يقره العقل على انهُ حوى جمالاً فنيًّا رائعاً لا سبيل الى انكاره ولا سبيل الى جحده فقد صوَّر المؤلفون الحياة صوراً غاية في التكر والسخرية . بل كانوا يصوِّرون الحياة صوراً ثائرة على الدين والخلق ترمي الى الالحاد والاباحية . وان قامت على التحليل النفسي كقصص « لينورمان » المؤلف الشاب . ولقد اعتمد الادب المسرحي فيما اعتمد ايضاً على طائفة من الاسرار الخطيرة التي كانت من العوامل الهامة في اثارة الحرب واسرارها والتي استدل بها بعض الأدباء على اخلاق العظماء ممن كانوا يسيطرون على الحياة الاجتماعية والسياسية للامم والشعوب وكان المسرح يصور للناس ما كان يسود هذه الاخلاق من دسائس ومساوىء اجتماعية منكرة وما كان يجهله الناس عن عظمائهم من مهازل

كانت الحياة استنتاجاً لهذا اليمن الجديد من التفكير وكانت الحياة وسيلة صالحة لتطور الحياة العقلية ان خيراً وان شرًّا . وكانت الحياة مثاراً لبث النقاد وتهكمهم وكانت الآراء الادبية الحديثة موضوعاً يشغل الناس في حياتهم العامة كما كانت الحرب تشغلهم ايضاً . وقد كانت هذه الحرب التي اساءت الناس في ابنائهم واموالهم شرًّا لا خير فيه فانها لم تترك قديماً صالحاً ولم تؤد الى جديد ممتع وانما كانت سبباً مباشراً لطفرة في التفكير العقلي والاجتماعي وثورة ما كان احوج الناس بعدها . واخيراً اتخذت الحياة في ادب الشباب على أنها أسلوب لا بدَّ منهُ في سبيل اللذة والمتعة والاستخفاف بالخلق

ظهر هذا كله في أدب الشباب الذين كتبوا في اعقاب الحرب الكبرى . والذين احالوا الى نثر آرائهم يصور سريعة خاطفة لم يكن للناس بها عهد مما أدى الى ثورة فكرية في الأدب والحياة والاجتماع ، ومما أحدث هذا النضال القوي بين أدباء الجيل القديم وأدباء الشباب . أما الذين

هبنوا على الحياة الأدبية قبل الحرب فطائفة من أعلام الأدب والشعر وأصحاب الاجتماع ممن يقيمون للحياة والأدب وللاجتماع وألف ألوانا من الرأي مستقرة ثابتة . يفهمون الحرب على أنها ظاهرة طارئة عاجلة لا تؤدي بهم الى تغير ايمانهم في حياتهم العقلية أو حياتهم العامة . وكانوا لهذا يسخرون من هذا التفكير الحديث الذي يصدر عن أدباء الشباب . وكانوا يمثون بهذا الادب في صالوناتهم الأدبية وعلى صفحات الكتب الخاصة والجرائد . غير ان الشعر تمثل أسباباً جديدة وأخيلة جديدة ووسائل مستحدثة . كان يقرها شاعرنا حيناً وينكرها أحياناً . فقد كان يقر الشعر الدرامي القوي الذي يصور الحياة الواقعية أو هذا الشعر الخيالي العاطفي . كان يقر الشعر الطبيعي . وكان ينكر على « بول فاليري » بعض قصائده التي تصدر عن عقله والتي لا أثر لنفسه فيها الا قليلاً . كان صاحبنا ينكر « المادية » التي تطبع الشعر والتي تجعل هذا الفن العالي جسماً من غير روح . كان اذاً يتخذ صور الحياة الطبيعية مقياساً لأدبه ونقده في الحياة . ولقد وفق « خيري » الى نقد هذا الادب الحديث فنشر طائفة من الابحاث النقدية في أمهات الصحف الفرنسية يصور فيها الادب كما هو لا كما ارادته هذه الطائفة من أدباء الشباب والادب الشعري بوجه خاص . فكان هذا باعثاً له على التقدير . وكانت هذه المقالات باعثاً أيضاً لطائفة من الكتاب والأدباء على تبيان الادب الرفيع الرائع وما زال النزاع قائماً بين أصحاب القديم وأصحاب الجديد حتى أحدثت الحياة آثارها وانتهى الشباب وأدب الشباب من هذه النزعات التي لم تكن تخلو من اسراف والتي لم تكن تخلو من تهور . والتي لم يكن لها بد من استقرار وهدوء . على ان شاعرنا لم يكن ليضبط حظ بعض كتاب الشباب وشعرائهم من الانتاج القوي الحي الذي انتهى به أدبهم أخيراً . فقد أعجب بهذا الأدب اعجاباً لا حدّ له ولقد أطرى الشباب كثيراً بل أتيح له أن يقصد الى طوائف كثيرة منهم يحضر اجتماعاتهم ويتقبل واياهم الى هذه الابحاث العقلية المنتجة . وكانوا يجدون فيه هذا الروح الوثاب الذي عماده البحث والاطلاع والذي سبيله التدقيق والتحقيق

وقد قام الشاعر بجمع « ديوانه » فأكملت نشره بعض المكاتب في باريس . واحدث ظهوره أثراً بعيداً في نفوس الشعراء والفنانين لما تناول شعره كثيراً من الابحاث المصرية الأثرية الخالدة وهو كمصري يستشعر الروح المصرية النبيلة كان مسوقاً بهذا الالهام الابدي الى استجلاء الصور والأخيلة التي عبرت بأجلى بيان عن عظمة المصريين والتي صورتهم كأنبل شعب عرف الحضارة الاولى . . .

والآن اذ أتصور « خيري » الناثر أرى رجلاً آخر يختلف اختلافاً بيناً عن « خيري » الشاعر . فهو في نثره يجنح الى المنطق والحكمة يتزود بهما في استنتاجاته ومقاييسه . لا ترى في

أسلوبه النثري الا هذا الحديث المرتب والا هذا التحليل المقرون بالتفكير والانسجام . قرأت له آخر موضوعاته النثرية عن الشاعر الموسيقار الخالد « ريشارد فاجنر » فتصورته كاتباً غني العقل . خصب القلب . حازم النفس لايخلو تفكيره واستنتاجه من هذه الرشاقة التي تميز بها نفسية الشاعر . وقد يكون « خيري » في نثره مقلاً . لم تكن الابحاث العامة لتظفر منهُ بموضوع من الموضوعات الا في جهد وعسر والا في الحاح وضيق . لانهُ اعتاد إخراج انتاجه بالشعر أو ما يشبه الشعر بل اعتاد أن يتحدث عن هذه الخواطر النفسية التي يعالجها الباحث او الفنان فيسرها الى اصحابه ولا يعنى بتدوينها الا اذا التمس القلم عوناً له على ذلك . والا اذا رغب في إثبات ما يرتاح اليهِ عقلهُ ونفسه . على انهُ كان يتروى البحث ولا يتعجل الحديث . يكثر من التفكير ولا يتحمس للسرعة بل هو الكاتب المجلي الذي يظفر باعجاب نفسه قبل ان يظفر باعجاب الناس . ولعله كان يكتب لرغبة نفسه قبل ان يكتب شيئاً للناس . والناس ما برحوا يقصدون بالاعجاب لا من يفعل ما يقصد بل من يبلغ غاية الاحسان فيما يحسنه الكثيرون !! ولقد كان يعرض شاعرنا الى شيء من تحليل النفس وتفسير القوى العقلية في طبيعة من يتحدث عنهُ . فيتناول الحديث اطرافاً بعيدة من عمق البحث وقوة الاستنتاج . وكان يرجع ظروف الحياة والمقابلات التي تعرض للانسان والحوادث وتعليلات وجودها الى نشأة الانسان الاجتماعية والى هذه العلاقة المحتمة بين تفكير الشخص ومنهاجه العملي في حياته بوجه عام . وهذا ما كان له ابلغ التأثير في أسلوب « خيري » النثري . ولعلَّ هذا ما يدعو الى قيمة ما كان يذيعهُ خيري من آثار أدبية

***

الفنان

أحب أن ألتمس هذا المعنى الضيق الذي يعرض لهُ الشاعر العالمي « شلي » عن الادب لارفعهُ خالصاً الى الفن . فقد قال : « ان الادب تسجيل أقوى ما ينتجهُ العقل في أسعد لحظات النفس »

والواقع اذا كان الادب تسجيل العقل فالفن وحده تسجيل العاطفة والروح . وكل ما في مكنة الفنان نفسه أن ينتج بدعة فنية . حتى لكأنما قد تناولت يد خفية عظيمة كف الفنان فدفعتها بريشتها او مقاشها أو أية أداة أخرى الى ابتكار فذ أو معنى جديد . فلن يكون الفن خالصاً اذا لم يُعنَ بالابتكار والانشاء لا بالتقليد أو الاحتذاء . والفن في طبيعته سرٌّ من أعمق أسرار الحياة بل هو سر في الطبيعة نفسها وان كان ملموساً للرائي في ثناياها . لانهُ فكرة عن الجمال أو الحقيقة . بل فكرة الطبيعة عن نفسها !! فالعالم تحيط به ألوان كثيرة من الجمال ولكن الفنان وحده هو الذي يؤتى البصر الصافي لاكتناه المعاني والصور . وهو صاحب الذوق الرفيع في فصل

الشيء من بين أنواعه المماثلة له . وانتزاع المظهر الواحد من بين مظاهر الجمال المتنوعة التي نقف عندها مأخوذين حائرين . وعلى قدر تغلغل نفس الفنان في أعماق الفكرة التي يجتليها يكون مبلغ القدرة من الاتقان وحد الاعجاز . وهذا ما كان يفهمهُ « خيري » من الفن . فقد عاش « خيري » للفن . بل كان الفن عنده فرح الحياة الصادق بل مطلبها الاكبر . بل كان الفن عنده ايماناً يؤمن به . وكان من أصحاب النظرية القائلة « الفن للحياة » وكان شديد الكلفة بتوجيه الفن واطلاقه في الحياة . لانهُ غذاء الشعور والمثل الاعلى للعاطفة الجميلة . لم يصرفهُ شعره عن هذه الحياة الفنية التي كان يحياها بل التي كان يغني فيها حواسه وعواطفه . بل حببت اليه هذه الحياة « الموسيقى » . على أنها أبلغ المعاني الصامتة في إثارة المشاعر الانسانية . وطفق « خيري » يدرس الموسيقى درساً مفصلاً ويدرس آلحانها ومتطلباتها وأصولها . ثم أخذ في درس أعلام الموسيقيين والمؤلفين الملحنين . يتتبعهم في مناحي إنتاجهم الى ان ظفر بخلاصة وافرة ومحصول كبير في هذا الفن

فكان ملمًّا بما يقال عن الموسيقى وبما يتحدث به الفنانون عنها . وكان يُكثر من زيارة المسارح الصاخبة بالحياة الموسيقية في باريس بل كان يؤم هذه المهرجانات التي تقام تحية لكبار الموسيقيين حيث تُوقَّعُ فيها اعمالهم الموسيقية . كان (خيري) من هذه الفئة المعروفة لاعلام الفنانين في الموسيقى أشاد به غير واحد منهم بل تحدث عنهُ الموسيقار الكبير « استرافنسكي » في بعض أحاديثه الفنية التي كان يلقيها في صالون (سان بوان) بباريس . قال عنهُ انهُ (الشاعر المصري الذي يعرف حقًّا معنى الموسيقى . والذي يفهم الموسيقى على انها اعمق الفنون اتصالاً بالنفس الانسانية) . كان خيري بارعاً البراعة كلها في التوقيع على (البيانو) وقد كان يجتمع الكثيرون من اصدقائه ليستمعوا اليهِ بل لينصتوا الى هذه الانامل التي تجمع في (بتهوفن) الرفيع ملقياً اليهم بعض « سيمفونياته » الخالدة . كان اذا وصل لقاسمة منها بدأ هذا الجلال الفني ظاهراً متمثلاً روعة التوقيع مرتفعاً بالنفوس الى سماء العبقرية والخلود . ولقد اقبل « خيري » على فن « شاجنر » إقبالاً لا حدّ لهُ . لانهُ التمس في « شاجنر » هذه المذاهب الموسيقية المتعددة التي تتحدث الى العقل والقلب معاً والتي تجعل من الموسيقى فلسفة راقية تحيط بألوان من العاطفة والتفكير تتحدث عن الحياة والاشخاص وتتحدث الى اصحاب التفكير في قوة التفكير والى اصحاب المنطق في دقة المنطق . بل تتحدث الى هؤلاء جميعاً حديثاً ملؤه الروعة والاتقان . هذا الحديث الذي لم يصل الى مثله شاعر موسيقار « كشاجنر » بل لم يتسنَّ لفنان أن يذهب في الفن الموسيقي هذه المذاهب العقلية المحكمة التي تملي على العقل الانساني والعاطفة الانسانية جماع التفكير وبواعث الاهتمام والاعجاب

قضى « خيري » سنوات طويلة يدرس فن « فاجنر » الموسيقي حتى استطاع ان يهيء عن « فاجنر » دراسة ستفيضة ألمّ فيها بما يجب ان نفهم عن حياة هذا الرجل العظيم . وان ينسى من ظفير بسماع محاضرته في « معهد الموسيقى الملكي » في مصر منذ عامين كيف عالج « خيري » « فاجنر » وكيف تناوله كشاعر من هؤلاء الشعراء الذين لا زعم البؤس وتكرت لهم الحياة . وتناوله كفنان من هؤلاء الفنانين الذين سخر منهم صغار العقول وسفهاء الاحلام حتى انهُ لم يستطع امامهم البقاء يوم ان سقطت «ريئزي» وكان مقدراً لها النجاح . ولكن « فاجنر » تقدم الطريق ولم يتعثر . وقدّر له النجاح بعد ان اصطلحت عليه هموم الحياة . واوصلته هذه السليقة الدفاعة الى عالم الطبيعة بل استطاع بالطبيعة نفسها ان ينفذ الى عالم القراع فيثير فيها الهواتف الروحية التي قبض بها أوتاره . ولقداحتوت هذه الاوتار مناظر الاطياف والارواح وتمثلت في شخوصها معاني البلاغة الشعرية العميقةالتي تم احاديثها التمثيلية الرائعة . ولقد اكسبت موهبة « فاجنر » الفنية اعماله مسحة الجمال الذي تتمثل فيه عبقريته الشاذة . ولعل ما يقوى على تمثيل هذه العبقرية هذه الموسيقى التي تتشى بانسجام مع الحديث والحركات والمناظر

***

أخذ « خيري » في محاضرته المتعة عن « فاجنر » يتحدث عن هذا واكثر من هذا بل اخذ يتحدث عن الموسيقى من حيث هي كما فهمها « فاجنر » وافتن « خيري » في هذا الحديث الجامع حتى اخذ على المستمعين شعورهم وظفر منهم بالاعجاب . فاذا اختتم محاضراته تلك بدأت فرقة الموسيقى من برلين اعدتها الحكومة الالمانية بوساطة نشأت باشا وزير مصر المفوض في ان تعزف قطعاً من روائع فنه يحملها الاثير الى مصر والى حيث يجلس المستمعون في المعهد . ولقد سجلت الحكومة الالمانية الى الشاعر « خيري » اعجابها بهذا المجهود الذي صرفه في سبيل عظيم من شعرائها وفنانيها وعدتهُ من بواعث الاعتراف بالثقافة العامة المتبادلة بين الامم

اما عن الموسيقى المصرية فقدكان « خيري » يرى لها أبلغ الرثاء لانها لا تستند الى معنى من المعاني أو حقيقة من حقائق الفن . هي في رأيه تقليد للغرب في موسيقاه الحديثة بصيغة شرقية . ولقد رأى ان يتحدث في هذا الى أصحاب هذا الفن بل الى وزارة المعارف نفسها . ليحفزهم للبحث عن ايجاد «فن واقعي» للموسيقى المصرية . وكانت له انتقادات قيمة خاصة «بالمقام» وغير « المقام» من شؤون هذا البحث. أحب إذن ان تلقى هذه الانغام التي لا تصلح لجونا الاجتماعي أو تقضيه نزعاتنا الحديثة في تفهم روحنا المصري الاجتماعي . ولقد كانت هذه الثورة الفكرية تزداد في نفسه وتقوى كلما جمتهُ المجالس بأهل الفن من هواة الموسيقى المثقفين

زخرت حياة « خيري » على وجه عام بهذا المزاج الرقيق الذي شغف بالفن من حيث هو . ولعلّ خيري كان لهُ رأي خاص بهذه الفنون التي يعالجها بعض المصريين الناشئين من تصوير ونحت وموسيقى وتمثيل . فقد كان يهتم بأصحابها اهتماماً كبيراً . يصرف من وقته وماله في هذا السبيل ما يعرفهُ الخاصة من اصدقائه . وكان جريئاً في استنهاض اصحاب السلطة في ان تهيء لبعض الفنانين المصريين جوّاً من الحياة العملية لائقاً بهم . وان تنظر وزارة المعارف لهذه الفنون وللفنانين نظرة ملؤها العون والجهد حتى يأخذ جيلنا المصري الناشيء حاجته من اسباب الثقافة الفنية

ولقد كان آخر خدماته الفنية لاصدقائه من الفنانين أن يحمل بنفسه لوحات ناجي الفنية المصغرة ليطوف بها على الصحف والمجلات لتنشرها. فيرى الجمهور المصري انتاج فنانيه من الهواة ولقد أعجب بفن ناجي اعجاباً لا حدّ لهُ . متيناً فيه الهام الفن المصري القديم الزاخرة به التماثيل والصور الأثرية في سمته المصرية الفتانة . على ان اساس هذا الاعجاب ان « خيري » قد ألهمهُ هذا الروح نفسه الخيال المنزول الذي جاد بقصائده الخالدة عن الحياة المصرية القديمة . فاحتوت غير قليل من الابهام الذي تجده في شعره والذي كان نوعاً يتميز به فنه من جمال وسبك ولعل هذا نفسه مادعا الى الاعتراف بعبقريته بل الذي دعا جماعة «فرانس اوربان» الى ان تقيم في باريس حفلاً عظيماً لشاعر شرقي جليل هو « خيري »

***

ولقد كان «خيري» يعاني في سنيه الاخيرة عسراً ماديًّا لم يعهده من قبل فكان هذا بعض ما أودى بمزاج الشاعر . فكان لا يخرج للناس الاّ بعض القصائد القصيرة والاّ هذه القصيدة التي كان يرضها تحيةً لجلالة الملك في عيد ميلاده

***

ذهب خيري اذن في هذه الحفرة التي احتفرتها لهُ الابدية . ونحن انما نودع روحاً يرف الآن على اصدقائه العديدين بعد ان كان يجتمع بهم ويتحدث اليهم . بل نودع شاعراً مصريًّا اخلص للادب والفن الاخلاص كله وكان من هؤلاء الشعراء الذين غادروا الحياة ولم يشبعوا بها وكأن وجودهم خاطر لم يمر على أهل الجيل وان كان بعد آية وبدعة . ولقد شاءت الحياة ان يكون للادب في كل العصور ضحايا وللشعر مكدودون . ولعلي لا اتجاوز الواقع اذا كانت نهاية خيري ابلغ صورة لهذا الوضع في الوجود الفاني

موقعة ناڤارين البحرية

٢٩ ربيع اول سنة ١٢٤٣ هـ ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧م

للدكتور علي مظهر

— ٣ —

يجمل بنا ان لا نغفل ذكر محرم بك امير البحر للاسطول المصري وقائد الاسطول في تلك الاثناء . فنقول أنه من « قوله » أصلاً بلد محمد علي وكثير من الاسر المصرية اليوم . واتخذ مصر وطناً ثانياً لهُ . فاستخدمه محمد علي في كثير من مهام الحكومة .

وزوَّجه بابنته تفيده هانم لحسن سيرته وحميد خصاله . ولكن الوفاة عاجلتها فماتت بعد زمن قصير . وكان محمد علي قد عينه محافظاً على الاسكندرية فأحسن ادارتها وعهد اليه برآسة ادارة البحرية الاولى . وجعله قائداً للاسطول في حرب اليونان من سنة ١٢٣٦ الى ١٢٤٣ . ولما عاد ابرهيم باشا الى مصر بقي في منصبه محافظاً للاسكندرية الى يوم وفاته في ١٢ محرم سنة ١٢٦٤ هـ . فأسف عليه الناس وكان محبًّا لفعل الخير . وأعتق الكثير من جواريه ومماليكه وأغدق عليهم الاحسانات الجزيلة وشيد لهم المنازل العديدة لسكناهم (سرهنك باشا ج ٢ ص ٢٤١) . ولعلهُ هو وأمثاله هم من الذين حببوا للاروام سكنى مصر بعد تخييرهم في الرجوع الى بلادهم كما نصَّ على ذلك اتفاق الحرب اليونانية الذي ذكرناهُ آنفاً

ونرى أن نذكر ما كتبه المرحوم الشيخ يوسف التونسي في كتابه صفوة الاعتبار اذ يقول :

انه في أيام جورج الرابع ملك انجلترا وقع الغدر في أسطول الدولة العثمانية من أسطول انجلترا المترئس على أساطيل الدول في تظاهرهم على طلب تسليم الدولة العثمانية لليونان بالاستقلال . فمن غير اعلان الحرب لها تخللت الاساطيل من بين اسطولها المركب من سفنها وسفن مصر وطرابلس وتونس والجزائر وهم على اطمئنان السلم والأمن وأطلقت عليهم النيران دفعةً واحدة بحيث لم يبق منهم باقية غدر وشناعة لا تمحى وسمة لا تزول على خصوص الانجليز لانهم هم الذين بيدهم امرة

جميع الاساطيل الدولية . وعندما سمعت الدولة الانجليزية (مجلس النواب) بفظاعة الواقعة هاجوا وماجوا وطلبوا محاكمة رئيس الاساطيل . وحكم عليه مجلس حربي بالقتل مع دفاع وزير البحر عنه بكل ما أمكن من الاعتذار وتلفيق دعوى بأن احدى السفن العثمانية اطلقت النار عليهم فلم يجد كل ذلك شيئاً . وعند ما تحقق الرئيس الحكم عليه بالقتل أسرَّ الى وزير البحر بأن التذكرة التي بخطه في الامر باحراق الاسطول العثماني قد نسي ان يحرقها معه مثل ما امر . وحينئذ تحوَّل المجلس الى جلسة سرية ثم اطلق الرئيس . اه

ويذكر بعض المؤرخين الاوربيين بان التعليمات التي اعطيت للسير كودرنجتون كانت تحظر عليه اي عمل عدائي مع العثمانيين ونحن لا نرى صدق تلك الرواية فان نية تدمير الاساطيل المصرية والعثمانية كانت متوافرة . ولا عبرة بما جاهر به المنصفون من اهل اوربا من فظاعة هذا الامر ومخالفته للقوانين المتبعة وانهُ خيانة وغدر . ولا عبرة كذلك بما نقله بعض الكتَّاب والمؤرخين من اوربا من ان التعليمات التي اعطيت للسير كودرنجتون كانت تحظر عليه اي عمل عدائي . فانهُ من غير المعقول أن يأتي ذلك القائد البحري ما يخالف اوامر حكومته بل كان هنالك اتفاق سابق بين الحكومات الثلاث فرنسا والروسيا وانجلترا على تلك المذبحة كما وصفها امبراطور النمسا في ذلك الحين وما قاله جورج الرابع ملك انجلترة نفسه عنها بانها حادثة مشئومة . ومن ذر الرماد في العيون تلك الرواية التمثيلية التي قام بها الاحرار في انجلترا وتنكر ضد امير البحر كودرنجتون وانهم اعتبروا عمله وحشيًّا لا شرف فيه ولا افتخار . فاضطرت الحكومة الانجليزية أن تعلن عدم موافقتها على عمل كودرنجتون . ولكنها لم تعلن عدم موافقتها على هذا العمل الفظيع الوحشي الا بعد حدوثه . وهي رواية هزلية لا يصدقها الا سذج العقول . ولقد ذكر مصطفى باشا كامل رحمهُ الله في كتابه المسألة الشرقية وأشار الى تلك المذبحة فيما نقله مسيو (الفريد ليتز) في مؤلفه عن استقلال اليونان من المستندات الرسمية التي لا تزال محفوظة في وزارة البحرية الفرنسية . فمنها تتبين ان حكومات فرنسا وروسيا وانجلترا كانت متفقة من قبل على كل ما اتاهُ قواد اساطيلها . وقد قال امير البحر كودرنجتون لما علم بعدم موافقة حكومته على مذبحة ناڤارين : — « ان الوزراء يضحون بي للاحتفاظ بمناصبهم »

ويقدر المؤرخون عدد الذين ماتوا من بحارة مصر في هذه المذبحة الشهيرة المعروفة بموقعة ناڤارين البحرية بستة آلاف بحري استشهدوا في اثناء مفاجأة اساطيل الدول المتحدة لاسطول مصر واسطول تركيا وسط الضباب بدون سابق انذار بينما كانت الهدنة معقودة بين الطرفين

وفي عدد جريدة الاخبار الصادر بالقاهرة في مساء الخميس ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٤٦ — ٢٠ اكتوبر ١٩٢٧ وهي التي كان يرأس تحريرها امين بك الرافعي رحمهُ الله مقالة انتاجية بعنوان : (معركة

ناڤارين البحرية بعد مرور مائة عام) وفي هذه المقالة كلام طويل على تلك المعركة . ونحن ننقل عنها باختصار ما اشارت اليه عن كنوز ناڤارين وهل تستخرج البوارج الغارقة مما نقلناه عن جريدة الطان الفرنسية في احد اعدادها التي اصدرتها قبل تلك الذكرى المئوية واحتفال حكومة ايثنا بها اياشذ قالت الطان : « . . . . والفضل في ذلك (استخراج البوارج الغارقة) لما ابدى المهندس الشاب م . ا . كريتوى الفرنسي من همة واقدام لاستخراج المدرعات التركية والمصرية من اعماق خليج بيلوس المغرقة منذ مائة عام بما رمتها به اساطيل فرنسا وانجلترا وروسيا معاً من قنابلها المردية . ومما يعجب لهُ ان قد اتفق ان الشركة صاحبة الامتياز القائمة بهذا الاستخراج هي برؤوس اموالها ووسائلها انجليزية وفرنسية وروسية ويونانية . والبحث عن كنوز ناڤارين كالبحث عن كنوز الارمادا مسألة طال عليها الزمن وتقادم بها العهد . فلطالما تألفت شركات وجعلت تختلب عقول من عساهم يساهمون فيها بما تعرض على مخيلاتهم من غنائم جسام تخرجها لهم من اغوار اللجج ولكن طرأت طوارىء وحالت امور دون تحقيق هذه الاماني . أترى تطوي هذه المياه في اجوافها كنوزاً من الاموال ام هي منها جوفاء خالية ؟ ذلك على بعد شهور أو بعد سنين . فان العمل شاق عسير ويسترق الزمن الكبير . ولكن آن ان يُكشف المطوي ويعلم . ثم قال بعد كلام لا نرى له محلاً لذكره هنا :

« اذ يجوز لنا افتراض ان الاتراك والمصريين اذ بوغتوا وحيق بهم ما كانوا يستبعدون لم يجدوا من الوقت ما يمكنهم من نقل ما بين ايديهم من كنوز مما غنموه او جاءهم من سبل اخرى ؟ (ايظن الكاتب ان بلاد اليونان الفقيرة ولاسيما في ذلك الوقت كانت توجد كنوز ! ؟ هذا والله غريب في التفكير أو نقص في المعرفة) . فان سفينة قائد الاسطول التركي طاهر باشا هوت كما هوت معها في بطون الماء ثلاث عشرة دراعة وخمس سفن وسفن القتال وعشرون اخرى من سفائن الاسطول ومن بقي في آخر المعركة من الخمس والسبعين سفينة التي يتألف منها الاسطول التركي سوى خمس عشرة سفينة صغيرة وبارجة واحدة . وتعادلت كفة الخسائر في الاسطول المصري مع مثلها في الاسطول التركي

***

ألعلَّ البارجة الناجية قد حملت في مطاويها كنوز الحرب الى مصر ؟ ذلك ممكن . ولكنهُ يكاد يكون غير معقول . ذلك اننا نشك في ان الغوص في هول هذه الساعات تملك من رباطة الجأش ومن الوسائل ما يمكنها من حمل ما تشتهي الانفس حمله من هذه النفائس والكنوز

والذي نريد ان نعرفه هل كانت سفن المصريين والاتراك تحمل هذه الكنوز حقاً . اما

المستر برس كروس ستانديج فرأيه في مقال لهُ نشرته مجلة (كنتمبوردري ريڤيو) هو انهُ لم يكن فيها من ذلك شيء . اما الرواية الشائعة المأثورة فترى على النقيض من ذلك ان كنوز ابراهيم في القتال جاوزت المليار مما يعدل عملتنا الحاضرة (يقصد مليار فرنك فرنسي)

ولقد كثر استشهاد المستشهدين في اقامة حجتهم على صحة تلك الكنوز بمذكرات احد ضباط السفينة سيرين المدعو راؤول دي رامون ونشرتها (الاسيتا) في ١٦ اغسطس سنة ١٩٠٣ فقد كان هذا الضابط من المقاتلين في هذه المعركة . وبعث بعد ذلك بست وعشرين سنة الى الاستانة (استنبول) في مهمة وكانت في صحبته امرأته وهي من بنات اليونان كان قد أنقذها من مذابح الاتراك . ولقد قامت بينها وبين عديلة هانم ارملة امير البحر محرم بك المصري صلاة ود . فجاء احمد بن عديلة هانم احد جنود حرس السلطان الخاص ذات مساء الى الضابط الفرنسي واطلعه على بضعة اسانيد . كتب احدها قبل معركة ناڤارين بثلاثة ايام وفيه ذكر ما ملك يومئذ من اموال امراء البحر في الاسطول التركي وقد اصاب محرم عشرين كيساً وعشرة آلاف من الدوقات الذهبية (ما يقرب من خمسة آلاف جنيه) فبلغ بذلك ما تملك يمينه خمسين كيساً وثلاثين الفاً من الذهب

وفي مستند آخر يرجع الى سليمان بك (باشا فيما بعد وهو الكولونيل سيف الفرنسي الاصل) بيان حرره ابراهيم باشا نفسه بخسائره في ناڤارين البالغة ١٢٠ مليون فرنك (من عملة ذلك الزمن) . وكان في السفن الاخرى المغرقة في كل منها عدل ذلك المبلغ

وجعل احمد يبسط امام راؤل دي رامون تعسيماً للمعركة ويشير الى الموضع الذي كانت فيه سفينة ابراهيم باشا الاميرالية (هنا مكان العشرين ومائة مليون فرنك ذهب) ثم انصرف لوجهه من حيث أتى وما يراه من بعدها احد) اه

***

والمعقول ان تلك الشركة او الشركات التي تبحث عن كنوز ناڤارين انما تبحث عن كنوزها الخشبية . فقد كان من تلك السفن سفن مبنية من خشب البلوط وغيره مما يستحيل الى نوع صلب شديد جداً . وهو مرغوب فيه لصنع الاثاث الفاخر وفي اعمال اخرى تستلزم ذلك النوع من الخشب الذي لبث اكثر من قرن من الزمان — في الماء المالح . ويقال أن مقدار ذلك الخشب الثمين الصديق لا يقل عن عشرين الف متر مكعب ويقال ان احد الصناع الانجليز عرض على الشركة ابتياع كل ما تستخرجه من ذلك الخشب . اما بقايا المدافع التي تزن من الفين الى اربعة آلاف طن وغير ذلك من اشياء فنحن لا ندري عنها شيئاً ولا عن قيمتها ولكن يسأل عن ذلك الخبراء في المعادن والكيمياء

بهاء الدين الآملي

صاحب كتاب الخلاصة

لقدري حافظ طوقان

على الرغم مما كانت عليه الدول العربية والاسلامية في مختلف الاقطار من الضعف ، وعلى الرغم مما اصابها من الانحلال ومما حلّ بها من المصائب وما احاطها من المتاعب التي تحول دون تقدم العلوم ودون ازدهار الفنون ، اقول على الرغم من كل ذلك فقد ظهر في بعض الحواضر من وجّه بعضاً من عنايته الى العلوم وتشجيع المشتغلين بها . ومن هؤلاء الذين ظهروا في القرن السادس عشر للميلاد وبرزوا في العلوم الرياضية بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد الآملي

وقد اختلف المؤرخون في البلدة التي وُلد فيها فبعضهم يقول انهُ وُلد في بعلبك وآخرون في آمل الواقعة في شمال ايران . ومن المؤلفين من قال انهُ ولد في بلدة آمل الخراسانية الواقعة على الضفة اليسرى لنهر جيحون

اما القول بأنهُ وُلد في بعلبك فبعيد عن الصواب بل وهو خطأ محض ، وارجح ان قولهم هذا يرجع الى الخلط بين جبل عامل في سوريا وبين آمل ، وقد يكون هذا الخلط هو الذي جعلهم يقولون بمولده في بعلبك ، وقد يكون ايضاً هو الذي جعل بعض العلماء يسمونه « بهاء الدين العاملي » . ونجد في بعض الكتب ان الآملي ينتسب الى قبيلة همْدان اليمنية وان نسبه ينتهي بالحارث وهذا ما جعل البعض يلقبه بالحارث الهمْداني ، ولكن الروايات تكاد تؤيد القول بأنهُ وُلد في آمل الايرانية الكائنة على طريق مازندران . وكانت ولادته في منتصف القرن السادس عشر للميلاد ثم احضره والده الى العجم حيث اخذ العلم عن كبار علماء زمانه وقد آثر حياة الفاقة والفقر على حياة الغنى والترف يدلنا على ذلك المناصب التي عرضها عليه اولو الأمر ولعلّ اكثر ما امتاز به الآملي رغبته الشديدة في السياحة وزيارة الاقطار المختلفة ، وقد بقي في سياحته

ثلاثين سنة زار خلالها مصر والجزيرة العربية وسوريا والحجاز حيث ادّى فريضة الحج . وبعد ذلك عاد الى اصفهان ، ويقال انهُ عند ما علم الشاه عباس حاكم الدولة الصفوية بعودة العاملي الى اصفهان ذهب بنفسه اليها واحاطه بالاكرام والتجلة وعرض عليه منصب رآسة العلماء ، ومع انهُ لم يقبل هذا المنصب فقد بقي صاحب المقام الاول عند الشاه الى انْ وافاه اجله في اصفهان في القرن السابع عشر للميلاد ودفن في طوس بجوار الامام رضا

***

اشتهر صاحب الترجمة بما ترك من الآثار في التفسير والآداب فله فيها تآليف قيمة . اما آثاره في الرياضيات والفلك فقد بقيت زمناً طويلاً مرجعاً لكثيرين من علماء المشرق كما انها كانت منبعاً يستقي منهُ طلاّب المدارس والجامعات . فمن اشهر مؤلفاته رسالة الهلالية ، وكتاب تشريح الافلاك والرسالة الاسطرلابية وكتاب خلاصة الحساب . وقد اشتهر هذا الكتاب الاخير كثيراً واقتنى انتشاراً واسعاً في الاقطار بين العلماء والطلاب ، ولا يزال مستعملاً الى الآن في مدارس بعض المدن الايرانية ، ولقد تمكنا من الحصول على نسخة من هذا الكتاب اخذناها عن مخطوطة عثرنا عليها في المكتبة الخالدية في القدس . ويقول عنهُ كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون : « خلاصة في الحساب لبهاء الدين محمد بن محمد بن حسين وهو من علماء الدولة الصفوية . وهو على مقدمة وعشرة ابواب . . . » ونجد في الخلاصة ان المؤلف استعمل الارقام الهندية التي نستعملها نحن اليوم الاّ انهُ استعمل للصفر الشكل الذي نستعمله للرقم خمسة ، وللخمسة شكلاً يخالف الشكل الذي نعرفه الآن . ولهذا الكتاب مقدمة تبدأ هكذا : « نحمدك يا من لا يحيط بجميع نعمه عدد ولا ينتهي تضاعف قسمه الى احد . . . » اما ابوابه فعشرة يبحث الباب الاول منها في حساب الصحاح وهو على ستة فصول : الفصل الاول في الجمع والثاني في التصنيف والثالث في التفريق (اي الطرح) والرابع في الضرب والخامس في القسمة والسادس في استخراج الجذر ويبحث الباب الثاني في الكسور وهو يحتوي على مقدمات ثلاث وفصول ستة فالمقدمات تتناول الكسور واصولاتها الاولية ومعنى مخرج الكسر وكيفية ايجاد مخارج عدة كسور (اي كيفية ايجاد المضاعف المشترك الاصغر لمقامات عدة كسور) وتتناول ايضاً التجنيس والرفع ، والمعنى المقصود من التجنيس : « جعل الصحيح كسوراً من جنس كسر معين والعمل فيه اذا كان مع الصحيح كسر ان تضرب الصحيح في مخرج الكسر وتزيد عليه صورة الكسر . . . » ومن الرفع « جعل الكسور صحيحاً فاذا كان مما كسر عدده اكثر من مخرجه قسمناه على مخرجه فالخارج صحيح والباقي كسر من ذلك المخرج . . »

ويأتي عند شرح كل من هذه البحوث بأمثلة تزيل من غموض الموضوع وتزيد في وضوحه. اما الفصول الستة فتبحث في جمع الكسور، وتضعيفها، وتصنيفها، وتفريقها وضربها وقسمتها واستخراج جذورها ثم تحويل الكسر من مخرج الى مخرج . . .

***

ويجد القارىء في الباب الثالث والرابع والخامس بحوثاً في استخراج المجهولات وقد استعمل المؤلف ثلاث طرق احداها طريقة الاربعة المتناسبة وهذه الطريقة يعرفها كل من لهُ المام بالرياضيات الابتدائية، والطريقة الثانية تعرف بحساب الخطأين هي غير مستعملة في الكتب الحديثة مع انها كانت شائعة الاستعمال عند العرب في القرون الوسطى. والطريقة الثالثة وهي التي في الباب الخامس « في استخراج المجهولات بالعمل بالعكس وقد يسمى بالتحليل، والتعاكس وهو العمل بعكس ما اعطاه السائل فان ضعف فنصف وان زاد فانقص، او ضرب فاقسم، او جذر فربع او عكس فاعكس مبتدأ من آخر السؤال ليخرج الجواب . . . »

ويحتوي الباب السادس على مقدمة وثلاثة فصول، فالمقدمة تبحث في المساحة وفي بعض تعاريف اولية عن السطوح والاجسام؛ والفصل الاول في مساحة السطوح المستقيمة الاضلاع كالمثلث والمربع والمستطيل والمعين والاشكال الرباعية والمسدس والمثمن والاشكال المستقيمة الاضلاع الاخرى. ويتناول الفصل الثاني والثالث طرقاً لايجاد مساحة الدائرة والسطوح المنحنية الاخرى كالاسطوانة والمخروط التام والمخروط الناقص والكرة . . .

***

ويحتوي الباب السابع على ثلاثة فصول تبحث « فيما يتبع المساحات من وزن الارض لاجراء القنوات ومعرفة ارتفاع للرتفعات وعروض الانهار واعماق الآبار . . » ولهذه الاعمال والطرق براهين يقول عنها انهُ اوضحها وبيّنها في كتابه الكبير المسمى « بحر الحساب » وان بعضاً منها مبتكر وطريف لم يُسبق اليهِ اورده في تعليقاته على فارسية الاسطرلاب. ويستعمل بهاء الدين طرقاً اخرى غير التي ذكرها لاستخراج المجهولات وهنا يقبل على موضوع الجبر والمقابلة وهذا ما نجده في الباب الثامن المتكون من فصلين. احدهما في معنى المجهول (اي س) والمال (اي س^{2}) والكعب (اي س^{3}) ومال مال (اي س^{4}) ومال كعب (اي س^{5})وكعب كعب (اي س^{6}) . . . وهكذا . . . وجزء الشيء (اي $\frac{1}{س}$) وجزء المال (اي $\frac{1}{س^{2}}$) وجزء الكعب (اي $\frac{1}{س^{3}}$) . . . . الخ وفي كيفية ضرب هذه بعضها في بعض وقسمة بعضها على بعض.

والفصل الثاني في المسائل الجبرية الست وهي عبارة عن اوضاع مختلفة للمعادلات وكيفية ايجاد المجهول منها اي حلها ، ولولا الخوف من الاطالة لاتينا على امثلة من ذلك . ويجدر بنا ان لا نترك هذا الباب من دون الاشارة الى تعريف الآملي لكلمتي جبر ومقابلة في تفسيرهاتين الكلمتين يقول: انهُ عند حل مسألة من المسائل بطريقة الجبر والمقابلة تفرض المجهول شيئاً (اي س بالمعنى الجبري الحديث) « وتستعمل ما يتضمنهُ السؤال سالكاً على ذلك المنوال ليتهي الى المعادلة والطرف ذو الاستثناء يكمل ويزاد مثل ذلك على الآخر وهو الجبر . والاجناس المتجانسة المتساوية في الطرفين تسقط منها وهو المقابلة . . ثم المعادلة . . »

ويقول العلامة سمث في كتابهِ تاريخ الرياضيات في الصفحة ٣٨٨ من الجزء الثاني عن هذا التفسير انهُ اوضح تفسير لكلمتي جبر ومقابلة

***

قد لا يكون في بحوث الابواب والفصول التي مرت شيء مبتكر او جديد فقد سبقهُ اليها كثيرون من علماء العرب والمسلمين فهو لم يكن في ذلك الاَّ آخذاً او ناقلاً على الرغم من وجود بعض طرق لم يُسبق اليها

ومن الحق ان نذكر انهُ قدم هذه البحوث والموضوعات في طرق واضحة جلية تسهل فهمها (فهم البحوث والموضوعات) وتناولها . وهذه هي ميزة بهاء الدين على غيره فقد استطاع ان يضع بحوث الحساب والمساحة والجبر التي يرى فيها اكثر الناس غموضاً وصعوبة في قالب سهل جذاب وفي اسلوب سلس بدَّد شيئاً من غموض الموضوع وازال شيئاً من صعوبته

ونأتي الآن الى الباب التاسع فنجد فيهِ كما يقول المؤلف : « قواعد شريفة وفوائد لطيفة لا بدَّ للحاسب منها ولا غناء له عنها » وقد اقتصر في هذا الباب على اثنتيَّ عشرة قاعدة وفائدة يدعي انها كلها من مبتكراته وانه لم يسبقه احد اليها ، ولكن على ما ارجح أن في ادعائهِ هذا بعض المبالغة اذ اكثرية هذه القواعد كانت معروفة عند الذين سبقوه وهو لم يكن في وضعها كلها مبتكراً فقد تكون الطرق التي اتى بها مغايرة لطرق من تقدمهُ من العلماء العرب والمسلمين ولكنهُ في بعضها مبتكر وقد استعمل لها طرقاً طريفة فيها بعض الابداع وفيها شيء من المهارة والمقدرة تدل على عمق في التفكير . وبعد ذكر هذه القواعد وكيفية تطبيقها يأتي الى : « مسائل متفرقة بطرق مختلفة » فيضعها في باب خاص هو الباب العاشر ويقول أن القصد من هذا الباب « شحذ ذهن الطالب وتمرينه على استخراج المطلب » ونراه يستعمل في حلول بعض هذه المسائل طرقاً جبرية وفي البعض الآخر طرقاً حسابية يجد فيها الطالب ما يشحذ ذهنه ويقوى فيهِ ملكة التفكير

والآن نحن امام « الخاتمة » يستهلها المؤلف هكذا « قد وقع للحكماء الراسخين في هذا الفن مسائل صرفوا في حلها افكارهم ووجهوا الى استخراجها انظارهم وتوصلوا الى كشف نقابها بكل حيلة وتوسلوا الى رفع حجابها بكل وسيلة فما استطاعوا اليها سبيلاً وما وجدوا عليها مرشداً او دليلاً فهي باقية على عدم الانحلال من قديم الزمان مستعصية على سائر الاذهان الى هذا الآن . . . »

ولقد اورد من هذه المسائل التي اعجزت علماء الرياضة وانهكت قوى المحاسبين سبعاً اتى بها على سبيل المثال . ثم يخرج من بعد ذكرها الى مدح رسالته هذه وقد سماها « بالجوهرة العزيزة » ويقول ان فيها : « من نفائس عرائس قوانين الحساب ما لم يجتمع الى الآن في رسالة ولا في كتاب . . » ويقول عنها ايضاً على انفاريء ان يعرف قيمتها ويعطيها حقها من الانصاف والتقدير وان يحول بينها وبين من لا يعرف مزاياها « وان لا يزفها الا الى حريص لان كثيراً من مطالبها حري بالصيانة والكتمان حقيق بالاستارة عن اكثر هذا الزمان ، فاحفظ وصيتي اليك فالله حفيظ عليك . . » وليس في مدح بهاء الدين رسالته اي عجب فلقد كانت العادة عند مؤلفي زمانه والذين سبقوه ان يتدحوا رسائلهم ومؤلفاتهم وان يسرفوا في ذلك ونظرة الى كتب الاقدمين في اللغة والادب والتاريخ وبقية العلوم تؤيد رأينا وتحققهُ

ولكتاب الخلاصة شروح عديدة عرفنا منها شرحاً لشخص اسمه رمضان ، ولم يكن هذا الشرح معتبراً عند العلماء بل لم يكن له ميزة او صفة خاصة وقد ظهر في زمن السلطان محمد خان بن السلطان ابرهيم . وهناك ايضاً شرح لعبد الرحيم بن ابي بكر المرعشلي احد علماء الدولة العثمانية، ويمتاز شرحه على غيره بالامثلة المتعددة التي توضح كثيراً من المباديء الصعبة والقوانين العويصة وفي هذا الشرح يتجلى لنقاريء سعة اطلاع الشارح وتوقوفه على العلوم الرياضية وهذا هو الذي ميزه على غيره (من الشروح) وهذا هو الذي جعله منهلاً لكثيرين من العلماء . وقد طبع كتاب الخلاصة في كلكتا في سنة (١٨١٢) وفي برلين سنة ١٨٤٣ ، وقد ترجمه الى الانرنسية الاستاذ مارMarre في سنة ١٨٦٤

***

ويظهر ان بهاء الدين بدأ في تأليف كتابه المسمى (بحير الحساب) ولكنهُ لم ينجزه فقد مات قبل الفراغ منهُ ، وفيه تفصيل لبراهين من النظريات الهندسية وقوانين المساحات والحجوم وبعض المباديء الحسابية ، وأدخل فيه ايضاً طرقاً جديدة لحل مسائل مختلفة صعبة تشحذ الذهن وتمرنهُ على حل الاعمال المعقدة الملتوية

نابلس — فلسطين

اليزيدية (١)

عقائدهم وتقاليدهم

لقبصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

اليزيدية طائفة تنتمي كثرتها الى الجنس الكردي وقد امتزجت بالشعوب السامية في سوريا والعراق وبالشعب الأرمني في آسيا الصغرى . وتشتق تسمية هذه الطائفة على ما اجمع عليه علماء التاريخ من كلمة « إيزد » الفارسية الاصل ومعناها خليق بالعبادة وهي تطلق على الملائكة التي تتوسط بين الله والبشر وفي اعتقاد اليزيد انهم من اتباع تلك الملائكة

ولهم ديانة خاصة تكوّنت عناصرها من مزيج سائر ديانات الشرق الأدنى وبني هذه الديانة هو شيخ متصوّف يدعى الشيخ عادي عاش في جبال الموصل بين القرنين الخامس والسادس للهجرة بيد ان منشأه وسيرته الحقيقية وتاريخ ديانته يحيط بها الغموض وتغشيها الاوهام والخرافات لفقد مراجع تاريخية جديرة بالاعتبار ولتشدد اليزيد في صون اسرار دياناتهم وما يتعلق بها

على ان اتباع هذه الديانة كانوا منتشرين فيما مضى من اقاصي بلاد العجم والعراق حتى البلاد السورية وكانوا يقطنون على الاخص في سامرة وشرقاط (٢) وفي ضواحي حلب والشام وفي قرى اورفه وحران وسمره ونصيبين وبيره جيك وعينتاب حتى وفي نواحي فزان وان كان لهم الوف من القرى . اما اليوم فقد تضاءل عددهم كثيراً بسبب الاضطهادات الدينية والمظالم المريعة التي حلّت بهم على عهد الحكومة العثمانية فلم يبق منهم غير ما يقرب من خمسين الفاً وكادوا ينحصرون في

---

(١) عني الدكتور قسطنطين زريق استاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية بنشر كتاب عنوانه «اليزيدية قديماً وحديثاً» تضمنه سيرة احد امراء اليزيد المعاصرين يرويها صاحب السيرة نفسه وقد صدرها الدكتور زريق بمقدمة شائقة حافظاً على ايراد نصوص السيرة بلغة واضعها العامية فجاء كتابه سفراً قيماً اتحفنا منه مقالنا هذا . فنوجه نظر من يحب التوسع في موضوع بحثنا الى هذا الكتاب الذي يطلب من المطبعة الاميركية في بيروت (٢) قرب آثار النفط المراتية

سهول قضاء الشيخان وجبل سنجار حول لواء الموصل اذا ما استثنينا نفراً ما زال يقطن في بلاد الحجم وفي البلاد الأرمنية الواقعة على حدود تركيا وروسيا وفي جبال كليس وجيناب وديار بكر وماردين التركية

اما مركز زعامتهم فهو في قرية باعدري من قضاء الشيخان الواقع في الشمال الشرقي من الموصل حيث مزار شيخهم الشيخ عادي وقاعدة اميرهم الميرميران

﴿ احوالهم العامة ﴾ يتكلم اليزيد الكردية بلهجات مختلفة والتركية في آسيا الصغرى والعربية في سوريا والعراق ويقدسون نحو الجنية معتقدين ان الله قد كلّم آدم واوحى بوصاياه لموسى بالكردية

وهم رجال اشداء ، طوال القامة ، اقوياء البنية ، سود العيون ، حمر الوجوه بلحى مسترسلة يتحلون بمزايا حسنة منها صدق القول ونزاهة الاخلاق والجد في العمل وحب الحرية والاستقلال ويعرفون بالنظافة وطهارة العيش ويعاقبون الزنى اشد العقاب ويجلّون كبارهم اجلالاً تاماً ، يشتغلون بزراعة الارض وتربية المواشي وكثير منهم ما زال في طور البداوة يؤلفون قبائل رحّالة تدعى « الكوچر » ونظامهم الاجتماعي ما برح في الدور القبلي . فكل قبيلة منهم تقسم الى بطون والبطون يرأسها شيوخ يديرون امرها ويقسمون مجموعهم الى طبقات معينة تفصل بينها حدود واضحة . فمنهم العوام ومنهم الروحانيون الذين يتنظمون في فرق مختلفة وهم شديدو التحفظ على تقسيمهم الاجتماعي والديني لاعتباره العامل الذي يضمن سلامة جنسيتهم ونظام مذهبهم فلا يُسمح مثلاً لاحد افراد طبقة ما ان يتزوج من غيرها ولا ان يرتقي الى ما هو اعلى منها والويل لمن فعل فبالحجارة يُرجم وبالسوط يجلد وشر ميتة يموت

يترأس جماعة اليزيد شيخان احدهما زمني من نسب آل يزيد يلقب الميرميران بمعنى اميرالامراء يقطن في قرية باعدرى كما تقدم بنا القول ويدير أمور طائفته المدنية ويمثلها امام العالم الخارجي . والآخر روحاني يمثل السلطة الروحية العليا وهو المرجع الاعظم لكل ما يتعلق بالدين والعقائد اليزيدية يساعده في مهمته هذه جماعة من الروحانيين يتنظمون في خمس فرق مختلفة لكل منهم لباس خاص واعمال دينية معينة

الشيخ اعلاهم رتبةً وهو مكلف إسترضاء الانبياء
والپير كاهن يختص بامور الصوم والافطار
والفقير يعلّم اولاد الفقراء طقوس الديانة ويخدم قبر الشيخ عادي
والقوال يدق بالدفوف والشابات ويتلو مدايح الله والملائكة
والكوچك يلقن الاموات ويكفنهم ويفسر الرؤى والاحلام

﴿ عقائدهم الدينية ﴾ الشائع عن الديانة اليزيدية انها عبادة الشيطان بيد ان من يقف على عقائدها الصحيحة يجد نفسهُ امام ديانة الهية ولكنها لا تخلو من بعض معتقدات طارئة وقد تشربت نواتها من عناصر وثنية قديمة وايرانية زردشتية ويهودية ونسطورية وصوفية ومانوية وشامانية

وهي تقوم على الايمان بوجود اله خالق كبير يعاونهُ في ادارة الكون سبعة ملائكة انبثقوا من نوره وسمّوا عزرائيل ودردائيل وميخائيل واسرافيل وزرزائيل وشمخائيل ونورائيل وقد ابدع كل من هؤلاء جزءاً من هذه الدنيا حتى صارت كاملة فاختار الله عندئذٍ الملك الاعظم عزرائيل لمهمة خطيرة مباعتهم ان تمرّد فيها على اوامره سبحانهُ وتعالى فعوقب على خطيئته وندم وبكى دموعاً اطفأت نار جهنم فغفر لهُ الله خطيئتهُ واعاده الى مركزه الرفيع وولاهُ امر الخليقة وادارة الكون . واليزيد يعظمون هذا الملك الذي يلقبونهُ ايضاً بالملك طاووس ويضرعون اليه باعتباره مدبّر الكون وراعي شؤونه ويلتمسون منهُ كل حاجاتهم عن يد نبيهم الشيخ عادي فيكون اذاً ثالوثهم المقدس مكوناً من الله والملك طاووس والشيخ عادي . وهم يدعون ان اصول ديانتهم التالية موحاة اليهم من الملائكة والاولياء ولكنهم في الواقع يمارسون الصوم وتقديم الضحايا في بعض اعياد سيأتي الكلام عليها اقتباساً من الاسلام ويأخذون العماد والنصيحة والعشاء الرباني وتحليل شرب الخمر عن النساطرة وتحريم بعض الاطعمة عن اليهود والسجود عن الوثنيين وتقديس الرؤى والرقص في الصلاة عن الشامانية ويؤمنون بالحلول والتقمص اخذاً عن المانوية وهم اعتقاد قويم بوجود اخر لكل يزيدي في الآخرة على مثال الملاك الحارس ، يتحتم عليه مرضاته وتكريمه ، ويبالغون في كتمان العقيدة على مثال الصوفية ويعتبرون الصلاة بالسر خير ما يكون ولا يحددون لها الفرائض مدعين ان كتبهم في قلوبهم وان الملك طاووس يرشد اجيالهُ من دون كتاب ويهديهم غيباً وتكون تعاليمه في كل حين موافقة للظروف وملائمة لتطور الايام . على ان لهم كتابين مقدسين « الجلوه » و « مصحفارش » ومعنى هذا الاخير بالكردية الكتاب الاسود . وهذان الكتابان يتضمنان اصول ديانتهم المتقدمة الذكر وصلواتهم وانا شيدهم وتهاليلهم واعيادهم وطقوسهم واساطيرهم المقدسة نقتطف منها بعض الشيء بقدر ما يسمح لنا المجال

***

﴿ اساطيرهم المقدسة ﴾ عندهم اسطورة التكوين ان الله صنع مركباً وسار عليه في جوانب البحار وخلق من ذاته درةً وحسكم عليها اربعين الف سنة ثم غضب عليها ورماها فتكوّنت الجبال من غضبه ومن دخانها صارت السموات وصعد الله الى السموات وجددها وركزها بغير أعمدة

اما اسطورة بدء الخليقة فهي على مثال ما ورد في التوراة عن جبل آدم من تراب الارض ولكنها تختلف عنها من حيث ان صانع الانسان الاول كان الملك طاووس فانهُ بعد ما جبل آدم من تراب

وماء ونار وهواء نفخ في انفيه فانتصب على رجليه وأسكنهُ الجنة مدة اربعين سنة وخلق له من تحت ابطه الشمال حواء وجعلها معهُ ولكن الله تعالى امر باخراجهما من الفردوس فعلمها الملك طاؤوس الاصفان البشرية كلها واطعمهما من شجرة الحنطة ونفخ في بطنهما والقاهما على الارض وكانا بلا مخرج فتضايقا فأرسل لهما طيراً اسمه القلاّج تقرها وهما نيام ففتح لهما مخرجاً واستراحا فلما استيقظا من غيبوبتهما تنازعا على نسبة النسل وقررا ان يلقي كل منهما شهوته في جرة ويختمها. فبعد انقضاء تسعة اشهر فتح آدم جرته فطلع بها ولدان ذكر وأنثى سماهما شيث وهورية فأرضعهما مدة سنتين من ثديه وتناسلت منهما الامة اليزيدية . اما جرة حواء فسد مضمونها. وبعد هذا عرف آدم امرأته حواء فولدت جنينين لعام ذكراً وأنثى سماهما قابين وهليونه تناسلت منهما سائر طوائف هذا العالم

ويروون ايضاً قصة الطوفان على شبه ما وردت في اسفارنا المقدسة ويعتقدون ان سفينة نوح استقرت بعد الطوفان على جبل سنجار

***

﴿ اعيادهم وطقوسهم ﴾ كان اليزيد يقدسون يوم الاربعاء ويعطلون فيه عن العمل الاّ انهم حوّلوا ذلك منذ حين الى يوم الجمعة مجاراةً للاسلام ولهم ما عدا ذلك اعياد دينية وشعبية تهوق بروقها وطابعها القبلي الخاص بهجة اعياد سائر الشعوب المتحضرة . في طليعة هذه الاعياد رأس السنة ويسمى بالكردي «سرصالي» . يصادف هذا العيد عندهم يوم اول نيسان (ابريل) بالحساب الشرقي. ففي نصف ليلة هذا العيد ترتدي النساء افخر ما لديها من الالبسة وتتزين بالحلى وترقص مع الرجال على انغام التراتيل الكردية إعتقاداً منهن ان الملائكة ستأتي في تلك الساعة وتسوم الناس هذه العبادة

ثم تلو كل ايام نيسان اعياد حافلة يحرم فيها الزواج اجلالاً للانبياء الذين يتزوجوا في شهر الورود ويمنع خلاله البناء ضناً بالخلة الخضراء والازهار الجميلة التي تزدان بها الارض ويطوف الشبان والصبايا في البراري والحقول ويجمعون الورود طاقات جميلة يكللون بها ابواب البيوت ويتحتم على كل بيت ان يضحي في اول ارباعاء من هذا الشهر بقراً وغنماً او دجاجاً بحسب طاقته وان يضعها في قدور مطبوخة على قبور موتاه صدقة عن نفسها . ثم تحتفل الطائفة اليزيدية احتفالاً شائقاً بعيد «ييراندة» اي عيد ولادة ملكهم يزيد الواقع في ١ كانون الاول (دسمبر) فيفرحون به ويشربون الخمر ويولمون ولائم فاخرة تدوم حتى الصباح

وفي اليوم العاشر من شهر ايلول (سبتمبر) يحج جميع اليزيد الى قبر الشيخ عادي في قرية باعدري ليحيوا عيد الجماعة وهذا العيد هو عبارة عن سلسلة احتفالات تجري حول تخت الملك يزيد . فتزاحم كل القبائل في نصب هذا التخت ويخلع امير الشيخان عباءة مزركشة على اغا العشيرة

الذي ترسو المزايدة عليه فينصب التخت المذكور بين اطلاق الرصاص والاهازيج ونقر الدفوف والنشيب . ويذبحون ثوراً مقدماً ويطبخونه فكل من يتوصل الى الفوز بلقمة منه ينال مرامه ولا يغادرون قبر نبيهم ما لم يقدموا له احسن الهدايا التي في وسعهم ان يجودوا بها . ولهم اعياد أخرى ثانوية منها عيد القربان تذكار تقدمة ابراهيم ابنه اسحق للرب . ففي هذا العيد يتسلقون جبلاً عالياً متسابقين الى مكان معين يجمعون منه الاخشاب ويحملونها هدية الى مطابخ الامير ويتحتم على كل يزيدي ان يذبح ذبيحة في هذا اليوم. ويعيدون في اول خميس من شهر شباط (فبراير) عيد الخضر الياس ويحتفلون قبل عيد رمضان بيومين بتذكار خلاص احد اوليائهم من السجن ويخصصون اليوم العاشر من شهر كانون الاول (دسمبر) لعيد الاموات. فيزورون فيه موتاهم ويكرمون ذكراهم ويتمثلون لامر الله بالصوم والصدقة والخير فيصومون اربعين يوماً في السنة منها في شهر كانون الثاني (يناير) ومنها في شهر تموز (يوليو) ولا يتأخرون عن تقديم الصدقات لفقراء الملك طاووس

***

يعتقد اليزيد ان كلاً من الملائكة السبعة صنع له سنجقاً على الارض جمعها سليمان الحكيم لديه ثم صارت بعد موته الى يد ملوك اليزيد وهذه السناجق مصنوعة على أشكال نحاسية وحديدية تعلوها صورة طاووس وهي محفوظة عند امير الشيخان مع طلاسم اخرى موروثة عن بعض معابد قديمة كتماثيل حيات وعقارب وغيرها من تعاويذ يزعمون ان الملك طاووس يتحول اشكالها ليخرج خفية من الجنة ويهبط على الارض وهم يجلون السناجق والطلاسم المذكورة ويطوف بها كهنتهم في بعض مواسم السنة على قراهم كافة بطقوس واحتفالات هي غاية في الغرابة ويجري التطواف المذكور ثلاث مرات في السنة على المنوال الآتي فيستقبلها المؤمنون بحماسة فائقة ويقدمون لها التبرعات التي يعود اكثرها للامير

يسند القوالون السناجق المذكورة عند اخراجها من مخابئها بماء الساق ويأخذون مع كل منها حملاً مجبولاً على اشكال الخص من تراب الشيخ عادي لتوزيعها على اهالي القرى التي يأمّونها على سبيل البركة

وعندما يقتربون من قرية يزيدية يوفدون امامهم منادياً يحض الناس على استقبال صورة الملائكة فيخرج جميع السكان بحلل يضرب لطيفة وأرجل حافية مسبحين مهللين مقدمين البخور والعطور والنساء يمشين امام السناجق مزغردات فرحاً . وما يكاد الموكب يحط رحاله في الساحة العامة من القرية المقصودة حتى يأخذ اكابر تلك القرية بالمزايدة للحصول على شرف ادخال السنجق تحت سقف بيوتهم . وينصب له صاحب اليد الطولى منصة عالية في صدر مسكنه يسند عليها الطاووس بكل تبجيل واحترام ويشعل حوله السرج ويجلس القوالون عن يمينه

وشبانه ويشرعون في ضرب الدفوف وقرع المزمار فيتدفق الناس من كل جدب وصوب للتبرك والزيارة ويدورون جماعات حول الطأووس سبع دورات بخضوع وخشوع واضعين ايديهم على صدورهم رمزاً الى تكفيرهم عن خطاياهم ثم يسجدون ويقبلون الطأووس ويقدمون له الهدايا والنذور التي نووا بها في قلوبهم من مال ومأكول فيقرأ القوالون صلاة على رؤوسهم لتغفر بها خطاياهم كافة وفي الليل يغسلون الطأووس بماء الساق ويدهنونه بالزيت ثم يملأون جرة معدنية خاصة بالماء المذكور ويعطون منها لكل مؤمن لغسل باطنه وظاهره

***

﴿ بعض تقاليدهم وعاداتهم ﴾ نخص بالذكر من تقاليدهم وعاداتهم الكثيرة اهمها واشدها بروزاً . كانوا فيما مضى يحرّمون تعلم القراءة والكتابة على العوام ويعصرونه في أسرة واحدة تقطن في قرية بمشيقة غير انهم بدأوا يتسامحون في ذلك مؤخراً واخذ اولاد امرائهم يفدون الى كليات بيروت

اما فيما يتعلق بسائر تقاليدهم فما زالوا يتمسكون بها تمسكاً قوياً ومنها ان الروحانيين لا يمرّون موسى على وجوههم تيمناً باقبال الخير والعوام لا يرتدون الثياب الزرق ولا ذات الطوق المفتوح . ولا يقضون الحاجة في المستراح ولا يبصقون علناً ولا يلبسون السروال قعوداً ولا يتبوّلون وقوفاً . فهذه كلها محرمة كما حُرّم عليهم التلفظ باسم الشيطان وبكل لفظ يشبهه اكراماً للملك طأووس وفيما يخص المأكولات فقد نهوا عن اكل لحوم الخنزير والديك والغزال والسمك وعن الحمص والملفوف (الكرنب) والقرع والباميا من انواع الخضروات وعن الشرب من كوز وهم يتجنبون اكل فضلة غريب وعندهم لكل من هذه المحرّمات أسباب يطول بنا شرحها

***

﴿ أفراحهم وحفلات زواجهم ﴾ بقي علينا وصف حفلات اعراسهم وطريقة زواجهم ونظامه يشترط ان يكون في كل عرس طبل يقرع وزمر يدوي شهادة على حدوث الزواج الذي يتم باحضار رغيف خبز من بيت الامراء او شيخ القرية وقسمته بين العروسين كناموس للخطبة وعقد النكاح وفي اواخر العرس يطن وقوع النكاح بطلقات نارية وبشهادة أخرى مقنعة تمسك عن ذكرها فيرفض المدعوون وتنتهي الحفلة ويتحتم على كل شاب ان يتزوج من طبقته مراعاة للتقاليد الا الامير فله ان يختار عروسه من اية طبقة احب وشاء . والزواج يكون مسموحاً به من سن الاثنتي عشرة حتى الثمانين ويسوغ لليزيدي الزواج بالواحدة تلو الاخرى حتى السادسة ولكنه يحرّم عليه ان يجمع بين اثنتين بغير رضى الاولى . واذا رزق اولاداً من اولى نسائه لا يسمح

لهُ بأن يتزوج مع وجودها من امرأة اخرى . اما الفتاة فلا ترث ابيها وتباع كسلعة واذا امتنعت عن الزواج المختار لها وجب عليها ان تؤدي لأبيها حقه فضةً او شيئاً من خدمتها وتعب يديها . واذا اختطف احد امرأة غيره يترتب عليهِ ان يعوض لهُ عنها بامرأته او بأمه او بأخته او ارضائه بمالٍ واذا تغيب رجل عن زوجتهِ حولاً كاملاً حرم عليهِ ولا يُعطى غيرها. ويحرّم ايضاً على اليزيدي ان يتزوج من امرأة اخيه او من امرأة عمه او من امرأة خاله او من اختين من امٍّ واب

والموت عندهم ليس بالمرحلة الاخيرة من هذه الدنيا بل هو على اعتقادهم سات يعودون بعده الى هذه الحياة مراراً فاذا كان الرجل شريراً تتقمّص روحه في جسم حيوان تكفيراً عن سيئاتها واذا كان صالحاً عاد الى مرتبة ارقى من مراتب طائفتهم حتى يبلغ درجة الكمال . فعند حدوث وفاة أحدهم يضعون في كفنه حفنةً من تراب الشيخ عادي ويمسحونه بهِ قبل دفنه ويقرّبون اطعمة عن روحه وتسهر الكواجك على قبره فيتراءى لها في الليل ماحلّ بروحه

***

ويجدر بنا ان نختتم مقالنا بوصايا الملك طأووس المنزلة بكتاب «جلوة» المقدّس التي تتجلى فيها عظمته وسطوته وجبروته : يقول الملك طأووس : —

« المال مالي والبشر عيالي . أنا أفقر وأنا أثري أنا أسعد وأنا أشقي

« لا أحب من يدعوني باطلاً ومن ينكرني أمام الناس أنكره في السماء . أنا أحب من يحبني من اعماق نفسه

« ومن يكرمني ارضى عنهُ وأتجاوز عن سيئاته وأقبل منهُ سجية كرمه عوضاً عن الصوم والصلوات

« أنا أعاقب في عوالم الآخرة من يخالف شرائعي على الارض . ومن لا يشك فيَّ ويدعوني دائماً أحضر عنده في ساعة الضيق والحاجة . أهدي غياثي احبائي وأتباعي . اياكم أن تذكروا صفاتي أمام الاجانب فتخطئون

« لانكم لا تعلمون ما يخطون . من لا يحسد منكم ولا يزني ولا يكفر ولا يعمل مثل الهراطقة أساعهُ يوم القيامة وارجو من الرب ان يغفر لهُ ويدخله الجنة »

***

واليزيد على اعتقاد يقين بأنهم سيجدون يوم القيامة الشيخ عادي واقفاً بانتظارهم على باب الجنة فيحملهم جميعاً في طبق على رأسه ويمر بهم بوابة الفردوس آمنين مطمئنين بلا حساب ولا دينونة ولا عقاب

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

— ٨ —

البَلَسَان

محركة ويقال له (البَشام) هو شجر البلسم المكي المشهور بتضوّع رائحته البلسمية وبانهُ من الاشجار التي تقوم عليها ثروة بلاد العرب

شجرته صغيرة غير شائكة ترتفع ١٥ قدماً . أوراقها ريشية مركبة الواحدة منها تتركب من ثلاث وريقات الى خمس عديمة الاعناق كاملة الحافة او مسوّجة قليلاً وهذه الاوراق منثورة الوضع على الاغصان بلا نظام او مجتمعة في طواقب وأزهارها صغيرة مجتمعة في طواقب كذلك

اسمهُ العلمي (Commiphora Opobalsamum, Engler) (كوميفورا اوبوبالساموم) او (Balsamodendron Opobalsamum; Kunth) (بالسامودندرون اوبوبالساموم) أو (Balsamodendron Gileadense; Kunth) (بالسامودندرون جيلادنس) او (Amyris Opobalsamum) (اميريس اوبوبالساموم) وفصيلته البخورية (Burseraceae) (بورسراسية) وبالانجليزية (Balmof Gilead Tree; Mekka—or Gilead -Balsam Tree) وبالفرنسية (Balsamier, Jou Baumier de la Meoque) موطنهُ بلاد العرب والحبشة وهو دائم فيها الآن معروف في مكة كثيراً وفي بعض جهات الهند والسودان وبلاد النوبة . وقيل إنهُ كان يغرس في مدينة عين شمس بمصر الى العصر الذي وقف فيه على مصر عبد اللطيف البغدادي صاحب كتاب الافادة والاعتبار وأن آخر شجرة منهُ زالت في اوائل القرن السابع عشر

والمنتفع به منهُ سائل راتنجي عطري شبيه بالصمغ يحصل عليه بالشق فيرتشح من الشجرة ويسمى (البلسم المكي) (Mekka Balsam) او (دهن البلسان) وهو البلسم الحقيقي او سلطان

البلاسم واغلاها ثمناً فقد كان يباع على عهد الرومان بضعف وزنه من الفضة ويدخل في بعض الادوية

والمعروف بالتواتر عند العرب أن بلقيس ملكة سبأ ادخلت هذا الشجر الى بيت المقدس في قصتها المعروفة مع سيدنا سليمان عليه السلام وقيل إن كلمة بلسم مشتقة من (بَلْ — سَمِن) العبرية ومعناها (الزيت الملكي)

أما ثمر هذا الشجر فيعرف في العطارة (بحب البلسان) (Carpobalsamum) (قارپوبالساموم) ويقال إن تعاطيه مذهب شديد للارياح المعدية وهاضم للطعام . وخشبهُ يسمى (قسيلوبالساموم) (Xylobalsamum) يتطيب به العرب والهنود وغيرهما ولا يزالان يتجر بهما في بلاد الهند

نبات الكَرْكَديه

او (القَرْقَديب)معروف في مصر والسودان ويقال له ايضاً(القَرْقَدي)و(القَرْقِن) شجيرته تزرع سنويًّا او تكون معمرة بريًّا فيبلغ ارتفاعها سبع اقدام . وفروعها واوراقها واثمارها حمراء قانية جميلة . وورقها كاملة الحافة او قليلة الفصوص . وثمرتها عبارة عن حق يضي الشكل منته بسن

اسمه العلمي (Hibiscus Sabdariffa, L.) (هيبسقوس سابداريفا) ونصيله الجازية (Malvaceae) (ملفاسية)

وبالانجليزية (Jamaica or Red Sorrel; Rozelle Hemp; Indian Hibiscus)

وبالفرنسية (Ketmie acide; Oseille de Guinée) وموطنه الاول جزائر الهند الغربية والآن يزرع في معظم البلدان الحارة وينبت بريًّا في السودان الجنوبي

ينتفع بكؤوس ازهاره اللحمية الكبيرة التي تبقى بعد سقوط تويجات الازهار وتغلظ وتصير عصارية وهي حول الثمار الحقية . وهذه الكؤوس مزّة يصنع منها نوع من المربى الفالوذجي الجيد . وتستعمله العامة كالشاي . ويصنع من الثمار الفجة شراب لذيذ منعش او تدخل في انواع المخللات . وفي بعض الاحيان تستعمل الاوراق الصغيرة الغضة المزّة كنوع من الخضر تطهى .

وتُزرع في إفريقية الاستوائية صنف من هذا الكركديه اسمه العلمي (H. S. var. altissima) (هيبسقوس سابداريفا التيّا) يحصل من قلف سوقه على ألياف ناعمة الملمس متينة تشبه ألياف ذلك النوع من الملوخية الذي يزرع في الهند للحصول منهُ على (الجوت) (Jute) الذي يصنع منهُ هناك نوع من الحبال والاكياس والفراش الكثيرة الاستعمال في مصر في الاقطان وغيرها

القُتَّة

نوع من السنط وتسمى بالشام (القَرَط) و (العَنبر)

وهي شجيرة شائكة تكون صغيرة الى متر ونصف طولاً وكبيرة الى ثلاثة امتار فأكثر اوراقها ريشية مركبة مضاعفة في الورقة من ٤ ازواج الى ٨ من الوريقات الريشية وفي كل من هذه الوريقات من ١٢ زوجاً الى ٢٠ من وريقات غير ريشية . شوكها مستقيم . وأزهارها مكتظة في رؤوس كرية صفراء ذكية الرائحة . وثمارها قرون مثلثة تطول من ٥ سنتيمترات الى ٧

اسمها العلمي (Acacia Farnesiana, Willd.) (آقاسيا فارنسيانا) وفصيلتها السنطية او المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية)

وبالانجليزية (Sponge Tree; Dioscorides's small acacia; Sweet scented acacia)

وبالفرنسية (Acacie odorante; Cassie jaune; Cassie) مواطنها جزائر الفيليبين وجنوب الولايات المتحدة وبجيريا والشاطىء الذهبي والكنغو وشمال افريقية وجنوب اوربا ومصر والسودان والشام وغيرها . وتزرع بالريفيرا والشام لزيتها العطري الذي يحصل عليه بتقطير الأزهار ويدخل في الروائح العطرية وتزرع للزينة وعلى السياج لجمال أزهارها وطيب رائحتها

الكِتْر

نوع من السنط معروف في السودان بهذا الاسم شجرته ذات اوراق من النوع الريشي المركب الثنائي الازدواج في كل وريقة ريشية زوج واحد من الوريقات غير الريشية البيضية الاهليلجية او المستديرة . وشوكها قصير متقوس . وأزهارها بيض مجتمعة في سنابل إبطية كالحصل . وثمرتها قرن منبسط طوله ٥ سنتيمترات

اسمهُ العلمي (Acacia Mellifera, Benth.) (آقاسيا ملّيفرا) وفصيلته السنطية او المستحية وهو ذائع في السودان وادخل الى مصر في القرن الماضي . وفي السودان يحصل من قلف شجره الداخلي على ألياف تنسج منها اكياس لمائها بالصمغ ويقال ان النحل ترغب زهره كغذاء

المُوْط

نوع من السنط معروف بهذا الاسم بالسودان ويقال لهُ (المُوْد) ايضاً

شجيرته تشبه المخروط المقلوب اوراقها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة من ٣ ازواج الى ١٢ من الوريقات الريشية في كل واحدة منها من ٦ ازواج الى ١٥ من الوريقات غير الريشية الاهليلجية الصغيرة وشوكها صغير متقوّس قليلاً طول الواحدة منهُ سنتيمتر

تقريباً . وأزهارها مجتمعة في رؤوس كرية توجد في آباط الاوراق . وثمرتها قرن يقرب لونه الى الصفرة رفيع الطرفين طوله من ٥ سنتيمترات الى ٧

اسمهُ العلمي (Acacia Nubica Benth.) (آقاسيا نوبيقا) وفصيلته السنطية او المستحية

وهو نافع في اكثر بلاد السودان ويستعمل قلف شجره في الدباغة ويحصل من قلف الجذع الداخلي على ألياف جيدة يستعملونها هناك في بعض حاجاتهم

نبات الشَّشْم الاسود

المعروف (بحبّ السودان) و (حبّ العين) و (حبّات العين)

نبات سنوي معتدل الساق يرتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ يكسوه وبر قصير خشن ذو غدد اوراقه صغيرة من النوع الريشي المركب في الواحدة منها اربعة ازواج من الوريقات البيضية الشكل. ثمراته قرون مزغبة طول الواحد منها ٢½ سنتيمترات الى ٥ وعرضه نصف سنتيمتر تقريباً

اسمهُ العلمي (Cassia Absus, L.) (قاسيا آبسوس) وهو من جنس السَّنَى وفي رأي الاستاذ ألبينوس (Alpinus) ان كلة Absus مأخوذة من اسم نهر في فلسطين . وفصيلته السنائية (Caesalpiniaceae) (سيزالپياسية) وبالانجليزية (Flour-Leaved Cassia) وبالفرنسية (Absuscassie)

وحب السودان معروف في الهند والسودان وبذوره تستعمل فيها بعد سحقها كالأثمد للعين ويشتق بها في الارماد المزمنة . وفي السودان تداوى بها السَّعْفَة (Ringworm) وتسمى البذور بالفارسية (جشميزك) او (تشميزج) ومعربها (جَشْمِيزَجْ)

نبات القهوة السوداء

ضرب من السَّنَى يسمونه في بلاد البنغال بالهند (كلكشندا) (Kalkashanda)

عشب سنوي شبه شجيري يرتفع الى خمسة اقدام . اوراقه من النوع الريشي المركب في الواحدة منها اربعة ازواج او خمسة من الوريقات الضيقة الحادة القمة . أزهاره صفراء وثمراته قرون في صورة الخطوط

اسمهُ العلمي (Cassia occidentalis, L.) (قاسيا اكسيدنتالس) وفصيلته السنائية ايضاً وبالانجليزية (occidental cassia) معروف في الهند الصينية والبنغال وجنوب الهند وبورما وجزائر الانتيل والبنغال والسودان ينمو برياً فيها . والمستعمل منهُ في الطب الاوراق والجذور والبذور فالاوراق المسحوقة تدمل بها الجروح الحديثة والجذور تدر البول والبذور تداوى بها السَّعْفة ويستعمل منقوع الاوراق مضاداً للحميات الصفراوية كما تستعمل البذور المحمصة المطحونة عوضاً عن قهوة البن العادية وهذا سبب التسمية بنبات القهوة

أبدع طرق الشام

وأروعها : بين انطاكية واللاذقية

لوصفي زكريا

—٢—

في الكيلو متر ٤٧٫٥ على يمين الطريق مكان اسمه «بايلا» ومعناه بالتركية المرتع ، يعلو نحو ٧٤٠ متراً عن سطح البحر ، وهو جميل المنظر جيد الهواء ، فيه عين ثرة يتدفق منها ماء عذب بارد ، واشجار دلب عظيمة باسقة وبناء كبير مستطيل اتخذوه مقهى يرتاده ابناء السبيل الذين يجذبهم حسن المكان فيستريحون فيه برهة . وهنا يتمتع الساعي بمنظر الجبل الاقرع واسمه القديم Casius الشامخ بذوروته المخروطية الشبيهة بقوهة البراكين الى علو ١٧٥٩ متراً ، وتحته جبل آخر يناوحه الى علو قليل يدعونه هنا طوران داغ ومعناه الجبل الواقف وكان اسمه القديم Anti-Casius

يقف هذا الطود الاشم في ساحل الشام الشمالي كالمنار المرفوع يشاهده ارباب السفن في البحر والقوافل في البر من مئات الاميال ، وهو كما يظهر من اسمه اقرع اي عار عن الحراج اذ كن اللون يغشاه الضباب في اغلب الاحيان . وقد كرّمه الفينيقيون واتخذه اليونان والرومان رمزاً لعبادة المشتري ، وصعد اليه القيصر ادريانوس وانتظر هزيع الليل الاخير ليشاهد اقبال النهار في الشرق وادبار الليل في الغرب في آن واحد ، وقدم القيصر يوليانوس فيه قرابين للشمس المشرقة ، ولا يزال الضيعة فيما قيل يتحون هذا المنحى

لم يتح لي الصعود الى ذروته ، لكنني علمت ان الواصل اليها يسرّح بصره في مشاهد غاية في الروعة والامتداد . فكأن خارطة شمالي الشام المفصلة تنكشف امامه بألوانها وخطوطها ومرتفعاتها ومنخفضاتها ومراكز مدنها وقراها . ففي الغرب البحر المتوسط ترغي وتزبد امواجه عند حضيض هذا الجبل وتزهو بزرقته وسعته الممتدتين إلى الافق المعين في البعد وتظهر فيه البواخر صغيرة كالزوارق ، وثمة جزيرة قبرص ترى بجلاء كسلحفاة سابحة مدت رقبتها الطويلة تحاول لثم الساحل الشامي ، وفي الشمال عن بعد في انحاء كيليكية من بلاد الترك سلسلة جبال طوروس المتكللة بالثلوج

في الشتاء والربيع ، وعن كثب داخل حدود الشام الحالية سلسلة جبال آمانوس « اللكام » ثم سهل العمق الافيح وبحيرة انطاكية الزرقاء ووادي العاصي الخصر وسواحل الاسكندرونة والسويدية المسرعة وجبل سمعان الذي فيه دير القديس سمعان العمودي، وفي الشرق الجبال الوعرة الممتدة من وادي العاصي إلى غربي حلب وجنوبها كجبل القصير والجبل الاعلى وجبل باريشا وجبل الزاوية وجبل الكرد الشمالي [١] وجبل سمعان الشرقي [٢] وجبل الاعصر ، وفي الجنوب جبال البارر والبسيط والاكراد الداخلة في حدود اللاذقية والمنشية بالحراج الغياض التي سيأتي ذكرها ثم سواحل اللاذقية وجبال النصيرية وقمم لبنان الشمالي المكللة بالثلوج في معظم ايام السنة

وبعد منزله بايلا تنحدر الطريق نحو بقعة منخفضة محاطة بالجبال في وسطها في الكيلومتر ٥٢ قرية كبيرة اسمها (اردو) ومعناه بالتركية الجيش والمعسكر ، لان أهل هذه القرية وعددهم ٧٥٠ تركمان من اصول ومناشىء مختلفة ، وما خلا عدد ضئيل من النصارى ، وهي حسنة الدور بعضها مسقوف بالآجر الاحمر ، جددت بعد الخراب الذي اصابها عقب الاحتلال الفرنسي بتهمة اشتراك اهلها بالثورات التي حصلت ضد ذلك الاحتلال في سنتي ١٣٣٩ و ١٣٤٠ هـ . وعلو الاردو عن سطح البحر ٤٨٠ متراً وفيها مسجد واحد ومدرسة للحكومة ومخفر لجنود الدرك ومركز للبرق والبريد والهاتف . وقد تقدم في فاتحة مقالنا ان الادريسي ذكر في كتابه « نزهة المشتاق » وجود حصن في هذه الانحاء اسمه حصن الهربادة وان المستشرق الفرنسي دوسمو ظنّ ان قرية الاردو مبنية في مكان هذا الحصن لاقتراب الابعاد التي ذكرها الادريسي عليها . هذا وقد جعلت الاردو قاعدة ناحية تتبعها قرى اكزجي وبلانكوز وسوروغة وشاقشاق وصونقور وطمطم وقشلاق وغيرها الشبيهة اسماؤها بقرى الاناضول

وفي غربي ناحية الاردو التركمانية ناحية اخرى ارمنية قاعدتها كَسَب ، تصل اليها السيارة في حلب [٣] طوله ١٢ كيلو متراً . وكسب قرية كبيرة جميلة عدد سكانها ٢٥٠٠ ذات بيوت مبنية بعضها مسقوف بالاجر الاحمر تشبه عن بعد قرى جبل لبنان ، لانها بنيت في السفح الجنوبي لجبل الاقرع على علو ١٠٥٠ متراً عن سطح البحر وفي بقعة زاهية بالحراج الملتفة ، ولذلك يقصدها فريق من نصارى اللاذقية للاصطياف وفيها عدة مدارس ودير عظيم للآباء

(١) في شمال الشام جبلان ينسبان الى الكرد او الاكراد احدهما يقيم حلب ويؤلف قضاء خاصاً قاعدته بليدة عفرين المستحدثة واهله اكراد افلاح لا يعرفون العربية . وثانيهما بين اللاذقية ويؤلف ناحية واهله اكراد اتوا منذ عدة قرون وتأثروا بالبيئة العربية ولم يعد فهم من الكردية الا الاسم

(٢) في شمالي الشام جبلان ينسبان الى القديس سمعان العمودي احدهما غربي حلب على بعد ٤٠ كيلومتراً وثانيهما غربي انطاكية وقرب السويدية والبحر على بعد ٣٥ كيلو متراً . وفي كليهما دير عظيم خراب باسم القديس المذكور . والجبل الثاني هو الاصح في الانتساب وقد ذكر ياقوت في معجمه هذا الدير الثاني وأخطأ بقوله يصعد منه الى جبل اللكام وصحيحه ان يقول الى الجبل الاقرع (٣) عنيت بالذهب الطريق غير المعبدة الصالحة لسير السيارات في الفصول الجافة واستعملها مقابل كلمة Piste الفرنسية كما ان الطريق المعبدة مقابل كلمة Chaussée

الفرنسيسكانيين الذين يهتمون بكنائسهم هؤلاء الارمن . وقد جعلت كسب قاعدة ناحية تتبعها قرى الارمن المجاورة وهي ايكيز اولوف وقره طوران وكوركنه ومرسلك

وأرمن الجبل الاقرع كأرمن جبل موسى الممتد غربي انطاكية عريقون في قدمهم وسكناهم في هذه الانحاء ، وربما كان ذلك منذ القرن الاول الميلادي على عهد احد ملوكهم ديكران الذي حكم انطاكية زمناً يسيراً ثم ازاله الرومانيون وبقي قومه في الاماكن التي اقطعها لهم . وهم هنا ما برحوا محتفظين بلغتهم وتقاليدهم الخاصة ، لكنهم في المذهب منقسمون الى نحل شتى : غريغوريين وبروتستانت وكاثوليك

وهؤلاء الارمن كأبناء جلدتهم في كيليكية كانوا في زمن غارات البيزنطيين والصليبيين والتتار على البلاد الشامية الاسلامية يرشدونهم الى المسالك والثغور التي كانوا مطلعين عليها بحكم المجاورة والاتصال ويقدمون لهم ارباب الصناعات الحربية التي كانوا بارعين بها كبناة القلاع والحصون وعارفي قواعد حصارها والدفاع عنها والنقابين والنفاطين ورماة المنجنيق وغيرهم من مستعملي آلات الهدم والحرق . وما برح الجيش الفرنسي في بلاد الشام يجمع من متطوعتهم عدداً وفيراً خدموه اكبر خدمة في اطفاء ثورة الحلبيين في سنتي ١٣٣٩ و١٣٤٠ وثورة الدمشقيين في سنة ١٣٤٤ هـ

بعد مغادرة قرية الاردو تبدأ بداعة هذه الطريق وروعتها — اللتان جعلناهما عنوان مقالتنا — بالظهور في اجلى مباهجها . اذ ان الطريق بعد الاردو تجتاز جسراً طوله ثلاثون متراً فوق نهر القرشية احد روافد النهر الكبير الشمالي ، ثم تتطلق وتتمعج بين حراج الصنوبر الملتفة التي تتيه بنضرتها ورشاقة سوقها وشذا اريجها ولا تزال في انحدار متوالٍ تتوج تارة وتستقيم اخرى بين تلك الحراج حتى تصل في الكيلو متر ٦١٫٥ الى الحد الفاصل بين حكومتي انطاكية واللاذقية حيث العلو ٤١٠ امتار ثم تعود الى الصعود تدريجيًّا في ناحية البابر التركمانية ذات الجبال والحراج والمتنزهات والثنايا[1] الزهية المتوالية ، منها في الكيلو متر ٦٢ ثنية تنسب الى قرية دوز آغاج القريبة منها . واخرى في الكيلو متر ٦٤ تنسب الى قبزيل داغ «الجبل الاحمر» علوها ٨٠٠ متر وفيها منظر جميل يشرف على الجبل الاقرع واعضاده — الشرقية . وهكذا الى ان تصل في الكيلومتر ٦٦ الى ثنية «عين الحرامية» التي ينكشف فيها البحر المتوسط وحيث العلو ٦٢٩ متراً

هنا في عين الحرامية صفحة لا تمل ، ورؤية لا تجتوي هما بيت القصيد في هذه الطريق التي قلنا انها أبدع طرق الشام واروعها . ففي الغرب البحر المتوسط يمعن في التبسط والابتعاد حتى يلامس السماء الصافية ، ويشتد هذا البحر في زرقته النيلية او يجعلها خفيفة فضية بحسب ساعات النهار . وثمة شطوط — وبينك وبينها نحو عشرة كيلومترات — تظهر شقراء ملطخة بقطع بيضاء ربما

(١) الثنية كل عقبة مسلوكة محصورة في الجبال وجمعها ثنايا وثنايها في الفرنسية Col

أنت زبد الامواج المتكسرة عند اقدامها. وعلى مقربة من تلك الشطوط جبل متواضع في علوه وضخامته اسمهُ صير تلان داغ اي جبل الضبع زحف نحو البحر واحدث فيه رأساً يعرف الآن برأس البسيط وقديماً بـ Cap posidium على يمينه خليج صغير لا يواء السفن يدعوه الملاحون جوف البسيط

وبينك وبين تلك الشطوط حراج وسيعة ملتفة كأنها لجة سندسية تبسطت فوق الهضاب والسفوح وغشت على الاودية والمشارف وحجبت المضائق والمعاطف واخفت تحت ظلالها مزارع وضيعات ذات دور متثرة ، منها دير عظيم للفرنسيسكانيين ، وفي ساعة الطفول تعكس اشعة الشمس على قشور الصنوبر الحمراء الملساء فتظهرها كالجمار الملتهبة

وفي الشمال الجبل الاقرع واعضادهُ المترامية على اقدامه ، تظهر في جملتها وعثاء المنظر ، دكناء اللون متعجة الشعاب ، كثيرة المخارم والفجاج ، اكتست حتى منتصف علوها بالبلان والبربريس واشباهها من الانجم الشائكة ، ثم رفعت قمماً من علو ١٢٠٠ الى ١٧٥٩ متراً ، جرداء يكسوها الضباب الخالد وتحيط بها ذكريات التمجيد والتكريم . وفي الشرق جبال الباير المغشاة بالحراج الغياء العذراء[1] ذات المنظر السندسي النضر والاريج الراتينجي العطر الذين يأخذان بمجامع القلوب

اما العين « عين الحرامية » التي تبدل خوفها القديم امناً ووحشتها انساً فهي في اسفل الطريق المعبدة ذات ماء عذب بارد ، عمل لها حوضان تظللها اشجار الصنوبر الباسقة . ونداوة هذا المكان وفتنته وفوحان اريجه الراتينجي ونضرته تجعله صالحاً لبناء فندق للاصطياف او مصح للمصدورين الذين يجدون فيه كل اسباب الهناء والشفاء

وثمة شعب طوله نحو كيلو مترين ونصف او اقل يأخذك تحت مخرفة[2] جميلة بين الحراج الغياء العذراء الى حصّاة اي ساحة حارية بين اشجار وارفة[3] تحسبها قطعةً قرزت من مجاهل افريقية الاستوائية وغابتها الرهيبة التي كنا نقرأ عنها ثم نشاهدها في دور السينما . هذه الساحة التي ليس لها اسم ولا يعرفها بعد الا القليل انفسحت بين تلك الحراج الملتفة ونمت حولها اشجار عظيمة دهرية من البلوط والزان والدلب وغيرها ، ثم ربت بين هذه الاشجار دوالي العنب البري وعرائش الملعى والعشق وغيرها من النباتات المتسلقة والمتهدلة ، وامتدت من شجرة الى اخرى واحاطت بسوقها واشتبكت حتى صارت كقبب السرادق او الصواوين الخشبية . وهناك عين جارية تتدفق تحت دلبة عظيمة تزيد في طراوة هذه الساحة ورونقها بحر مائها كالشلال وينحدر نحو واد لا يقترب منهُ لالتفاف نباتات السرخس والطحلب والعليق وغيرها ، ناهيك السراطين التي لا تعد ولا تحصى . وتحاول اشعة الشمس ان تخترق هذه الاشجار والانجم الملتفة والعرائش المشتبكة فلا تجد الى ذلك سبيلاً . لا جرم ، ان عين الحرامية

(١) الغياء هي الحراج ذات الشجر الملتف والغبراء التي لم تمسسها يد حاطب بعد

(٢) المخرفة الطريق بين الاشجار ويقابلها في الفرنسية allée (٣) يقابلها في الفرنسية كلمة clairière

ومشاهدها وبنابيعها وحراجها وشذا اريجها وساحتها الظليلة البليلة هي من اجمل اماكن النزهة والمزلة واجذبها في شمالي الشام يجدر بحكومة اللاذقية ان تعنى بها وتقيها هي والحراج — المجاورة لها من فؤوس الحطابين وعبث المخربين ريثما تقوم بناء مصيف او مقصف صالحين لارتياد محبي التمتع بمثل هذه المحاسن الطبيعية وراغبي الشفاء من الامراض الصدرية

وعلى ذكر هذه الحراج اقول انها من اجمل ما رأيت في بلاد الشام سعةً وكثافةً وحسناً تبلغ مساحتها فيما قيل نحو عشرة آلاف هكتار . والجنس السائد فيها هو الصنوبر المعروف بالحلبي يليه الزان والقطب والسنديان والزمزريق والبطم والزعرور البري والاجاص البري، وفي الاودية الرطبة الدلب ، وثمة بعض الانجم والاعشاب الثافعة اخصها السماق ونبات البيرتر الطبي

على اني لحظت في كثير من الاسف ان صنوبر هذه الحراج قد نشبت في كثير من اشجاره مخالب حشرة يغلب على ظني انها البومبكس الاحتفالية Bombyx processionnaire التي تمد من اثنك اعداء حراج الصنوبر . فهي هنا نسجت على اغصانه شباكها الشبيهة بالعنكبوت فغيرت بهجته وصوحت نضرته ، وشرع هذا الكثير المصاب بالجفاف والانقصاف . ولا ادري ان كانت « دائرة الزراعة والحراج » في حكومة اللاذقية على علم بهذا الداء الفتاك وعلى عزم الاهتمام بمعالجته قبل تفاقم شروره وانقراض آخر نزات من هذه الثروة الطبيعية التي لا تعوض بثمرون كما انقرض امثالها من معظم جبال الشام بحكم نقص التفكير وسوء التدبير

هذا وكما تمتاز هذه البقعة الجبلية بحراجها الجميلة تمتاز ايضاً بوجود انواع من الحجر الاخضر المعروف بالسماقي وكذا انواع من الاحجار ذات الالواح والطبقات كالاردواز والپورفير والشيست والكلس . وقيل ان استخراج الحديد في جهات البسيط ممكن واقليم هذه البقعة رغم قلة ارتفاعه عن سطح البحر يعد صالحاً للاصطياف لدوام الرياح البحرية العليلة

اما التركمان القاطنون في هذه البقعة وفي ناحيتي الاردو والقصير الفوقاني — وقد تكرر ذكرهم مراراً — ومثلهم القاطنون في غربي الشام ووسطه وجنوبه ففرقهم عن الترك كفرق الاعراب عن العرب ، هؤلاء بدو واولئك حضر . اذ لا يزال من التركمان في بلاد الاناضول وقلب آسية قبائل عظيمة ذات نجعة وارتياد لمراعي الماشية التي يتعيشون بها دون سواها . على ان الذي في بلاد الشام قد تحضروا وصاروا — قرويين وفلاحين ، لكنهم ما برحوا محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وهي تركية سقيمة دخلها كثير من الكلمات العربية العامية . وقد اختلفت الروايات في تاريخ مجيء هؤلاء الى بلاد الشام وسببه . واقرب الاقوال الى الصحة ان اول من جاء بهم هو السلطان سليم العثماني حينما اقدم على فتح الشام سنة ٩٢٢ هـ ثم سار على غراره اخلافه من الوزراء الذين تعاوروا الولاية في هذه الديار ، وظلوا يجرفون هذا السيل من حين الى آخر ، يأتي دافقاً ولا يلبث ترناً او اقل حتى يتضاءل بحكم اختلاف الاقليم وتوالي الاجيال ،

ودام هذا الحرف حتى اوائل القرن الثالث عشر الهجري، قصد العثمانيون بذلك على ما يظهر تكثير سواد ابناء جلدتهم بين عرب الشام وتزييد نفوذ دولتهم بهؤلاء القوم الذين خلقوا للضرب والطعن

وتركمان الانحاء الشمالية « بين انطاكية واللاذقية » وان بقوا على فطرتهم وجبل ما عدا انهم لقرب عهدهم ببلاد الترك واختصامهم بجيان وحراج لا ترام ، لكن الذين تديّروا منهم انحاء حماة وحمص وتلكلخ وحذور « شرقي طرابلس » والجولان « جنوبي دمشق » ذابوا في البيئة الشامية او كادوا ، لا يميزهم الغريب عن ابناء البلاد الاصلية الا اذا حدّج في هيئاتهم واصغى الى احاديثهم فيما بينهم ، يجدهم محتفظين بقاماتهم وسحنهم التورانية وبلغتهم الموصوفة آنفاً

وقيل ان منشأ تركمان شمالي اللاذقية من انحاء كلخ وارزنجان في شرقي الاناضول الشمالي ، ومنشأ تركمان وسط الشام وغربه وجنوبه من قبيلة افشار التركمانية الضاربة في قلب الاناضول بين سيواس وآذنة ، وان تركمان اللاذقية — متوزعون في ضياع وضيعات اكثرها في ناحية البابر وبعضها في ناحية البسيط واقلها في ناحية البهلولية . واشهر ضياعهم في الاولى كبلية وهي قاعدة الناحية ثم شمروران وشرن ودرويشان وغمام وكبرا وعيسى بنار وقره جاغز وقزل شاط وقولجق وقروجة ونصيبين وزويك . وفي الثانية سرايا وهي قاعدة الناحية وبيت عوان وفاقي حسن وعيسى بكلي وطورنجة وبوزاوغلان وكساجك وزغرين ومران وفي الثالثة صليّب وبرج اسلام وهما كبيرتان ومجموعهم في هذه النواحي الثلاث نحو خمسة عشر الفاً ، يغلب عليهم الجهل والغفل والبؤس ثم الانقياد إلى زعمائهم الملقبين بالاخوات ذوي السيطرة الاقطاعية المخلدة منذ العصور المتوسطة

هذا ومن عين الحرامية يتمكن الموغل بالسياحة ان يصل بعد ساعة ونصف الى قرية الفاتي حسن التركمانية ، وفي قربها في قرية بانجغاز الارمنية ديركبير للآباء الفرنسيسكانيين ، وهؤلاء كزملائهم الذين في قرية كسب المذكورة آنفاً هم ان يكلكوا الارمن . ويمكنه أيضاً ان يصل بعدها خلال ساعة الى شاطىء البحر ويشاهد فيها رأس البسيط والاطلال الأثرية التي حوله وجون البسيط الذي قضى فيه اسطول ابراهيم باشا المصري فصل الشتاء عام ١٢٤٨ هـ

رجع إلى الطريق — بعد عين الحرامية تظل الطريق في صعود إلى ان تصل في الكيلو متر ٦٧ الى علو ٨٥٠ متراً وهو منتهى العلوعن سطح البحر ، وهنا منظر تمتد النهاية جبل اللقاية يشبه ما في عين الحرامية . ثم تشرع الطريق بالانحدار السريع فتسير في الكيلو متر ٦٩ بثنية تكشف حراج البابر الشرقية الممتدة حتى الطريق المعبدة بين اللاذقية وجسر الشغر . وثمة جبل منفرد ومغشى بالحراج يشبه سرج الجبل ، علوه عن سطح البحر ٣١٢ متراً وفيه عين ثرة ذات ماء عذب بارد تدعى قسطل معاف وفي الكيلو متر ٧٠٥ منظر جميل للغاية يمتد نحو الشرق والجنوب والغرب ويشرف على حراج البابر ووادي النهر الكبير وجبال النصيرية وسواحل اللاذقية . وفي

الكيلو متر ٧٤ قرية زنيزوف التركمانية ووادبها حيث العلو ١٦٠ متراً ، وفي الكيلو متر ٨٢ نهر قرب قرية بلوران حيث العلو ٧٠ متراً ، وفي الكيلو متر ٨٥ على يمين الطريق قرية قرجالية وثمة سفوح ذات صخور بيضاء وكثبان رملية نبتت فيها اشجار الصنوبر ، وفي الكيلومتر ٨٩ جسر حديث مبني بالاسمنت على نهر القنديل حيث العلو ١٧ متراً وحيث منتهى الحزون ومبدأ السهول . وعلى يسار الجسر لحب يذهب الى قرية زغرين فقرية سرايا قاعدة ناحية البيط . وفي الكيلومتر ٩٠ تجتاز الطريق تشزاً ذا تربة كلسية على يمينه مشهد جميل نحو البحر . ثم من هنا تظل الطريق سائرة بين سفوح ناحية البهلولية في الشرق والساحل البحري في الغرب . وفي هذا الساحل قريتا برج اسلام وبرج صليب التركمانيتان الكبيرتان . وفي قربهما على البحر فرضة تدعى ميناء الفاسري فيها مرفأ اثري اسمه القديم Posteria . وفي الكيلومتر ٩٧ مفرق الطرق اللاحبة الذاهبة الى قرى الشيطلية وبرج صليب في الغرب وجوزية في الشرق . ومن ثم تسير الطريق على خط مستقيم في سهل افيح كثير التراب والمثير وتجتاز على انتوالي اودية سياهها جافة في معظم ايام السنة منها نهر العرب الذي يفصل بين حدود القرى المتكلمة بالعربية عن المتكلمة بالتركية ، ووادي جهنم ونهر الشيط

ومن هنا تزداد اشجار الزيتون وتظهر اكثر نموًّا والتفافاً ، ومثلها ايضاً حقول القطن المنتشرة في هذه الانحاء، يزرع القطن فيها عذياً دون ري وفي الكيلو متر ١٠٨ مفرق اللحب الذاهب الى مينة البيضاء والى رأس الشمرا الذي ظهرت قبل خمسة اعوام بين رسومه الطامسة عاديات هامة منها قطعة عاج من الصناعة الاقريطشية واوان مصرية من الرخام الابيض وحناجر ومدى من البرونز ودمى مصرية من البرونز ، وظهر ايضاً في تل مركوم مستودع اسلحة استخرجوا منهُ رماحاً وفؤوساً وسيوفاً والواحاً من الاجر المشوى فيها كتابات بعضها بالحروف البابلية وبعضها بحروف مجهولة يحاول علماء الآثار حلها ولما يتهون ، وهي تعود للقرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد . وبعد الكيلو متر ١٠٨ تظهر مدينة اللاذقية عن بعد بما ذنها البيضاء وسقوفها الحمراء وفي الكيلومتر ١١١ تمر الطريق بين كروم الزيتون وبساتين البرتقال واسيجة الصبر « التين الشوكي » المحيطة بقرية دمسرخو النصيرية . وهنا لحب يذهب غرباً نحو رأس ابن هاني الذي حوله شبه جزيرة فيها اطلال دارسة كاسس وجدران ومدافن واساطين اعمدة ومدرج وهيكل وغير ذلك مما يعود على ما يقوله الاثريون الى بلدة كان اسمها ديوسبوليس Diospolis. وفي الكيلومتر ١١٣ تمر الطريق بين آثار مدافن قديمة ، وعلى يسارها تل فروس الذي كان فيه في العصور المتوسطة دير عظيم اسمه دير الفاروس ، وفي الكيلومتر ١١٥ مدينة اللاذقية الجميلة التي لها ولما بعدها من البلدان والبقاع الساحلية والجبلية تاريخ واسع وحديث ماتع ربما عقدت لها مقالات خاصة في فرصة اخرى

النور والاضاءة

بحث علمي عملي

للدكتور الياس صليبي

— ١ —

جاء في دائرة المعارف البريطانية ان النور هو التأثير الحسي الذي نشعر به عن طريق العين ولكن ما هو النور وكيف يحدث وهل هو ذرات او امواج ؟ كل ذلك أمور تضاربت فيها الآراء وقد شرحها المقتطف في مقالة نفيسة ظهرت من بضع سنوات اليك بعض ما جاء فيها

كان العلماء فريقين في نظرهم الى النور الفريق الاول وزعيمهم نيوتن يقولون انهُ ذرات صغيرة تنطلق بسرعة فائقة من جسم منير فتؤثر في شبكيّة العين وعصبها تأثيراً يجعلها تبصرهُ والفريق الثاني وزعيمهم هو جنس يرون انهُ تموّجات أثيرية يرسلها الجسم المنير في الاثير فتسير سيراً عموديًّا حتى اذا بلغت العين أثرت في شبكيتها تأثيراً يؤدي الى رؤيته . وجاء بعد هذين الفريقين العالم الطبيعي الشهير كلارك مكسويل وقال ان امواج النور من نوع الامواج الكهربائية المغناطيسية فهي في ذلك تشبه تموّجات اشعة إكس والاشعة اللاسلكية . وجاء أخيراً الاستاذ كمطن وقال ان النور امواج او ذرات من القوّة تسير سيراً موجيًّا وان الكهرب الاول المنطلق من جسم منير بسرعة عظيمة اذا أصاب لوحاً من البلاتين مثلاً تحوّلت قوّة حركته الى فوتون اي الى ذرة من أشعة إكس وهذه تنطلق بسرعة النور فاذا أصابت كهرباً في لوح خشب او شيء آخر أخذ الكهرب قوّتها والمطلق بسرعة الكهرب الاول الذي اوجد الفوتون نفسه . وقد تمكّن العلماء بهذه النظرية من تعليل بعض المظاهر الطبيعية التي لم يكونوا يستطيعون تعليلها بواسطة النظريات السابقة . انتهى ما جاء في المقتطف

والنور نوعان طبيعي وصناعي

والشمس مصدر النور الطبيعي اي الهادي ونورها ابيض زاهٍ يفضل كثيراً كل الانوار الاخرى واذا اردنا ان نكوّن بالصناعة نوراً ابيض مشابهاً لنور الشمس يجب ان نحمي جسماً جامداً الى

درجة التوهج فقطعة الحديد المعرّضة لنار الكير تخرج اولاً اشعة حمراً يشتدّ احمرارها بعد قليل وتخرج في الوقت عينه أشعة برتقالية ثم تخرج بعد ذلك على التوالي أشعة صفراً ثم خضراً ثم زرقاً ثم بنفسجية وحينئذٍ يلوح مجموع هذه الاشعة للعين كنور ابيض شديد اللمعان . فشعاع النور الابيض المتوهّج اذاً ليس بسيطاً كما يخيَّل الى الناظر اليه ولكنهُ مركّب من عدد من الاشعة المختلفة الالوان والانحراف كما ظهر من العملية التركيبية التي تقدّم وصفها وكما يظهر من العملية التحليلية الثانية

اذا اجتاز شعاع من النور منشوراً زجاجيًّا موضوعاً في فتحة تؤدي الى غرفة مظلمة ثم سقط على حاجز في هذه الغرفة تحلّل هذا الشعاع الى الاشعة الاصلية التي يتركب منها وظهر على الحاجز كشريط مستطيل مختلف الالوان الجزء الاقرب منهُ وهو الاحمر اقل هذه الاشعة انحرافاً والجزء الابعد وهو البنفسجي أكثرها انحرافاً . ومجموع الاشعة الصادرة من جسم نيّر يقال لها طيفه واول من حلّل نور الشمس وهو نيوتن وجد انهُ يتركب من الاشعة التالية وهي الاحمر فالبرتقالي فالاصفر فالاخضر فالازرق فالنيلي فالبنفسجي كما تراها في قوس قزح

ويحتوي شعاع الشمس علاوة على ما تقدّم على أشعة غير منظورة في طرفي طيفه اي تحت الاحمر وفوق البنفسجي

وتشتد حرارة أشعة الطيف كلما دنونا من الاحمر وتزداد بعد ما تتجاوزه اي ان اشدّ الاشعة حرارة هي أشعة ما تحت الاحمر ويسهل اثبات ذلك بمقياس حرارة حساس مدهون بالهباب

ولا ترتفع الحرارة في الطرف الآخر من الطيف حيث اشعة ما فوق البنفسجي التي يتمّ عليها تأثيرها الكيماوي . والفعل الكيماوي لاشعة الطيف على عكس حرارتها يزداد كلما دنونا من البنفسجي

فحرارة الضوء تصدر عن اقل اشعته انحرافاً وخصوصاً عن الاحمر وما تحته اما فعله الكيماوي فيصدر بالاخص عن الاشعة البنفسجية وما فوقها . بقي الاشعة المضيئة وهذه تشمل اشعة الطيف المنظورة كلها واشدها ضياء الاشعة الصفر والخضر

ويختلف طول امواج الاشعة باختلاف انواعها واقصر موجة من امواج أشعة الضوء لا يتجاوز طولها جزءاً من عشرة آلاف من المليمتر ويبلغ طول موجة ما فوق البنفسجي جزئين من عشرة آلاف من المليمتر اما امواج الاشعة التي تراها العين فيختلف طولها من اربعة اجزاء من عشرة آلاف من المليمتر في البنفسجي ان ما يقرب من سبعة اجزاء من عشرة آلاف في الأحمر ويبلغ طول موجة ما تحت الأحمر جزءاً من الف من المليمتر

ويختلف أيضاً عدد اهتزازات امواج الاشعة التي يصدرها النور فأشعّة الحرارة او ما تحت الاحمر تبلغ اهتزازات تموجاتها من ١٧١ الى ٣٤٢ تريليوناً في الثانية والاشعّة النيّرة التي تراها

العين تبلغ اهتزازاتها من ٣٤٢ الى ٦٨٤ تريليوناً في الثانية والاشعّة الكهائية او أشعّة ما فوق البنفسجي التي المنظورة يبلغ عدد اهتزازاتها أكثر من ٦٨٤ تريليوناً في الثانية وهذا النوع الاخير أشدّ الاشعّة ضرراً بالبصر وهو السبب في الرمد الكهربائي ورمد الكسوف وفقد البصر الناتج عن رؤية الاشياء الشديدة التألّق كالصواعق

وقد نشر شنز روستوكوزن ما تسبّبه أشعّة الضوء المختلفة من الضرر بالعين تبعاً لطول تموجاتها

فالاشعّة التي يبلغ طول تموجاتها من ٠٫٠٠٠٧٦ من المليمتر الى ٠٫٠٠٠٤ من المليمتر تبلغ الشبكيّة وتبصرها العين

والاشعّة التي يبلغ طول تموّجاتها من ٠٫٠٠٠٤ من المليمتر الى ٠٫٠٠٠٣٥ من المليمتر تسبّب تألّق العدسيّة ولا تصل الى الشبكيّة الاّ اذا خلت العين من العدسيّة لعلّة ما (كما يحدث بعد عملية الماثيّة البيضاء) وفي هذه الحالة اي عند وصول تلك الاشعّة الى الشبكيّة تصاب هذه الطبقة بأضرار مختلفة ويرى بعضهم ان تناقص بصر الذين عملت لهم عمليّة الماثية البيضاء مسبّب عن هذا الامر

والاشعّة التي يبلغ طول تموجاتها من ٠٫٠٠٠٣٥ من المليمتر الى ٠٫٠٠٠٣ من المليمتر تمتصّها كلّها العدسيّة

واذا كانت تموّجات الاشعّة أقصر من ٠٫٠٠٠٣ من المليمتر فانها لا تخترق القرنيّة وتحدث في العين علاّ خارجيّة

وانبعاث النور من الاجسام المضيئة ناتج عن ارتفاع حرارتها فمتى بلغت هذه الحرارة ٥٢٥ درجة بالمقياس المئوي بدأت الاشعة الحمر بالظهور ثم تلوها الاشعّة الاخرى حتى البنفسجيّة بحسب ترتيبها وكلما ازدادت الحرارة ازداد انبعاث الاشعّة البنفسجيّة وما فوقها فيستنتج مما تقدّم ان ضوء الشمس يحتوي على مقدار عظيم من الاشعّة الكهائية لأن حرارتها شديدة جداً . غير ان الجانب الاكبر من هذه الاشعّة تمتصّه طبقات الهواء المحيطة بالارض ولا سيما الطبقات السفلى الكثيفة . والدليل على ذلك ان الشمس حين الغروب عند ما لا تصل أشعّتها الينا الاّ بعد مرورها في طبقات الهواء الأفقيّة الكثيفة تفقد جانباً كبيراً من خواصها الكهائية فلا تؤثر الاّ قليلاً في لوح التصوير الشمسي وتصبح حينئذٍ ذات لون ارجواني ناتج عن امتصاص الاشعّة الزرق والبنفسجية وما فوقها

فالاجسام البيّرة هي أوّلاً اجسام ذات حرارة مرتفعة ومما يؤسف لهُ ان الجزء الأكبر من الطاقة يضيع سدًى في توليد تموّجات الحرارة وان الجزء الذي يولّد النور لا يربي على واحد في المائة من مجموع الطاقة لذلك يبذل المشتغلون بالاضاءة جهدهم في البحث عن وسيلة

تمكنهم من زيادة احماء الاجسام ليزداد النور الخارج منها. لكن هنالك امراً حرجاً وهو انصهار هذه الاجسام فكل معدن يصهر بحرارة منخفضة كالرصاص لا يصلح للاضاءة وعلى الضد من ذلك التنجستن الذي يصهر على ٣١٠٠ درجة من الحرارة فانهُ أصلح ما يكون لهذا الغرض[١]

***

﴿النور وتأثيرهُ في الاجسام والعين﴾ لأشعة النور المنظورة وغير المنظورة تأثير مباشر في اجسامنا وفي المحيط الذي نعيش فيه فالطقس والضغط الجوّي والرطوبة تتأثر بأشعة الشمس كثيراً او قليلاً والتعرّض لهذه الاشعة يؤثر ايضاً في نمو الجراثيم المختلفة وضمها ويساعد على نمو النباتات التي تتغذى بها وعلى توالدها

ولكن لم يعرف الاّ حديثاً ما للاشعة النضوء من الشأن العظيم في تركيب الڤيتامينات وهي المواد الغذائية التي لا غنى لنا عنها فقد ظهر من ابحاث كثيرة لا محل لذكرها هنا ان عدداً كبيراً من المواد التي لا تأثير لها في علاج الكساح تصبح ذات قيمة علاجية حقيقية اذا عرّضت في ظروف معيّنة لاشعة ما فوق البنفسجي الصادرة من نور الشمس او من مصباح بخار الزئبق وهذه الاشعة تقتل الميكروبات كما يتضح من تعقيمها الماء وتكثر في الجبال حيث الهواء لطيف خالٍ من الغبار ولذلك انشأوا فيها ملاجىء المسلولين ومستشفياتهم. ويزعم الاطباء ان تلك الاشعة هي العامل الاكبر في تحسين حالة المرضى الذين يقصدون هذه الاماكن لانها تقوي فيهم عوامل التمثيل metabolism فيزداد التأكسد وتزداد الوظائف الجسدية نشاطاً وسرعة

وتدلنا العين على ما تحتاج اليه من النور فكل نقص او عيب فيه يؤثر في الشبكية ويتعب البصر وتختلف مقدرة العيون على احتمال الضوء باختلاف مقدار المادة الملوّنة التي فيها فمن كان ذا لون أسمر يتحمل اكثر من ذي اللون الاشقر ومن الاحسب[٢] albino لان كثرة المادة الملوّنة السوداء في عيني الاسمر تمتص من الضوء الذي يدخلهما ما يزيد عن الحاجة ولهذه ايضاً بعض التأثير فالرجل الذي يقدم من البلاد الشمالية الى بلاد استوائية حارّة تزعجهُ شدّة الضوء لا سيما في الايام الاولى والاحسر (القصير البصر) لا يتحمّل الضوء بقدر ما يتحمّله طويل البصر لان البؤبؤ في عين الاحسر اوسع عادة منهُ في عين غيره فيجتازه مقدار أكبر من الضوء ثم لان الحسر الشديد يصحبه غالباً ضمور المشيمية وزوال ما فيها من المادة الملوّنة التي نوّهنا عن فائدتها في امتصاص الزائد من الضوء

وتكيّف العين وفقاً لتغيرات الضوء ولا تألم من هذه التغيرات الاّ اذا توالت بسرعة

---

(١) على ان ما لا تستطيعه الصناعة تستطيعه الطبيعة في بعض انواع الحيوانات الصغيرة يذهب ٩٩ جزء في المئة من القوة التي تعرضها في تكوين النور (٢) الاحسب : ذو بياض مشرب بحمرة

كبيرة فاذا انتقلت العين من محل مضاء إلى محل مظلم أمكنها بعد بضع دقائق ان تبصر قليلاً من غير مجهود سوى اتساع البؤبؤ إلى أن يبلغ قطر دائرته ثمانية ملليمترات ونصف الملليمتر بالاكثر وتحتمل العين كذلك بسهولة نور الظهر في أشهر الصيف ما لم تسقط هذه الأشعة عليها رأساً او تنعكس اليها من اشياء لامعة ويقبض البؤبؤ حينئذ إلى دائرة قطرها ملليمتر واحد وتسعة اعشار الملليمتر

***

﴿ خواص البصر ﴾ — حسبوا بالتدقيق مقدار الضوء اللازم لتبلغ خواص البصر منتهى قوتها وأولى هذه الخواص حدة البصر التي تميز بها تفاصيل ما نبصره وهي تزداد سريعاً بازدياد اضاءة الشيء المنظور حتى تبلغ الاضاءة خمسين لوكساً [1] ثم تصبح الزيادة بعد ذلك غير محسوسة او معدومة تماماً مهما بلغت قوة الانارة فيخيل الينا حينئذ ان الاضاءة التي تبلغ خمسين او ستين لوكساً هي غاية ما نحتاج اليه على ان الحقيقة ليست كذلك فان الخاصة الثانية من خواص البصر وهي سرعة الرؤية تزداد سريعاً بازدياد النور الى ان تبلغ الانارة ما فوق المائة لوكس

والخاصة الثالثة من خواص البصر هي سرعة تكيف العين لرؤية أشياء مختلفة الحجم والأبعاد وهذه الخاصة تزداد أيضاً بسرعة الى ان تبلغ الاضاءة ستين لوكساً ثم تتزايد ببطء الى ما فوق الثمانين لوكساً

***

﴿ عيار الضوء ﴾ لابدّ للمشتغلين بفن الاضاءة من معرفة ما تنفقهُ المصابيح المختلفة والمدّة التي تبقى فيها صالحة للعمل وقوة ضوئها ومن السهل قياس النفقة بعيارات الوزن والحجم المتزيّة كالغرام والمتر او بالعيارات الكهربائية كالفولط والأمبير والواط. امّا مدّة العمل للمصابيح المختلفة كمصباح البترول او شبكة اور والمصباح الكهربائي المتوهج فلا يمكن تعيينها الاّ بالتقريب لانّ مصباح البترول يبقى صالحاً للعمل زمناً غير محدود وشبكة اور تطول مدّة عملها او تنقص تبعاً لنوعها والطوارىء التي تنتابها والمصباح الكهربائي المتوهج يضيء من الف ساعة الى مائتين والف ولكن قوته تتناقص في أثناء ذلك

أمّا قوة الضوء فلابدّ لها من عيار خاص وقد اختار أعضاء المؤتمر الدولي الذي انعقد في ٣ مايو سنة ١٨٨٤ عياراً للضوء سطحاً من البلاتين مساحته سنتيمتر مربّع شديد الحرارة

(١) اللوكس هو مقدار الضوء الساقط عمودياً من مصباح قوته شمعة على سطح يبعد عنه متراً ويطلق عليه تروك اسم « الشمعة متر »

والتوشيح حين انتقاله من السيولة الى الجمودة وسمّوه «عيار ڤيول» ولكن يحول دون استخدام هذا العيار بعض الصعوبات ولهذا استعاضوا عنه بعيارات ثانوية كمصباح كارسل والشموع المختلفة وفي سنة ١٩٢٤ ضبط ايف « عيار ڤيول » بأن جعل انبوباً من البلاتين ذا شق مستطيل للمراقبة يتوهج بتيار كهربائي

اما مصباح كارسل الذي يتخذ عياراً فيجب ان يضاء بزيت الزيتون النقي وان يكون قطر لهبه ٢٣ ملليمتراً ونصف الملليمتر وارتفاعه ٤٠ ملليمتراً وان يبلغ ما يحرق فيه من الزيت ٤٢ غراماً في الساعة

***

وتختلف الشموع المستعملة كعيارات للضوء باختلاف البلدان فالشمعة الانكليزية تصنع من شحم الحوت ويبلغ ارتفاعها ٤٥ ملليمتراً ويحترق من مادتها ٥٦ ر ٨ من الغرام في الساعة والشمعة الالمانية تصنع من البرافين وقطرها ٢٠ ملليمتراً وارتفاع لهبها ٥٠ ملليمتراً اما الشمعة الفرنسية العشرية فتصنع من الستيارين المستخرج من شحم الحيوانات ويجعل ارتفاع لهبها بحيث يحترق من مادتها سبعة غرامات في الساعة وتبلغ قوة ضوئها جزءاً من عشرين من عيار ڤيول

وتقاس قوة المصباح عادة على موازاة سطح يقطع لهبه افقيًّا وعلى بعد متر واحد ولكن اذا قسنا قوة المصباح من جميع الجهات الافقية اي على مدار اللهب ظهر لنا ان هذه القوة ليست واحدة فيها كلها على انه يسهل علينا حينئذٍ ان نحسب متوسط القوة الافقية وهذا المتوسط لا يدلنا ايضاً على متوسط قوة المصباح الحقيقية لان نور هذا المصباح ينتشر في جهات اخرى غير الجهة الافقية يجب حسابها جميعها لاستخراج قوة المصباح الكروية الحقيقية التي تختلف طبعاً عن القوتين السابقتين وهاك جدولاً يبين نسبة عيارات قوة الضوء بعضها الى بعض

—	عيار ڤيول	مصباح كارسل	الشمعة النجمية	الشمعة الانكليزية	الشمعة الالمانية	الشمعة العشرية
عيار ڤيول	١ر٠٠٠	٢ر٠٨٠	١٦ر١٠٠	١٨ر٥٠٠	١٦ر٤٠٠	٢٠ر٠٠٠
مصباح كارسل	٠ر٤٨١	١ر٠٠٠	٧ر٧٥٠	٨ر٩٤٠	٧ر٨٩٠	٩ر٦٣٠
الشمعة النجمية	٠ر٠٦٢	٠ر١٣٠	١ر٠٠٠	١ر١٥٠	١ر٠٢٠	١ر٢٤٠
الشمعة الانكليزية	١ر٠٥٤	٠ر١١٢	٠ر٨٧٠	١ر٠٠٠	٠ر٨٨٦	١ر٠٨٠
الشمعة الالمانية	٠ر٠٦١	٠ر١٢٧	٠ر٩٨٤	١ر١٣٠	١ر٠٠٠	١ر٢٢٠
الشمعة العشرية	٠ر٠٥٠	٠ر١٤٠	٠ر٨٠٥	٠ر٩٢٥	٠ر٨٠٢	١ر٠٠٠

سير الزمان

أركان السلام

هل يمكن أن تتولد

ابراهيم باشا

البرنس سابونجى

أركان السلام

هل يمكن ان تتوطّد ؟

جورج هربرت كينز — انكليزي

« السلام رغبة . والحرب حقيقة »

شبنغلر

اندره موروى — فرنسي

« العالم وطن الاوطان »

دي سرياغا

مسز رونزفلت — اميركية

« المسيحية هي السبيل »

انج ودمنه

الاسقف انج — انكليزي

اوغو دانزيو — ايطالي

« سلّحوا الجامعة »

كينز

هفلوك ايلس — انكليزي

ارنست دمنه — فرنسي اميركي

« يوزنا الاخلاص »

غاندي

اوزفالد شبنغلر — الماني

السيور دي سرياغا — اسباني

« اوربا لا تتعلّم الاّ اذا منيت بنكبة اعظم هولاً من نكبة الحرب الكبرى »

مهاتما غاندي — هندي

لن يو تانغ — صيني

لن يو تانغ

— استفتاء عالمي لمجلة ناسيونال انكليزية —

— ١ —

اوزفالد شبنغلر الفيلسوف الالماني

لا يسع الباحث ان يردّ على هذا السؤال — هل يمكن ان تتوطد اركان السلام العالمي — الاّ اذا كان ملمًّا بتاريخ العالم. ولكن الالمام بتاريخ العالم، يعني، معرفة احوال الانسان، كيف كانت وكيف ينتظر ان تكون. فثمة فرق كبير، بين رأيك في المستقبل وكيف يمكن ان يكون، ورأيك في المستقبل وكيف تشتهي ان يكون

السلام رغبة. والحرب حقيقة واقعة. ولكن التاريخ البشري، لم يحقق رغبات الانسان ومثله العليا. فالحياة، بين الناس والحيوان، معركة. انها بين الناس معركة بين الافراد والطبقات والشعوب والدول، وذلك متوقف على طبيعة الحرب وهل هي تجارية او اجتماعية او سياسية. هي معركة في سبيل القوة، او الربح، او العدل، فاذا خابت الوسائل المختلفة التي يسلكها الانسان الى احد هذه الاغراض، لجأ الى القوة

ومن دلائل الشؤم ان الشعوب البيض هي الشعوب التي تتحدث بالسلام الآن لا الشعوب الملوّنة. فاذا اقتصر هذا الحديث على افراد المفكرين والمثالين، فليس في ذلك ضرر ما. لان هذا كان شأنهم في جميع العصور السابقة. ولكن متى نزعت الامم الى السلام، كان ذلك دليلاً على الضعف والانحطاط. فالشعوب القوية التي لم تغلب عليها النعومة والسقطة، لا تميل هذا الميل ولا تنزع هذا النزع. فالنزوع الى السلام، تسليم للمستقبل، لان النزعة السلمية المثالية، تعني الاستقرار النهائي، وهو حالة مناقضة لمعنى الحياة نفسه

ولا بدّ من الحروب ما زال هناك ارتقاء انساني، لان النزعة السلمية معناها التسليم بادارة شؤون العالم، للذين لا ينزعون الى السلام. ولا بدّ ان يبقى السلام مثالاً اعلى، والحرب حقيقة واقعة. فاذا عزمت الشعوب البيض ان لا تتولى بعد الآن زعامة الحضارة، فالشعوب الملوّنة تحل ذلك، فيصح زعماؤها حكام العالم

— ٢ —

د. د. مندوب اسبانيا في جامعة الامم

السلام العالمي الدائم، كالسلام القومي الدائم، لا هو متعذّر اصلاً ولا ممكن اصلاً، اذا أريد به فترات طويلة من الزمن ليس للعنف فيها شأن كبير في تقرير شؤون الناس والامم

ان بعض الامم الكبيرة ، تمتعت بسلام قومي خلال فترات طويلة من تاريخها. فالولايات المتحدة الاميركية تمتعت بهذا السلام من ايام لنكن. وليس ثمة اي حائل لا يمكن تخطيه ، يحول دون التطوّر الدولي ، نحو حالة من العلاقات بين طائفة من دول العالم، تشبه حالة العلاقات بين الولايات في جمهورية الولايات المتحدة الاميركية. والشروط اللازمة لتحقيق ذلك ، تحتوي عليها الفاظ السؤال نفسه

فالسلام، هو اتفاق بين ارادات متعدّدة. واذن فارادة الدول الستين او نحوها من دول العالم اليوم يجب ان تتفق لكي تفوز بالسلام. ولا يكفي ان تسلّم جميعها ، بقانون دولي واحد ، مع ان هذا التسليم ، امنية تحدى اليها الركائب

ان إتفاق لارادات يقتضي شيئاً اكثر من الاتفاق في اساليب السلوك . انهُ يقتضي اتفاقاً في الاغراض . ولكن كلُّ امة من الامم تجعل اغراضها القومية ، هي الاغراض العليا التي تأتمُّ بها

فالسلام لا بدَّ ان يبقى متعذراً ، الى ان تتخلّى الامم عن هذه الاغراض الخاصة في سبيل الغرض الوحيد الجدير بتضافر الارادات القومية في سبيله — وهو تنظيم العالم تنظيماً معقولاً يجعله مثوى جديراً بالانسان

ان الوطنية القومية مهّدت السبيل للسلام القومي ، في الامم . وليس هناك من سبيل الى السلام العالمي ، الاَّ بتعزيز الوطنية العالمية . ولكن الوطنية العالمية ، لا تدرك باضعاف الوطنية القومية واخمادها ، بل بتطهيرها والتسامي بها

العالم هو وطن الاوطان . ومتى ادركنا هذا اصبح السلام العالمي مستطاعاً

— ٣ —

جون مينارد كينز الاقتصادي البريطاني الكبير

ان توطيد اركان السلام العالمي يقتضي امرين : الاول ان تتضافر جميع الامم التي ترغب رغبة اكيدة في المحافظة عليه . والثاني يجب ان يظهر تضافرها في مظهر قويّ يجعل خطر محاربتها خطراً حقيقيًّا لا يتعرض له الاَّ احمق او مغامر

اما الاركان التي نهضت عليها جامعة الامم حتى الآن ، فكانت تقوم على فرض خاطئ، وهو ان جميع الامم ترغب في السلام والعدل على السواء . لذلك كان مرماها منذ نشأتها ان تضم في نطاقها جميع الامم ، لا الامم الراغبة رغبة حقيقية فيهما فقط . وقد كانت الامم حتى عهد قريب تتظاهر برغبتها في السلام . ولكن هناك امم الآن لا تكتم رغبتها في الحرب . وهذا يبعث على تطور جامعة الامم تطوراً

قد يجعلها في النهاية مشتملة على الامم الراغبة في السلام دون غيرها . وهذا التطور مما يرحَّب به ، وسوف يكون مصدراً للقوة لا باعثاً على الضعف

من العبث ان نبحث في نزع السلاح الآن . بل على الضد من ذلك يجب على جامعة الامم ان تكون اقوى مما هي من الناحيتين العسكرية والاقتصادية ، بل يجب ان تكون اقوى من الدول المعتدية او التي يحتمل ان تعتدي على غيرها ، اذا كان ذلك مستطاعاً . الاَّ ان هذا ، لسوء الحظ ، حلم بعيد التحقيق . لان جامعة تشتمل على الامم الراغبة في السلام تبقى ضعيفة لا حول لها ولا طول ، اذا لم تضم الولايات المتحدة الاميركية

وقد قيل لنا أن هذا محال لان الولايات المتحدة الاميركية تخشى ان تشتبك في شؤون الدول الاخرى وان تربط مصيرها بمصير سائر العالم بل بمصير الحضارة

— ٤ —

مهاتما غاندي الزعيم الهندي العظيم

اذا انكرنا إمكان السلام الدائم ، فكأنا تنكر شعلة الالوهة في طبيعة الانسان . وقد اخفقت الوسائل والاساليب التي استعملت لتحقيق هذا السلام ، لان الذين سعوا اليه كان يعوزهم الاخلاص ، من دون ان يدركوا ذلك . فالسلام لا يمكن ان يتحقق بتوافر بعض الاحوال اللازمة لتحقيقه فقط لانهُ كالتفاعل الكيماوي لا يتمُّ الاَّ اذا كانت جميع الاحوال اللازمة لهُ متوافرة . فاذا تخلَّى زعماء الامم الذين يسيطرون على آلات التدمير ، عن هذه الآلات وهم يدركون نتائج عملهم ، تحقق السلام العالمي الدائم . وهذا مستحيل ما لم تتخلَّ الدول الكبرى عن مشروعاتها الامبريالستية . وهذا بدوره مستحيل ، ما لم تمتنع الامم الكبرى عن الاعتقاد في المنافسة التي تقتل الروح ، بل علينا ان نستأصل الرغبة في زيادة حاجات الانسان ، وما ينجم عن ذلك من زيادة مقتنياته الدنيوية

واني اعتقد ان اصل الشر هو حاجتنا الى ايمان حيٍّ بالله . ومن مآسي الحياة ان الامم التي تدعي انها تؤمن برسالة السيد المسيح وتدعوهُ رسول السلام ، لا تعرب عن شيء من ذلك الايمان في اعمالها

لقد تعلمت من حداثتي ، ثم حققت ذلك بالتجربة والاختبار ، بأن اخسَّ الناس يستطيع ان يتعود الفضائل الانسانية الرئيسية . وهذه القوة ، التي لا شكَّ فيها ، هي ما يميّز الانسان عن سائر مخلوقات الله . ولو ان دولة واحدة

من الدول الكبرى ، اقدمت على عمل الانكار العظيم ، لا تتبع بعضنا ان يرى السلام مستتبًّا على الارض

— ٥ —

انور مورو الكاتب الفرنسي المشهور

ليس ثمة شيء مستقرٌّ او كامل في حياة الانسان وشؤونه . فالمحاكم والسجون والعقوبات ، لم تستأصل شأفة الجرائم ، ولكنها جعلتها اقلَّ مما كانت فصار في وسع المرء ان يعيش في سلام الى حدّ ما . الاَّ ان الحرب الحديثة ، والاسلحة الفتَّاكة التي تستعمل فيها ، سوف تصبح خطراً مخيفاً على الحضارة ، حتى ليجب على جميع الناس ان يبذلوا كلَّ ما في وسعهم لتنفيذ القانون الدولي ، اذا شاءوا ان لا يقضي على النوع الانساني بالانقراض

ولو ان جامعة الامم ، فازت بتأييد كلّ التأييد من جميع الامم المتحضرة ، لكان في وسعها ان تصبح اداة هذا العدل الدولي . ولكن الجامعة لم يتح لها امل النجاح في فترة ما من حياتها . فتخلُّف الولايات المتحدة الاميركية عن الاشتراك فيها ، حرمها من تأييد احدى القوات الكبرى في العالم . وانكلترا بعد ان اضعفتها مدى خمس عشرة سنة ، هبَّت الى تأييدها وتعزيزها بنشاط عظيم ، في وقت ترى فيه فرنسا انهُ من المتعذر عليها ، ان تحس لها حماسة انكلترا الآن

لقد أدركنا بعد التجربة ، ان عهد الجامعة كان تنوزه الدقة . فأين نجد العلاج ؟ لا بدَّ من اصلاح الجامعة اصلاحاً يمكن الولايات المتحدة الاميركية من الاشتراك فيها واذا تعذر ذلك وجب انشاء اتحاد اوربي

واني لأخشى ، ان يكون الانسان ، ما يزال في حاجة الى عبر شديدة ، قبل ان يبلغ مستوى الحكمة التي تفرض على الامم قبول النظام الذي تفرضهُ محاكم العدل على الافراد

— ٦ —

الاستاذ اج وللس مفكر ديمقراطي انكليزي

لو اننا تذكرنا كلمات هربرت سپنسر بانهُ لا توجد كيمياء سياسية تمكننا من استخراج السلوك الذهبي من الغرائز الرصاصية (اشارة الى تعذّر تحويل الرصاص الى ذهب في علم الكيمياء) لوفرنا على انفسنا شيئاً كثيراً من خيبة الآمال من سنة ١٩١٨ الى الآن . ان انقاذ الافراد والامم يتمُّ بحسن النية ، لا بأي وسيلة سياسية

ان الادلة التي يبسطها السير نورمن انجل وغيره ضدَّ الحرب ، لا يمكن ان تدحض . فالحرب بين امتين متحضرتين خطأٌ وجريمة . والحرب الكبرى ، كانت حرباً اهلية ، بين امم تشترك في ثقافة واحدة ، وليس بينها فوارق لا يمكن تسويتها . فكانت نكبةً على جميع الامم التي خاضت غمارها . فعود الى حرب من قبيلها ، قد يزجُّ اوربا في عصر من الظلمة كالعصر الذي اعترض ارتقاء الحضارة بين سنة ٥٠٠ م وسنة ١١٠٠ م

واسباب هذا الداء — لانا لا نستطيع ان نطلق عليه اسماً آخر — هي كما يلي :

١ — النزعة الفطرية في الانسان الى الخصام والكفاح . فقد انتضت على الانسان الوف من السنين وهو لاحم carnivorous يسير على قدمين . فليس بالهين القضاء على القرد والبر فيه

٢ — الخوف — والخوف في كثير من الاحيان لهُ ما يسوِّغهُ

٣ — بقاء الرغبة القديمة في التوسع الجغرافي

اما بواعث الامل فهي كما يلي :

١ — اتساع نطاق المعرفة باحوال البلدان الاخرى وثقافتها . فليس ثمة انكليزي ، زار فرنسا او المانيا او ايطاليا او اميركا ، يرغب في ان يؤذي سكان هذه البلدان ، ونرجو ان لا يجدنا زوّار انكلترا شعباً يستحقُّ ان يؤذى

٢ — جرت العادة في الغالب على ان يشهر الحرب ، من يخشى ان يخسر شيئاً . ولكن اذا نشبت حرب اخرى ، فلا ريب في ان من يملك شيئاً سوف يخسره غالباً كان ام مغلوباً

٣ — الحرب بين الامم خطأٌ في فهمنا لتسلسل الحوادث . ويا ليتني استطيع ان اقنع نفسي بأن الحرب بين الامم لا تليها حرب طاحنة بين الطبقات

ولا ريب في ان الديانة المسيحية تملك علاجاً لكل هذا . إلاَّ انهُ انتضت الفا سنة على معرفتنا الديانة المسيحية ولكننا لم نجرِّب علاجها

— ٧ —

أرغو دانزيو رئيس العمد الايطالية في اميركا

يصبح السلام العالمي في حيِّز المستطاع ، متى ادركت الانسانية انها في رغبتها في نشر السلام والخير الاجتماعي العام ، حاولت ان تمنع النزاع المسلح بين الامم بمعالجته من غير الناحية التي يجب ان تعالجهُ منها

ان خطط دعاة السلام ، ترمي في الغالب الى السيطرة على القوى العسكرية ، اعتقاداً منهم ان الشعوب الشاكية السلاح ، لا بدَّ لها من استعمال سلاحها عاجلاً او آجلاً ضدَّ جارها .

ثم ان العلاقات السياسية الدولية ، قامت حتى الآن على قاعدة تعزيز قوة الامم ازائية في السلام ، لكي تروع الامم التي تحسُّ ضرورة استعمال السلاح للفوز بما لا تفوز به بالاساليب السلمية . اي ان هذه القاعدة تقرّر مبدأ خطيراً وهو أن هناك امماً تشعر بحاجة ماسة الى الخروج على السلام حالة انهُ لم يبذل اي سعي لازالة تلك الحاجة

ان الحروب العسكرية ، قد صدر عليها الحكم الادبيُّ الدولي ولكن الحروب الاقتصادية — والتاريخ يعلمنا انها الباعث الرئيسي على العنف الدولي — هي ما تحالف الامم في سبيله وتتنابذ . فاذا كان السلم الاقتصادي هو هدف دعاة السلام النظريين لم يكن من الضروري ان تتفق الامم على تحديد القوى الحربية ، لكل دولة من الدول ، لانك في الجماعة المستقرَّة المتمتعة برخاء العيش لا تحتاج الى تعيين عدد المدمّرات التي يحق لكل فرد ان يحملها

— ٨ —

مفلرك انيس الفيلسوف والاجتماعي الانكليزي

اني لا اشك مطلقاً في أن السلام العالمي الدائم مستطاع ، وانه يتحقق متى وجدت المشيئة التي ترغب فيه . فليس ثمة حرب بين الحيوانات القريبة من الانسان ، وليس هناك دليل على وجود الحرب في تاريخ الانسان البدائي

وقد تكون الحرب ، ناحية من نواحي التقدم الانساني ، كانت في الماضي مفيدة ، في تعزيز روح النظام الاجتماعي ، والتعاون ، ولكنها اليوم ، في رأي معظم الشعوب ، اصبحت ولا ضرورة لها ، بل اصبحت وهي مبعث ضرر عظيم

حتى الدولة المنتصرة في الحرب ، قلما تفوز بضمان السلامة ، التي في سبيلها خاضت معمعة الكفاح

ان تضافر الامم الكبرى ، على السعي لتوطيد السلام ، سواء تمَّ ذلك السعي بواسطة جامعة الامم او بأية واسطة اخرى ، يكفي لاحلال التحكيم محل الحرب

واذن فالواجب يقضي علينا ، ان نوضح للناس ، بوسائل التعليم المختلفة ، ما تجلبهُ الحرب على الحضارة من الضرر ، وان نبذل ما في وسعنا بصفة كوننا ابناء البلدان الدمقراطية من الضغط على حكوماتنا لالغاء الحرب

— ٩ —

الاب ارنست دنته مؤلف قلبي ابيرك

أمن المعقول ان نتكلم عن السلام الدائم وهل يمكن ان توطد اركانهُ في هذه الايام القلقة المضطربة ؟ لا ريب عندي في ذلك . فليس يصد الى التشاؤم بعد مراجعة المشكلات الدولية ، الا من كان الانقسام في طبيعته غالباً على العقل. والادلة التي يستندون اليها — اي تعذر تحويل الناس الى ملائكة ، والصعوبة في التوفيق بين البلدان والسكان ، وبواعث الطمع والغيرة التي لا يمكن استئصالها ، وطغيان الحكومات الدكتاتورية ، ولين الحكومات الدمقراطية — كانت ولا تزال حججهم في قديم الزمان وحديثهِ

فليستندوا اليها ما شاؤوا اذ ليس ثمة ريب ، في ان جميع الامم ، كانت تعتقد من خمس عشرة سنة ، في امكان توطيد السلام . وليس ثمة ريب ، في ان ملايين من الرجال والنساء — زهرة الناس في معظم البلدان — لا يزالون على هذا الاعتقاد

وكل باحث في تاريخ الفكر ، يعلم ، ان المعتقدات التي تسود طوائف كبيرة من الناس ، لا بدَّ من ان تتحقق في النهاية . وكلُّ ما علينا ، هو ان نزيد عدد هؤلاء المؤمنين بامكان السلام ، كما زاد عدد المؤمنين بالسلم ، وبالله

لم يأت عصر على العالم ، كان فيهِ الاعتقاد في عدم ضرورة الحرب ، اقوى مما هو الآن . وما نحتاج اليهِ ، انما هو الحكمة ، وضبط النفس ، والقدرة على الفهم ، التي يجب ان تصحب هذا الايمان

فماذا يحول دون هذه السجايا ؟

لماذا لا نبشّر بالمسيحية كما يجب ان تكون ، او كما هي حقيقة ؟ واذا بشّرنا بها ، فما يحول دون نجاحها في هذا الصدد ، كما نجحت في ما لا يقلُّ عن هذه المشكلة عسراً وتعقيداً ؟

— ١٠ —

المستر فرنكلن روزفلت رئيس الولايات المتحدة

ان السلام الدائم مستطاع . ولكنهُ لا يصبح محتملاً ، الاَّ اذا ادركت امم العالم ، بأن حفظ الذات يقتضي التنظيم في سبيل السلام لا في سبيل الحرب

لا يسعنا ان نتوقع عقد معاهدات راسخة على الدهر . فلا بدَّ من ان نجد اساساً ، يمكن ممثلي الامم من الاجتماع والبحث في هدوء وسكون ، وجوه التحوُّل الطارئة على العالم ، والحاجات الجديدة الناشئة عنها

من الواضح ان الشعوب تتغير والاحوال الاقتصادية تختلف فاذا ادركنا ان الخير المطلق ، مفضَّل على الخير الوقتي الذي قد تجنيه دولة من الدول او فرد من الافراد ، أمكننا ان نلتقي ونبحث في المشكلات الناشئة ، وتسويتها ، تسوية معقولة

— ١١ —

ان بونانح مؤلف وفيلسوف صيني

ان السلام الدائم متعذر الآن في أوربا للاسباب التالية : —

١ — انا نبيع ونشتري دوليين وفكر وشعر وطنيين

٢ — انا مخلوقات نصفها عقل ونصفها شعور . وسير الشؤون الانسانية خاضع للشهوات الحيوانية من خوف وحقد ورغبة في الثأر اكثر من خضوعه لاحكام العقل . وما زال ستالين وهتلر وموسوليني يحكمون اوربا فالراجح ان الحرب لا تزول

٣ — ان جميع المؤتمرات الدولية تُمنى بالخيبة لان المندوبين يمثلون مصالح بلدانهم المختلفة ، وليس ثمة سياسي عالمي ، يمثل مصالح اوربا المشتركة

٤ — الفاشستية تعيش على امل الحرب ، ولا بدَّ من ان تفي بما تعد

ولا يصح السلام الدائم ممكناً الاَّ : —

١ — متى قرأ جميع الاوربيين لاوتسو واخذوا بقسط من الحكمة والاستهتار Cynicism (ولا ينقذ العالم الاَّ المستهترون)

٢ — متى ساد الفساد والارتكاب الادبي ، واصبح الضباط يحسبون الفرار فضيلة عليا . فاوربا لا تعلمُ الاَّ اذا منيت بنكبة اعظم جداً من نكبة الحرب الكبرى

٣ — متى اصبح للمفكرين نصيب اوفر من التأثير في سياسة الامم والشعث وراءهم إخوة للاوربيين الصالحين الذين يضعون المثل فوق الوطن

ابراهيم باشا[1]

تأليف القاضي بيير كرابيتس

للقاضي كرابيتس يد على التاريخ المصري الحديث تذكر فتشكر . فقد نحضا في سنوات قلائل بأربعة كتب وهي كتاب غوردون فكتاب اسماعيل فكتاب فتح السودان وهذا رابعها في تاريخ البطل المغوار والسياسي المحنك ابراهيم باشا

كانت الصورة الغالبة على الاذهان ان ابراهيم باشا على شهرته في فنون القيادة الحربية وانتصاراته الباهرة في ميادين القتال لم يكن إلاَّ سيفاً في يد أبيه العظيم محمد علي باشا . ولكن اذا أتممت مطالعة هذا الكتاب خرجت منهُ وقد ارتسمت في ذهنك صورة واضحة لشخصية فذة هي شخصية ابراهيم باشا التي جمعت ما قلما يجتمع في خلق فرد من الناس — براعةً في فنون الحرب واقداماً في ميادينها ودهاء وحنكة في السياسة ومقدرة نادرة في التنظيم والادارة . وقد كان ابراهيم باشا في جميع ذلك صاحب رأي قويم اثبتت التجارب والحوادث صحته وسداده بيديه في غير وجل ولا تردد ولكنهُ كان اذا اختلف رأيهُ عن رأي ابيه يطلب رأي الوالد حبًّا به وبرًّا واذعاناً لهُ واحتراماً

وليست هذه الصورة الجديدة لابراهيم باشا من بنات الخيال الروائي بل هي نتيجة بحث وتنقيب في معظم ما ألف وما كتب عن تلك الحقبة من تاريخ الشرق الادنى من كتب طبعت ونشرت ومذكرات رسمية ورسائل أذيع بعضها في هذه الكتب وظلَّ البعض الآخر مطويًّا في سجلات الوزارات الاوربية او في محفوظات قصر عابدين

والقاضي كرابيتس مدين في الاطلاع على معظم ما لم ينشر من هذه الوثائق لسخاء جلالة الملك فؤاد وبُعد نظره . فقد اباح لهُ جلالته الاطلاع على سجلات عابدين واذن من جيبه الملكي الخاص على نقل الوثائق المحفوظة في سجلات الوزارات الاوربية المختلفة . لذلك جعل المؤلف دباجته شكراً خاصًّا رفعه الى مقام جلالة الملك فؤاد

من المسائل التي اختلف فيها الرأي في تاريخ ابراهيم باشا مسألة نسبه وقد ذهب غير واحد من الكتَّاب الى ان ابراهيم لم يكن ابن محمد علي . ولكن القاضي كرابيتس اثبت في الفصل الاول من هذا الكتاب اثباتاً قاطعاً ان ابراهيم كان ابن محمد علي وهذا الاثبات مستنبط من فهم دقيق لاحوال ذلك العصر من ناحية وقائم على وثائق لا يتطرق اليها الشك من ناحية اخرى . وبعض

---

(١) Ibrahim of Egypt, by Pierre Crabitès (Routledge London)

هذه الوثائق من سجلات قصر عابدين التي لم تنشر بعد . فظهور بعضها هنا من الخدمات الكبيرة التي اداها المؤلف لنهم حقبة من التاريخ هي من اكثر حقب القرن التاسع عشر غموضاً وإبهاماً

ليس في وسعنا هنا ان نتتبع شخصية ابراهيم وقد اخذت تتفتح عن ازاهير العبقرية منذ ما قدم مصر وتولى فيها عمل الدفتر دار وهو عمل اداري كبير الشأن الى ان تولى قيادة الحملة المصرية في الجزيرة واخضاع الوهابيين وكيف تجلت حنكته السياسية ومقدرته الادارية في معاملة خصومه واتباعهم

ولكن الحقبة التالية من حياته كانت ذات شأن كبير في تاريخ الشرق الادنى واوربا معاً . ففي خلالها حدثت حرب الاستقلال اليونانية ومعركة ناڤارين البحرية . وقد وقف المؤلف نحو ربع كتابه عليها .. فقد عهد الى ابراهيم من قبل السلطان عن طريق والده محمد علي في ان يخضع الثوار في اليونان . وما كاد يشرف على تحقيق هذه المهمة حتى تألبت دول اوربا بدواعث سياسية ودبلوماسية مختلفة وتدخلت في الامر مؤيدة حق اليونان في الاستقلال . هذا التدخل افضى الى معركة ناڤارين بين اساطيل الدول الاوربية والاسطول المصري

ولعل الخدمة الكبرى التي اداها كرابيتس لفهم عصر ابراهيم باشا قائمة على توضيحه مقدمات معركة ناڤارين وحوادثها وبواعثها

فقد قرأ الوثائق الرسمية قراءة صبر وفهم وخرج منها برأي جديد يوضح الموضوع ويضعه في نصابه الطبيعي

***

اثبت القاضي كرابيتس ان محمد علي باشا وابراهيم باشا كانا يدركان قيمة الاسطول وفائدة السيطرة على مسالك البحار . وفي فصل آخر من فصول الكتاب تنقل المؤلف قطعة من رسالة كتبها ابراهيم باشا وهو في الاناضول تبين ادراكه هذا وتوضحه فانه طالب وقتها ان تضم كيليكية والاناضول الى مصر لان مصر تحتاج الى خشب حراجها في بناء الاسطول

فرجل يدرك هذا الادراك قيمة القوة البحرية لا يعقل منهُ ان يعرض اسطوله للدمار تزلفاً ، في معركة مع الاساطيل المجتمعة لدول اوربا البحرية . ثم ان الوثائق التي اعتمد عليها المؤلف هي لممثلي دول اوربا في مصر تثبت ان محمد علي كان مستعداً ان يخسر بعض سفنه اذا تظاهرت الدول الاوربية بقوتها البحرية أمام الاسكندرية لكي يثبت للسلطان انهُ مستعد لنجدته بأسطوله في المورة لولا الدول الاوربية التي حالت دون ذلك

يضاف إلى هذا انهُ لما دارت معركة ناڤارين كان ابراهيم باشا على البر في المورة يحاول ان يرد العصاة ومن يؤيدهم من متطوعة الافرنج . وتاريخ ابراهيم العسكري بجملته وتفصيله لا يحمل

احداً على الظن بأنهُ يثير معركة تعرض اسطوله للتدمير ثم لا يحضرها أو يديرها بنفسه

هذه الحقائق وغيرها تبين ان محمد علي وابراهيم ما كانا ليقدما على مناجزة العدو في ناڤارين تهجماً واذن فلا بدَّ من البحث عن سبب آخر لتفسير ما وقع

يرى القاضي كرابيتس ان السبب المعقول هو سوء تفاهم وقع بين ابراهيم باشا واميرال الاساطيل المتحدة . فالهدنة التي تمَّ الاتفاق عليها حسبما ابراهيم باشا شاملة لحركة الامدادات التي تأتيه من الاسكندرية فقط كما حسب ان ما طلبه من الاميرال وهو الحد من عمل اللورد كوكران الانكليزي في مساعدة الثوار اليونان كان من شروطه التي تم الاتفاق عليها . فلما هبط اللورد كوكران على باترابس ارسل ابراهيم باشا بعض سفنه لمقاومته فحسب ذلك منهُ انتهاكاً لكلمته وخرقاً لاتفاق الهدنة فكانت ناڤارين

بعد معركة ناڤارين حاول الفرنسويون اغراء ابراهيم باشا بمساعدتهم في اخضاع الجزائر وكان حينئذٍ منصرفاً الى تنظيم الشؤون الادارية والزراعية فدارت مفاوضات في هذا الصدد ثم قلبت ان حبطت لان سوريا كانت كانها تناديه

اما قصة غزوات ابرهيم باشا من جنوب سوريا الى ان وصل الى ابواب استانبول فأخَّاذة بما يتجلى فيها من صلابة المشيئة ومهارة في الفنون الحربية وادراك القواعد الاساسية التي تقوم عليها سياسة البلدان . وقد قال ملحق التيمس الخاص بالكتب في هذه الناحية من كتاب القاضي كرابيتس ان ما بسطهُ فيها من الناحية العسكرية جدير بعناية المؤرخ الحربي . ولكن الظفر الحربي تلاه التأليب والتفرق والدس من الناحية السياسية بين دول اوربا وليس في هذا الحديث ما يشرِّفها او يشرِّف معظم رجالها الذين خاضوا هذا الميدان . ليست هذه العبارة من كلام القاضي كرابيتس وانما هي ما توصل اليهِ كاتب هذه السطور من قراءة فصول الكتاب الخاصة بهذه الوقائع وهي حافلة بالوثائق والمكاتبات الرسمية

***

هذه بعض ما امتاز بهِ كتاب « ابراهيم باشا » ولو ان الدفاع عن بعض نواحٍ من حياة ابراهيم باشا كان ارفق تناولاً لما ظنَّ بعض الكتَّاب ان القاضي كرابيتس يحاول ان « يبيِّض » ابراهيم. ومما سرنا انهُ اشار غير مرة في اسانيده الى كتاب « الامبراطورية المصرية » الذي وضعهُ الدكتور محمد صبري بالتاء الجدير بهِ . ولو كان القاضي يعرف العربية لكان في الغالب رأى ما يستند اليهِ في كتاب الاستاذ عبد الرحمن بك الرافعي في اجزائهِ المختلفة وفي كتاب المرحوم سليمان بك ابو عز الدين وقد وقفه على « ابراهيم باشا في سوريا » على ما نذكر

البرنس سايونجي

صلة بين الاجداد والحفدة

لو كان رجال السياسة في اليابان قد تعوّدوا كتابة المذكرات اليومية ، لكان سياسيهم الاكبر ، البرنس كيموكي سايونجي ، اخرج للناس مجموعة فريدة في بابها ، بما تحتويه من ألوان الحياة ونواحي الاختبار الانساني . انهُ جمع في حياة رجل فرد عصر الاقطاع في اليابان وعصر التمدن الحديث

تقلد منصب رئيس الوزارة ثلاثاً ، ووقّع مع كلنصو وولسن ولويد جورج معاهدة فرساي. نعم ان طائفة كبيرة من رجال السياسة المعاصرين اشتركوا في توقيع معاهدة فرساي ، ولكن سايونجي كان يستطيع ، وهو جالس معهم في ردهة المرايا في قصر فرساي ، ان يطوي بخياله نصف قرن من الزمان ، الى العهد الذي لبس فيه الباس العسكري الملوّن الخاص بمقامه العالي ، وتقدم فرقة من جنود الاشراف ، لاخضاع القبائل اليابانية الثائرة على امبراطوره

كان فتح المناطق واخضاع القبائل في سبيل امبراطوره ، مقدمة لحياة حافلة بألوان الخدمة العامة ، وضروب الثقافة العالية . كان ذلك العصر في اليابان عصر الشباب . اذ كانت المناصب العالية في الحكومة والجيش والحياة الاقتصادية حافلة بهم . وكان سايونجي متحلياً بجميع الصفات التي تدفع بالشاب الطموح الى طريق النجاح . كان مقرّباً من الدوائر التي تحيط بالامبراطور واليها يرجع الفضل في استتباب سلطته من الضياع . وكان ذكيًّا متوقد الذكاء . وكان شريفاً تجري في عروقه أنقى الدماء . وكان دمقراطي الطبع ، عجيباً في مقدرته على مؤاخاة رجال القبائل ، ورجال السياسة على السواء . وكان يعرف ادب اليابان والصين الكلاسيكي ، كما يعرف الانكليز المثقفون شكسبير . في امكانه نظم مقطع من الشعر ، او رواية أبيات توافق المقام . وكان يؤيد جمعية الشعراء ، اذ كان الشعراء في اليابان المنطلقة الى التمدن الحديث ، لا يشغلون من المقام الاجتماعي المرتبة الاولى . ففي المآدب التي كان سايونجي يقيمها ، كان الشعراء يتفلتون من القيود الاجتماعية . ويروي الاميرال سايتو ، رئيس الوزارة اليابانية السابق وأحد صرعى الفتنة الاخيرة ، ان الادباء عبُّوا من الخمر في احدى هذه المآدب كالحيتان

على أن سايونجي لم يشتهر اسمهُ في الغرب ، الاّ في السنوات الاخيرة ، إذ أصبح سياسي اليابان الاكبر . ولقب « السياسي الاكبر » لا يسند فقط الى سياسي بلغ من العمر عتيًّا . بل

ان الامبراطور ، يمنح بعض الساسة والقواد عند التقاعد من خدمة مصالح الدولة لقب السياسي الاكبر Elder Statesman يقتضي ارادة امبراطورية يؤمر فيها الرجل المقي في تقديم النصح للامبراطورية . وقد وردت الانباء الاخيرة بأن الامبراطور بعث يستشيره في الحوادث الاخيرة مع ان العسكريين حاولوا اغتياله لانه من احرار النزعة

وقد عين سايونجي في المنصب الذي عودته من مؤتمر النصح سنة ١٩٢٠ . كان الساسة الكبار الذي أخلصوا النصح للامبراطور ، قد مضوا في سبيل كل حي . وكانت الحكومة البرلمانية قد انشئت ، وسلطة رئيس الوزراء قد عظمت واتسع نطاقها . ولو لم يكن سايونجي ، سياسيًّا برلمانيًّا يعرف اساليب النظم البرلمانية ، ومرن العقل حر المبادىء ، لكان الاحتكاك والتصادم بين رئيس الوزراء ومستشار الامبراطور الاكبر امراً لا بدَّ منهُ . وكان الساسة الكبار من قبله غالباً ما يتوسطون بين الوزارة والجيش ، او يقولون في المأزق الكلمة الفاصلة فيما يتعلق بسياسة الحكومة ، ولكن سايونجي نفسه رأى لما أنعم عليه بالثقب الجديد ، أن هذه الاعمال من شأن الحكومة لا من شأن المستشار الامبراطوري

لذلك اصبح المنصب الجديد في أيامه ، عبارة عن كون « السياسي الكبير » مستشار الامبراطور الأعلى فيما يتعلق بتقلب الوزارات . وهذا عمل لا بدَّ منهُ لان على عاتق الامبراطور وقع تبعة تعيين رئيس الوزراء ، وهو بحكم منصبه ، لا يستطيع أن يكون محيطاً بالدقائق والتفاصيل متصلاً بجميع نواحي الرأي العام والشعور القومي ، بل قد لا تكون لهُ الخبرة الوافية التي تمكنهُ من اختيار أصلح رجل للحال

فسايونجي ، هو عينا الامبراطور واذناه وارادته ، اذ تتطلب الحالة في اليابان تعيين وزارة جديدة . جميع زعماء الامة العاملين يهرعون الى داره . فالوزراء الذين يساورهم القلق على المستقبل يسرعون الى داره المطمئنة الساكنة ، فيبرغوره . ويتبعهم زعماء المعارضة . فاذا ذهب ماتسوكا الى لندن ، أو ايشي الى وشنطن ، أقبلا عليه قبل السفر ، ينتظران منهُ التعليمات الاخيرة

انهُ يجلس ساكناً كالجبل لا تهزه الرياح . ان شيخوخته قد حررته من نوازع الشهرة والثروة وشهوة السلطان ، فيصغي اليهم جميعاً

يصغي اليهم ، ولكن يقال انهُ قلما يقول شيئاً . انهُ يحتفظ بمشورته لسيده الامبراطوري والامبراطور مترفع فوق كل النزاعات

وقد وقع على عاتق سايونجي منذ تقلد منصب المستشار الاكبر للامبراطورية أن يشير على امبراطور بتعيين اربعة عشر رئيساً مختلفاً للوزارة . من هؤلاء كان ثمانية زعماء حزبيين وستة من رجال السياسة غير المنتمين لحزب ما . وكان سايونجي في الغالب يميل الى تعيين زعيم حزبي اذا كان

الجو راتقاً والميدان خلواً من العقبات الكبيرة . والراجح انه كان يحاول أن يضع في ذلك تقليداً شبيهاً بالتقليد الانكليزي ، وهو الانتقال من وزارة الى وزارة ، انتقالاً سهلاً طبيعيًّا يكاد يكون من تلقاء ذاته انتقالاً من زعيم أكثرية أمس الى زعيم أكثرية اليوم

ان الحياة النيابية لا تزال في اليابان غير بالغة كمال النضج والرسوخ ؛ وقد يكون ثمة ميل الى تحويل الحكومة من شكلها النيابي الى ما يعرف بحكومات « القوة » أي الدكتاتورية العسكرية. ولكن سايونجي قد أفسح المجال للحكم البرلماني ، حتى يقيم الحجة بانه صالح للبقاء . انه يؤمن به. وسايونجي الآن في السادسة والثمانين من عمره ، انفق العشرين السنة الاولى في بلاط تيوتو ، فاذا هو في نهايتها يفقد الرمح ويتطلع الجواد ، ويحارب في سبيل الامبراطور ، ثم قضى عشر سنوات في فرنسا يتثقف فعشر سنوات من اللهو والمرح كموظف شاب . ثم عشرين سنة في اعلى المناصب الادارية والسياسية في البلاد ، وها هو اليوم وقد مضى عليه ١٥ سنة ، في حياة هادئة صافية يستعمل في سبيل امبراطوره وبلاده الحكمة التي استقطرها من عبر الحياة

ولد سنة ١٨٤٩ وكان اصغر ابناء بيت « طوكودايجي » وهو من أبهل اسر الاشراف في البلاط الامبراطوري واتفق ان بيت سايونجي النبيل ، وهو من مقام بيت «طوكودايجي» كان في حاجة الى وريث حينئذ ، فاتخذ الفتى كيموكي ، موضوع كلامنا ، وريثاً بمقتضى العرف الياباني والشريعة اليابانية . ويرتد تاريخ الاسرة ، التي اصبح الفتى وريثها وزعيمها بعدئذ الى اواخر القرن الثامن الميلادي

ورث من اسلافه مرح الطبع وحب الجمال ، وترعرع في وسط يتغذى بهاتين الناحيتين من حياة اللسان ولو عاش في العصر الذهبي الياباني لكان من صميم ابنائه ، كان يستطيع ان ينظم قصيدة ، او يسرق خطاه عند الفجر ورد نه على وجهه ، من مخدع غانية من غواني البلاط

عين أميناً للامبراطور وهو في السادسة . وهو تعيين اسمي ولكن هذا التعيين كان صلته بدوائر البلاط الداخلية . اذ كانت الحياة الجديدة تدب في عروق اليابان ، وقد أخذ تراخيها الناشيء عن الطمأنينة وحب الجمال والطبيعة يستبدل به نشاط عجيب فيه كل حوافز الحياة العصرية. فتاريخه انما هو جامع لادوار تاريخ اليابان الحديثة !

وبعد ما حارب في سبيل الامبراطور في حداثته وأبهل قطع له معاش سنوي قيمته قيمة ١٥٠٠ كيس من الرز . ولما حاولوا أن يقيموه حاكماً على احدى مقاطعات الريف ، رفض ، وفي سنة ١٨٧١ سافر الى فرنسا على اثر حرب السبعين ، وفي طريقه عرج عن وشنطن عاصمة الولايات المتحدة ، وقابل الرئيس غرانت . ويؤخذ من رسالة بعث بها الى احد اصدقائه انه دهش « لديكولته » النساء في البيت الابيض وحرية الاختلاط بين الجنسين وها هو ذا قد

عاش حتى هذا العصر وسمع بأذنيه نواح بعض الكتاب على الفتاة العصرية

عاش في باريس معيشة برهيمية، واشترك مع احد اصدقائه تيوفيل جوتييه في وضع دراما مثلت في الاوديون، ولكنه رفض ان يأخذ حصته من الربح المالي الذي عادت به عليهما . وسأله ذات يوم معلم القانون — وكان اكولاس القانوني المشهور — قال : « لقد طال مكثك في باريس أليس من الضروري ان ترجع الى بلادك وتقوم بنصيبك من الحياة العامة » فرد البرنس الشاب : « ان من يرغب في أن يكون سياسيًّا في بلادي ، لا يستطيع ان يصرح بما يضمر ، عليه ان يكون مرائيًا ، ويكذب احيانًا » فرد عليه الفرنسي : هنيئاً لكم اذا كان رجال السياسة عندكم لايكذبون إلاَّ أحياناً »

ولما عاد سايونجي الى اليابان ، في الثالثة والثلاثين من عمره كان غيتا الخطيب الراديكالي الفرنسي مثله بين الرجال وكان كلمنصو طالب الطب ، الراديكالي كذلك صديقه . فلما كانت مسألة الساعة في اليابان مسألة منح الدستور او عدم منحه ، انشأ سايونجي جريدة جعل اسمها (الأنباء الحرة) وجعل عنوان افتتاحيته الاولى (الحرية الادبية والحرية السياسية)

ولكن رجال الحكومة الجديدة كانوا يرغبون في خدمات سايونجي كواحد منهم لا كناقد لاعمالهم. فأقنعوا الامبراطور بأن يصدر امره إلى سايونجي ليتمتع عن المس بالصحافة فامتثل للامر وتخلى عن صحيفته ، وقبل المنصب الذي عرض عليه ، وما زال يتقلب في المناصب إلى أن بلغ منصب الوزارة . فقد شغل منصب وزير المعارف مرتين ، وأسس على فلسفة التعليم في الوزارة ، ثوب الحرية ، فأدى لبلاده خدمات جلى . ومن جملة المناصب التي شغلها منصب سفير لبلاده في فينا وبرلين ومنصب رئيس للوزارة ثلاث مرات

وقبل ان يعين « سياسيًّا أكبر » تمكن اليابان من تأليف أول وزارة حزبية فيها سعياً وراء إقامة الحياة النيابية على أساس حزبي . وكان رئيس الحزب الذي تقلد الحكم خارجاً من دوائر البلاط والبيروقراطية . فكان في عمله جرأة عظيمة مثل جرأة الزعيم الأكبر المغفور له سعد زغلول باشا إذ عين نجيب افندي الغرابلي وزيراً وكان آخر ما قام به لأمته من الخدمات، أن عين بعد حوادث الاغتيال التي وقعت سنة ١٩٢٣ الاخيرة ، وزارة قومية ، لكي تسير بالامة في العاصفة الثائرة الى بر الامان . وليس ثمة أي تناقض بين العملين . فهو يرمي الى تنشئة الحياة النيابية الحزبية تنشئة قوية ، ولكنهُ يعمد الى التآلف في الايام العصيبة فقط

هذا الرجل العجيب يعيش في الحاضر ، لانهُ اذنا الامبراطور وعيناه وارادته . ولكنهُ ، لا ريب ، يرتد في بعض اللحظات ، الى ايام الحداثة ، ايام الرمح والجواد والعلم المرفوع . انهُ يضم في حياته باليابان القديمة وباليابان الحديثة !

حديقة المقتطف

سعدي

الشاعر الفارسي

لية فرح

سعدي

الشاعر الفارسي

كان للصلة الادبية التي توثقت عراها بين العربية والفارسية في ظل الحرية والتسامح الادبي شأن كبيرٌ في ما ادركتاهُ من سعة وغناء في المادة والشكل والغاية . فالكتابة عن السعدي الشاعر الفارسي الشيرازي تبعث في النفس نواحي من الذكرى والتأمل وتثير الحنين الى عصر النور في حياة الادب العربي والفارسي جميعاً ، بل ان في هذه الكتابة شيئاً من السلوى للذين يحيون أبداً ساخرين هازئين بمظاهر العيش الناعم المترف ، بل لعلَّ في حياة السعديّ ما تستقرُّ بهِ انفاس تتصعد من صدور محترقة لكثير من الادباء تفيء عن شكاية القلوب من هذا العيش المشرَّد الذي يخالونهُ رماداً تخبو تحت ذراتهِ جذوة ذكائهم ويطفىء بهِ مصباح نبوغهم . فقد عاش السعديُّ كما عاشوا ، ولكنهُ ظفر من هذا العيش بالشهرة التي لم يتمتع بها غير نفر يسير من شعراء الشرق وكتَّابهِ الثابتين

وقد اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في تاريخ ميلاد السعدي وتاريخ وفاته ولكنَّ كثيراً منهم يرى انهُ ولد بشيراز سنة ١١٧٥ وتوفي سنة ١٢٩١ م

وكانت شيراز في ذلك العهد من منازه الدنيا التي تفتن الشعراء والادباء وكانت رياضها وعيونها وانهارها معدن الهامهم ووحي خيالهم وقد استهوت بجمالها فيمن استهوت شاعرنا السعدي فافاض عليها من آيات ثنائهِ واعجابهِ ما امتلأت بهِ صفحات ديوانهِ (الكليات) ومؤلفاته الاخرى . ففي ذلك يقول ما ترجمتهُ :

ما اجمل رياض الصبح التي اراه مشرقاً على سر الله شيراز . سأرى مرة اخرى تلك الجنَّة ، جنَّة الارض التي تجود بالاثمار المباركة . لا بالقحط والظلم

وربي لا تألف الظلمات هذا الوطن الذي استقرَّ عليهِ عرش سليمان العظيم

***

نشأ السعدي يتيماً يتجرَّع مرارة اليتم ويحس آلامه وقد لازمهُ هذا الاحساس بعد ان اكتمل شبابه وألحَّ عليهِ فقال قصيدته الرائعة التي يسترحم فيها القلوب

ويستعطفها على ايتامى الذين لم يستشعروا حلاوة العيش في ظل الأبوة الرحيمة

استهل هذه القصيدة بما ترجمتهُ :

ارحم اليتيم الذي مات ابوه ، أقض التراب عن ملابسه ، فانك تعلم انهُ لاحياة للشجرة بعد ان تنقطع اصولها

ثم قال : من يخفف عن اليتيم احزانه اذا فاضت دموعه ، من يسرّي عنهُ اذا اعتاجت نفسه ، آه ! اجتهد ألاَّ يبكي لان عرش الرحمن يهتز لتنهدات اليتيم المحزنة المؤثرة . واختتمها بقوله :

أنا اشارك اليتيم في احزانه لاني قد ذقت في طفولتي يأس اليتيم

مات ابوه وهو طفل فعاش في كنف السلطان سعد بن زنكي سلطان فارس ايام طفولته وشطراً كبيراً من أيام شبابه

ولم ينقل الينا من ترجم السعدي من المؤرخين كيف كان يعيش في ظل هذا السلطان وما كان نصيبه من رفه الحياة وبؤسها . وكل ما وصل الينا انهُ عاش في رعايته زمناً ثم فارقهُ ليستكمل حياته العلمية على شيوخ بغداد الذين كان لهم اكبر أثر في ثقافته وأدبه

والمفهوم مما ذكره المؤرخون ان دراسات السعدي كانت في حياة سعد بن زنكي وان هذا السلطان لم يمت حتى بلغ السعدي ثماني وثلاثين سنة وهو عمر طويل مكن له أن يشبع نهمه من علوم الدين وقواعده واصوله ومن مصطلحات الفنون وادواتها واساليبها ومكن له ايضاً أن يملأ قلبه معرفة بأحوال الصوفية ومذاهبهم ودراساتهم الروحية العالية فقد اتصل في بغداد بكثير من شيوخ العلم ثم انقطع أخيراً إلى شيخين جليلين من اعيان العلماء هما الامام شهاب الدين السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ هـ وكان واحد دهره في الحديث والتفسير والتصوف ، والامام ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ شيخ الوعاظ والعلماء والمصنفين . وقد وقع البستاني هنا في خطإ تاريخي واضح لأنهُ عدَّ من شيوخ السعدي الذين تلقى عليهم علم الباطن الشيخ عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الكيلانية المشهورة في العراق والممالك الشرقية الاسلامية — وذلك غير صحيح لأن الكيلاني توفي سنة ٥٦١ هـ اي قبل ميلاد السعدي بعشرين سنة تقريباً

في وسع الباحث في حياة السعدي ان يدع جانباً حديث المؤرخين عنهُ بعد عهد المدرسة ويترك للسعدي نفسه الحديث عن هذه الحياة المليئة بالعبر والحوادث الجسام. فهو يصوّر لك اصدق تصوير في كتبه ثورة نفسه على النظام الحضري وعلى حياة الاستقرار التي اغرت سكان المدن بالركون الى النعمة والإخلاد الى العيش الرافه اللين ويريك كيف جاب اقطار الارض ورحل في ثياب الدراويش ثلاثين عاماً الى ممالك الاسلام جميعها وكيف كان يتحرّق بنار الشوق خلف القوافل المتّجهة شطر بيت الله الحرام وقد حج اليهِ اربع عشرة مرة يردّد التسابيح ويتغنى بأغاني الشوق ويرتل قصائد العشق الصوفي في الفدافد الرباية والحضرة المحمدية الكريمة وتوجد ويتشوّق على النحو الذي تراه في قصيدته التي يقول فيها

تعذّر صمت الواجدين فصاحوا ومن صاح وجداً ما عليهِ جناحُ
اسروا حديث العشق ما امكن التقى وإن غلب الشوق الشديد فناحوا
سرى طيف من يجلو بطلعتهِ الدجى وسائر ليل المبتلين صباحُ
اصيح اشتياقاً كلما ذكر الحمى وغاية وجد المستهام صياحُ

ويريك ايضاً كيف اسره الصليبيون والقوا بهِ في سجن نابلس يعمل في بناء الحصون ويتصبب عرقه من حمل الصخور وكيف افتداه من هذا الأسر تاجر حلبي وزوّجهُ ابنته فكانت هذه الزوجة على جمالها وثروتها محلة احزانه ومثار آلامهِ وكيف رحل الى الهند ووقف هناك يتفرس في صنم انوثنيين في أحد المعابد فرآهُ الحارس فتنه السعدي خشية أن يخبر عنهُ قومه فيقتلونه

ثم كيف حنّ بعد هذه الغربة الطويلة الى شيراز فعاد اليها وقد قارب السبعين وكيف كانت هذه الرحلات تمتاد عبقريته وملاحظته ومصدر خصبها ونمائها. وهنا يريك كتابه العظيم وديوان اشعاره الجامع «الكليات» كيف بدأ بهذه العودة عهد الاثمار — كيف بدأ الروض المزهر ينفح بالعطر والعقل المخصب يجود بالحكمة والقلب المؤمن يفيض بالعبرة والقلم البليغ يرسل السحر الحلال — كيف بدأ بهذه العودة يدوّن آثاره الادبية واشعاره واقاصيصه فأنشأ كتبه الاربعة الكلستان والبستان وبدائعه ودواوين اشعاره

وتدلنا قصيدته العظيمة التي وصف بها نكبة بغداد وبكى بها مجد العرب وبيت الخلافة انهُ قد رحل مرة اخرى الى هذه المدينة وما جاورها كواسط وعبادان حين سقطت في ايدي التتار وشاهد طولها وخرابها بعد ان شاهدها جنة الدنيا وتاج المدائن . ويبدو لنا ان هذه الرحلة لم تكن طويلة وان هموم الشاعر واحزانه على هذا الملك الساقط لم تحبب اليهِ البقاء فيها فهو يستهل هذه القصيدة بقوله :

حبست بجفني المدامع لا تجري فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها تمنيت لو كانت تمر على قبري
لأن هلاك النفس عند اولي النهى احب لهُ من عيش منقبض الصدر

ثم يقول :

أيا ناصحي بالصبر دعني وزفرتي اموضع صبر والكُبُود على الجمر
وقفت (بعبادان) ارقب دجلة كمثل دمٍ قان يسيل الى البحر
وفائض دمعي في مصيبة (واسط) يزيد على مدّ البحيرة والجزر
فاين بنو العباس مفتخر الورى ذوو الخلق المرضي والفرر الزهر
غدا سمراً بين الانام حديثهم وذا سمر يدمي المدامع كالسمر
جرت عبراتي فوق خدي كأنها فأنشأت هذا في قضية ما يجري
سطرت ولولا غض عيني من البكا ترقرق دمعي حسرة فمحا سطري
أحدّث أخباراً تضيق بها صدري وأحمل اوقاراً ينوء بها ظهري
ألا أن عصري فيهِ عيش مكدر فليت عشيَّ الموت بادر في عصري

وهو في هذه القصيدة يملي مواجع قلبه واحساساته الأليمة على مصير الخلافة والاسلام ويجزع من المنحدر السحيق الذي يهوي اليهِ تاريخ الجامعة الاسلامية بحضاراتها وعلومها وعزتها ومجدها السامي العظيم وتكاد هذه القصيدة تكون هي الوحيدة في الشعر العربي التي صوّرت تصويراً رائعاً هذه النازلة الكبرى التي نزلت بالمسلمين وذهبت بعظمة سلطانهم ومجد خلافتهم

وأدب السعدي يتمتع بمميزات الادب الفارسي جميعها من العناية بالتشبيهات والاستعارات والجمال اللفظي والخيال الملهم بأبدع صور الجمال الطبيعي والغزل الصوفي والتأثر إلى حدٍّ ما بالثقافة الاسلامية ولكنه يمتاز عن أدب نظرائه من الشعراء المعاصرين بانه استطاع على الرغم من ولوعه بروح التصوف والآداب الدينية وعيش الدراويش أن يقسم شعره ونثره بين الحياتين : الروحية والمادية ويمنح كلاً منهما من ذلك نصيبه الكامل فقد وفق أتم توفيق الى أن يرضي الفقراء والأغنياء جميعاً . وهو هو الذي جعل أدبهُ أسير وأشهر من أدب غيره من شعراء فارس جميعهم

وكتابات السعدي تدل على انهُ قد تأثر إلى أبعد حد بأستاذه ابن الجوزي فهو يجري في الكلستان والبستان مجرى هذا الشيخ في كتبه الاخبارية كأخبار الاذكياء والمجانين ونوادر الملوك وغيرها وكذلك تبعهُ في كتبه الوعظية متابعة بيّنة . وذلك يدلنا على ان حظ السعدي من علوم الجدل لم يكن وافراً وأن دراسته كانت تهذيبية عملية تتصل اتصالاً وثيقاً بالحياة ومشكلاتها وتعنى في معالجتها بأسلوب الارشاد والقصص التي تسلكه الشرائع كثيراً في الدعوة الى الاصلاح

ولم يترك السعدي غرضاً من اغراض الشعر لم يقل فيه . فقد مدح ورثى ووصف واشتاق وتغزّل ولكن حظ الهجاء من شعره وغم تفاوره وفكاهته وقسوة لسانه كان قليلاً . اما غزله وهو اظهر هذه الاغراض في شعره فانه وان لم يبلغ في نظر النقاد ما بلغت غزليات حافظ التي تعتبر في القمة من غزل الآداب العالمية وعلى الرغم من ان معانيه عامة لا ابتكار فيها الا نادراً، على الرغم من ذلك كله فقد تمتع بحظ وافر من الروحانية التي تجعله محبوباً مستطاباً الى النفس وهو يسوق هذه المعاني مساقاً وجدانيًّا يسهوي ويعجب . أفلا تراه يبث السحر في قوله :

قد اذعتم روائح المسك طيباً وبهرتم محاسن الورد نشرا
فنسيم النسيم حيث حللتم حلّ بالواردين روح وبشرى
مقل علمت يا بل . . هاروت على ان تعلّم الناس سحرا
جمرات الخدود أحرقن قلبي وتبقين في الجوانح جمرا
برزوا والربا تظل تنادي ما لهذا النسيم يحمل عطرا

ابداً لا افيق من سكر عيشي ان سقتني من المراشف خمرا

وفي قوله من قصيدته التائية التي تشبه كلَّ الشبه في روحها ونسجها تائية ابن الفارض المشهورة :

ألم تزني في روضة الحب كلما ذوت — مطرت سحب العيون فبلت
أما كان قتل المسلمين محرما لحى الله سحر الحي كيف استحلت
وها نفس السعدي اذكى تحية تبلغهم ريح الصبا حيث حلت

وفي قوله من قصيدة اخرى :

حدائق روضات النعيم وطيبها تضيق على نص بجور حبيبها
فيا ليتَ شعري اي ارض رحلوا وبيني وبين الحي بيد أجوبها
ذكرت ليالي الوصل واشتاق باطني فيا حبذا تلك الليالي وطيبها

موضوع السعدي طويل اكتفي منه بهذه اللمحة واختم القول فيه بذكر ابيات من قصيدته العاشرة التي يتحدث فيها حديث السكارى بخمر العشق الرباني :

يا صاحبي يوم الوصال تنادماً كنْ لي ليالي بعدهنَّ سميرا
هل بت يا نفس الربيع بجنة أم جئت من بلد العراق بشيرا
عجبي بأني لست شارب سكر وأظل من سكر الهوى مخمورا
صرفاً محا عقلي وردَّ قراءتي شعراً وصيَّر مسجدي ماخورا
ظمأ بقلبي لا يزال يسيغهُ رشف الزلال ولو شربت بحورا
قطع المهامه واحتمال مشقة لرضى الأحبة لا اظن كثيرا
حسو المرارة في كؤوس ملامة حلو اذا كان الحبيب مديرا

وهو في هذا الهوى الالهي يذهب مذهب التصوف في الانصراف بنفوسهم الى الذات الالهية يعشقونها وحدها ويقطعون من قلوبهم كل امل بفوائد هذا الحب وآثاره كما رووا ذلك عن السيدة رابعة العدوية . ويظهر هذا في شعر السعدي في قوله :

يا من به السعدي غاب عن الورى ارفق بمن اضحى اليك فقيرا
صلني ودع ثم النعيم لاهله لا اشتهي الاَّ اليك مصيرا
فلعلَّ ان تبيض عيني بالبكا ارتد يوماً ألتقيك بصيرا

مصر بهية فرج

باب المراسلة والمناظرة

ترجمة فرامين مصر

بقلم سماحة حايم نحوم افندي الحاخام الاكبر في القاهرة

وقعت يدي للمطالعة مجموعة الفرامين الامبراطورية (السلطانية) العثمانية الموجهة الى ولاة مصر وخديويها من سنة ١٠٠٦ هـ الى سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ — ١٥٩٧ م) وهي تحوي الترجمة — دون النصوص — من التركية الى الفرنسية (Recueil des Firmans Impériaux Ottomans ... Le Caire, 1934) بقلم سماحة حايم نحوم افندي الحاخام الاكبر في القاهرة والعضو في مجلس الشيوخ لمملكة مصر والعضو في مجمع اللغة العربية الملكي بمصر. فانهُ قام بهذا السبب الثقيل والعمل الشاق المستلزم رسوخاً في اللغتين وعلماً غزيراً ومعلومات واسعة فأدّى الخدمة التي ندب لها وهي خدمة قلما يتمكن الذي ينزل مضمارها من الاجادة فيها مثله . ولكن اذ لا كمال لاعمال المرء فليس بالغريب ان نعثر في هذا السفر القيّم على ما يستوجب الملاحظة في ترجمة نصوص الاصل وتفسير كلها العربية وشروحها فيما ألحق به وقد نظرت فيه غير متأثر كل صفحاته فصادفت بعض الهفوات لذلك جئت استأذن المترجم الجليل بايراد ما بدا لي مع اضافة زيادات اعتقدها تروقه وغيره

الصفحة	العدد	
٢٢	٨٣	قال : « حماص شريتي » وضبطها banmas sheroeu وصحيحها حمّاض (بالضاد المنقوطة) كما وردت في المعاجم العربية والتركية . والحماض هو ما يسمى بالفرنسية oseille وبالتركية « قوزى قولاغى » (أذن الحمل) وراجع عنهُ وعن مفعول شرابه معجم لاروس الجديد المصوّر وتذكرة داود وغيرهما
٣٤	١١٦	هل لحضرته ان يعيد النظر في قراءة « السيد عمر محصار السماق » فان الذي بين لي انهُ مغلوط فيها

الصفحة	العدد	
٦٥	٢٠٥	قال : « عمر زيد صلاحه Omar Zeid Salahn » فحسب « زيد صلاحه » علماً من اعلام الرجال او شهرةً او لقباً . وكرر ذلك في الصفحة ٦٨ العدد ٢١٧ في كلامه على الشيخ محمد ووجه الغلط ظاهر لا يحتاج الى بيان وايضاح
٦٨	٢١٤	قال في كلامه على «شمعتين» blanc (شمع عسل) deux cierges de miel فقوله : « de miel » غير صحيح من وجهين اولهما كلة cierge خاصة بالشمعة التي مادتها شمع العسل لا سواه وهي مشتقة من كلة cire وهو هذا الشمع لا غيره . وثاني الوجهين اضافة mie الى cierge وهي ترجمة حرفية لا تقبلها اللغة الفرنسية . ولو قال cierge de cire لكان الامر نوعاً وان لا يصح ذلك
٣٤٥	...	آريه لق . خصّها بمال يعطى سائهة لرؤساء الانكشارية او للعلماء مع انها كانت تعطى لغير هؤلاء نقداً او بتخصيص ايراد (وراجع مطلة الاسلام (Encyclopédie de l'Islam) (١ : ٤٦٥) ولي شواهد على ما قلته يطول سردها
٣٤٦	...	باليمز . قال : ومعناها الحرفي الذي يأكل العسل وهو مدغم . . . » ولو عرّفنا بأصل الكلمة لأحسن فقد افادنا تاريخ بغداد بالفرنسية لمؤلفه هوار (Huart) (ص ١٢١ ح) نقلاً عن ملحق المعاجم التركية لباربيه دومينار (Barbier de Meynard) انها « palla e mezzo » وهي تعني « قنبرة ونصف » اما ش . سامي في معجمه التركي فانهُ صوّر الكلمة هكذا : « باليه مزى » وقال انها اسم الموجد الايطالي لهذا المدفع . وجاء بعده دوزان كذلك في معجمه التركي الفرنسي فكتبها كما بنه وبازائها بحروف افرنجية « balid -mezi » وقال انها من الايطالية « ballamezza » ولعل الصحيح ما قاله دومينار
٣٤٦	...	بيت المال . قال : « خزينة الدولة قديماً . وفي التنظيمات الحديثة الصندوق الذي تحفظ فيه أموال الورثة المجهولين والغائبين » . قلت : وهو نقل على ما يبين لي من معجم ش . سامي . ومعناه الاول بقي جارياً بعد التنظيمات . ومن الادلة على ذلك ما ورد في المادة الثانية والثالثة من قانون الاراضي الصادر في سنة ١٢٧٤ هـ (٨ / ١٨٥٧ م) وفي الارادة السنية المؤرخة في ٢٢

الصفحة العدد

محرم سنة ١٣٠٠ الموافق ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٢٩٨ (١٨٨٢م) الصادرة بشأن مرور الزمان في الدعاوي التي تحدث بين خزينة الدولة والاهلين . (راجع ذيل المجلد الثالث من الدستور الص ١٠١ السطر ٢) . وكذلك هو قديم بمعناه الثاني فاننا نجد ذلك في « قانوتامهٔ آل عثمان » التي امر بجمعها السلطان سليمان القانوني المتوفي في سنة ٩٧٤ هـ — ١٥٦٦ م) . وقد طبعت في الاستانة في سنة ١٣٢٩ . وهذا تعريب ما فيها (الص ٢١) : «يجب اعلام الناس الذين يأخذون (يلتزمون يضمنون) مقاطعة « بيت المال » و « مال الغائب » و« مال المفقود » انه حين وقوع « بيت المال » يسجل ذلك في دفتر القاضي ... » والقرينة هي التي تهدي القارىء الى المعنى المقصود

٣٤٩ ٢١٤ كمرك.حسب احداثه في سنة ١١٢١ هـ (١٧٠٩ م) وتكلم عن الفضة المتوية التي كانت تستوفى وقد لخص ذلك — على ما بان لي — عن تاريخ احمد راسم (١ : ٤٦٧ الفائدة ١٣٧) . قلت ان احداث الكمرك لم يكن في تلك السنة بل هو قديم . وابدأ بما هو ابعد من هذا التاريخ حتى انتهي الى اقصى ما وصلت اليه . فلقد وجدت للكمرك ذكراً في الكتاب التركي المسمى «قايتولا سيونلر» لمحار اسكندر وعلي رشاد المطبوع في الاستانة سنة ١٣٣٠ (١٩١١ م) في « قايتولا سيون » تاريخه سنة ١٠٨٤ هـ « ١٦٧٣ م » (الص ١٢٣ المادة ٨ والص ١٣٨ المادة ٤٥) . وهناك كلام على الفضة المتوية التي تستوفى . وفيه في « قايتولا سيون » آخر تاريخه سنة ١٠٠٥ هـ « ١٥٩٧ م » (الص ٩٣ المادة ١٦) كلام ايضاً على الكمرك . وذكره البعيد جداً هو الذي جاء في هذا الكتاب عينه (الص ٤٩ وما بعدها) في المعاهدة المعقودة بين حكومة مصر في زمن سلطنة المماليك وبين قنصل فرنسة في الاسكندرية التي ايدها السلطان سليمان القانوني بتاريخ ٦ محرم سنة ٩٣٥ (٢١ ايلول ١٥٢٨). فللكمرك ذكر بعيد يتقدم سنة ١١٢١ بمحو قرنين

٣٥٣ ... متصرف . قال : معناه الحرفي propriétaire قلت وهذه الكلمة تعني المالك بينما التصرف شيء والملك شيء آخر كما هو معلوم . ويقابل المتصرف possesseur (وراجع شرح قانون الاراضي للمحامي نجيب شيحا (بالفرنسية) المطبوع في القاهرة في سنة ١٩٠٦ وترجمة قانون الاراضي

الصفحة العدد

وغيره إلى الإنكليزية بقلم ستانلي فيشر Stanley Fisher المطبوع في اوكسفورد سنة ١٩١٩

٣٥٣ ٢١٤ محراب . قال : « موضع في الجامع في جنوبه الشرقي يقف قباله الامام في الصلاة » : قلت والصحيح في تعيين موضعه هو ان يكون في صدر المسجد قبالة الكعبة بحيث اذا استقبله الرجل كان اتجاهه اليها لذلك يكون هذا الصدر في الجهة الشرقية من المسجد او الغربية أو الشمالية او الجنوبية بحسب الموقع الجغرافي الذي يكون فيه مع الميل الى اليمين او اليسار حسب ذلك الموقع الجغرافي . وهكذا تجد محراب مسجد في جنوب الهند متجهاً نحو الشمال الغربي وعكس ذلك في بلاد الانكليز فأنه يتجه الى الجنوب الشرقي وقس عليه البواقي . وما قاله حضرته ينطبق على البلاد الواقعة في الشمال الغربي لمكة من ذلك مصر

٣٥٣ ... مقلم . قال substitut de mutésarif اي وكيل المتصرف او نائبه او القائم مقامه . والصحيح هو وكيل الوالي او نائبه الذي يعينه الوالي نفسه أو الذي تعينه الحكومة وهو ايضاً الحاكم الاداري لمدينة من بعض المدن المربوطة بأيالة وكل ذلك قبل التنظيمات

٣٥٤ ... اوجاق . خصها بـ régiment (وهو آلاي كما يسمى عند الاتراك) الانكشارية . والصحيح انها لا تخص « آلاياً » من الجنود ولا صنفاً من صنوفهم . انما تطلق على كل صنف من العساكر القديمة (وراجع عثمانلي تشكيلات وقيافت عسكرية سي لمحمود شوكت باشا) (١ الص ١) ومعجم ش . سامي وديران كلكيان)

٣٥٥ ... قال « علوفة من اليونانية » قلت ولا مشاحة انها عربية

٣٥٦ ... سالیانه . قال . « الولاية المفروض عليها ضريبة سنوية » . قلت «سالیانه» هي الضريبة نفسها اما الولاية بل الايالة المكلفة دفع هذه الضريبة . فيقال لها : « سالیانه لي » أي ذات سالیانه (وراجع تاريخ احمد راسم ١ : ٤٣١ والمعاجم)

وبالاخير ارجو من سماحة المترجم الجهبذ الغفران صدرت مني جرأة في غير محلها او وقعت في سهو فان الكمال لله وحده بغداد يعقوب سركيس

باب الأخبار العلمية

الافكار تقتل

مبارزة عدتها قوى النفس والمشيئة

المبارزة قديمة ولكن أغرب ضروبها وأعجبها مبارزة تجري في ولاية كاليفورنيا الاميركية ولا عدة لها الا قوة المشيئة وقدرة الخصم على مغالبة خصمه بالسيطرة على ارادته

وقد يستغرب القارىء هذا القول فيظن انهُ وهو وارد من كاليفورنيا مما يستعمل في دور الصور المتحركة لاخراج الافلام المضحكة. ولكننا نؤكد له انهُ منقول عن مجلة علمية مشهورة تدعى « رسالة الابناء العلمية »

فالنزاع في هذا الضرب من المبارزة يدور بين العقول فلا تتطلق المسدسات ولا تلمع السيوف . وما على المتبارزين الا ان يواجه احدهما الآخر فتدور المعركة بين قوتيهما النفسية والعقلية الى ان يخور اضعفهما فيقع صريعاً الى الارض وقد يقع مشلولاً او قد يقع ميتاً — نعم ميتاً ايها القارىء الكريم وقاك الله

أفلا تصدق أيها القارىء ان الافكار تقتل ؟

فقد زار عاصمة وشنطن من عهد قريب الزعيم ديبي وهو من الهنود الحمر ورئيس قبيلة شن في كاليفورنيا وحدث بما وقع له في مثل هذه المبارزات ومثل لسامعيه بيديه ورأسه كيف تطلق قوى النفس على قوى النفس كأنها قبضة دمبي تطلق على دقن خصمه في حلقة الملاكمة

وكان بين سامعي الزعيم ديبي الدكتور جون هرلنتن وهو من اكبر علماء الانتولوجيا الاميركية (اي طبائع الاجناس وتقاليدهم) فكان كلما تحدث الزعيم ومثل ينكس العالم رأسه تأييداً على ما يقول . والهنود الحمر قلما يسمحون للبيض في حضور مثل هذه المعارك النفسية ولكن الدكتور هرلنتن قضى سنين بين رجال هذه القبيلة ونالها رغبة منهُ في دراسة تقاليدهم الآخذة في الزوال وقد حضر بعض هذه المبارزات وسمع روايات عن مبارزات اخرى هي جزء من تاريخ الهنود الحمر

وقد توصل الدكتور هرلنتن بعد دراسة هذه الناحية من حياة الهنود الحمر الى القول بانهم يفوقون المتصوفين الشرقيين في الهند في عجائب قوة النفس . اما رأيهُ في بعض اميركا من هذا القبيل فهو انهم اطفال اذا قيسوا بالهنود الحمر من حيث القوى العقلية والنفسية

فالهنود الحمر يعلقون شأناً عظيماً على اتعاب قواهم النفسية ويدعون انهم يفوقون دراويش

الهند في فهمهم لاسرار التنويم المغنطيسي حتى لقد بلغت بهم الدعوى انهم يستطيعون ان يقتلوا خصماً لهم على بعد مائة ميل

ويقول الدكتور هرفتن ان هذه المبارزات النفسية تقع في اعيادهم العامة فهي اشبه ما يكون بمصارعة الثيران في اعياد اسبانيا العامة. وسكان القرى يتطلعون الى هذه الاعياد ويتوقون الى مشاهدة هذا الضرب من المبارزة

*

الطب وجهاز كهربائي جديد

منذ ما ذاعت النظرية الجديدة في بناء المادة الكهربائي ، وانطلاق يبحثون عن طريقة تمكنهم من صنع مقذوفات قوية تفوق طاقتها طاقة الدقائق المنطلقة من الراديوم لكي يسددوها الى الذرات المختلفة بغية تهشيمها ومعرفة كيف تتركب في صميمها وممَّ تتركب

وكان الاستاذ لورنس احد علماء جامعة كاليفورنيا اول من صنع جهازاً من هذا القبيل يسرع بواسطته انطلاق الدقائق المعروفة بالنترونات حتى اصبحت تفوق في طاقتها طاقة مقذوفات الراديوم

وكان يعاونه شاب يدعى لفنستون ذهب الى كاليفورنيا للتخصص على يديه في هذا النوع من البحث فلما عاد الى جامعته الاصلية وهي جامعة كورنل صنع جهازاً اكبر من جهاز استاذه واقوى واستطاع ان يقذف به دقائق من المادة بطاقة مليوني فولط

ولا بد ان يكون لهذا الجهاز تأثير كبير في ترقية المباحث التي تدور حول تركيب الذرة

ولكن ما نريد ان نوجه اليه النظر ان علماء جامعة كورنل لا ينوون ان يحصروا استعمال هذا الجهاز في تهشيم الذرة بل سوف يجربونه او بالحري سوف يجربون فعل مقذوفاته في السرطان للمقابلة بينها وبين مقذوفات الراديوم من هذا القبيل

بل ان الناحية البيولوجية من هذا البحث لن تحصر في السرطان بل سوف تمتد الى معرفة تأثير هذه المقذوفات القوية في النباتات بوجه عام والاحياء الدنيا نباتاً او حيواناً كانت بوجه خاص. فمن المكتشفات الحديثة في علم الحياة ان الاشعة السينية اي اشعة اكس تؤثر في تلك الاجزاء من الخلية التي تستقر فيها عوامل الوراثة. وهو مكتشف خطير كل الخطورة لأن التحولات الفجائية التي يقوم عليها تطور الاحياء كانت حتى هذا الاكتشاف من فعل الطبيعة لا يزيدها ولا ينقصها برد او حر او رطوبة او ضغط. فلما وجهت الاشعة السينية الى نوع خاص من الذباب ظهرت فيه تحولات فجائية كثيرة — من تأثير هذه الاشعة. واذن فعمل التطور خاضع لقوة في متناول الانسان. فاذا استطاع الانسان ان يسيطر عليها ويوجهها كان في امكانه ان يوجه التطور الى حد ما كما يشاء

وغرض علماء البيولوجيا من توجيه مقذوفات الجهاز الكهربائي الجديد الى الاحياء معرفة تأثيرها في الاجزاء الخاصة بالوراثة وهل في مكنتها ان تحدث تحولات فجائية فيها

امواج العقل الكهربائية

اسفرت دراسة النبضات الكهربائية التي يولدها عمل الدماغ عن حقائق جديدة منها ان فعل العقل كفعل القلب مستمر ولكن فعل العقل يختلف عن فعل القلب في ان سرعته وقوته تختلفان في حالي اليقظة والنوم وباختلاف الاعمال العقلية نفسها

وثبت كذلك « ان داء الصراع » ليس الا نوعاً من عاصفة كهربائية تعصف بالدماغ فتؤثر في احد مراكزه التي تقبض العضلات قبضاً عنيفاً فتحدث الصرع

وأهم الدوائر العلمية التي اشتغل علماؤها بهذا البحث هي جامعة هارفرد وجامعة برون الاميركية ومعامل البحث العلمي التي تعرف بمعامل لويس وجامعة برنستون

والامل معقود على ان يفضي هذا النوع من البحث الى كشف كثير من الاسرار التي تحيط بالاعمال العقلية والعصبية

التخدير بسم الكوبرا

المورفين سيف ذو حدين . فهو نعمة من ناحية لانهُ يخفف وطأة الألم بالتخدير وهو لعنة من ناحية اخرى لانهُ يتعبد من يستعمله . لذلك عني مجلس البحث القومي في اميركا بالبحث عن طريقة تمكن الانسان من جني فائدة المورفين دون لعنته او من وجود مادة اخرى تحل محله تفيد ولا تضر

اما في الناحية الاولى فيرى الدكتور سمول Small ان هناك شعاعاً ضئيلاً من الرجاء في تحويل المورفين الى المادة المرغوب فيها بازالة جزيء من جزيئاته . وقد حاول ذلك وكانت النتيجة ان المورفين الذي تولد عنده كان فعله المخدر اقوى من فعل المورفين العادي عشرة أضعاف . ولكنهُ لسوء الحظ لم يفقد خاصته الاخرى وهي الشاء عادة في من يستعمله تقسره على طلبه . ولكن البحث في هذه الناحية فسيح الميدان ولا يعلم ما قد تسفر عنه التجربة في الغد

اما في الناحية الأخرى اي في ناحية البحث عن مادة غير المورفين تحل محله فقد اذاع الدكتور دافيد ماخت مدير احد معاهد البحث الصيدلي في اميركا امام الجمعية الفلسفية الاميركية ان سم الكوبرا يؤثر في قشرة الدماغ (الكورتكس) فيخدرها فاذا أعطيت مصاباً بالسرطان جرعة او حقنة من هذا السم ضعف احساسه بالالم . ففعل السم مشابه من هذه الناحية لفعل المورفين ولكنه يختلف عنه في انه لا يولد في من يستعمله عادة الادمان

وهذا يذكرنا بما كان يفعله الاقدمون . فقد كانوا يستعملون سم الحيات في معالجة الجذام والسرطان ولعل خطأهم كان في حسابهم فقد الشعور بالالم شفاء . وقد استعمل سم الحية ذات الاجراس في معالجة الصرع

والظاهر ان بحث الدكتور ماخت قائم على مباحث أجريت في فرنسا واساسها استعمال سم الكوبرا في تخفيف ألم المصابين بنوام خبيثة

الالماس الصناعي

في سنة ١٨٩٦ صنع الكيماوي الفرنسي هنري مواسان دقائق مكرسكوبية من الالماس باستعمال الحرارة العالية والضغط الشديد على الكربون ولكن الماساته كانت صغيرة جدًّا لا تصلح للامتحان . فسلم علماء الكيمياء على ما قرأنا في كتبها ايام الدراسة ان صنع الالماس مستطاع ولكن نفقته اعظم من قيمة الالماس الذي يصنع

***

وقد قرأنا الآن ان عالماً اميركيًّا يدعى هرشي وهو استاذ في قسم الكيمياء بجامعة كانساس صنع الماساً بطريقة مواسان كل الماسة بحجم كعب الدبوس الصغير وهو تقدم كبير الشأن

يأخذ هرشي بوتقة ويملؤها ببرادة الحديد وبعض كربون السكر ويضعها في فرن كهربائي ترتفع حرارته حتى تبلغ ٣٠٠٠ درجة مئوية (سنتغراد) فينصهر الحديد ويصير كتلة مائعة بيضاء لشدة حرارتها ثم يأخذ البوتقة وداخلها هذه الكتلة المصهورة ويغطسها في ماء بارد فيتقلص الحديد وفي تقلصه يولد ضغطاً يعدل عشرة أطنان على البوصة المربعة الواحدة

هذا الحديد الذي أُحمي وبرد يضم في مكان ما او في غير مكان واحد من داخله بعض بلورات الكربون . فهل هي الماس ؟ وكيف السبيل الى ازالة الحديد من دون الاضرار بالالماس اذا كان هناك الماس داخلها

يأخذ العالم هرشي قليلاً من الحامض النتريك والحامض الايدروكلوريك ويمزجهما فيتولد من مزيجهما ما يُعرف باسم « ماء الملوك » وهو السائل الذي يذيب الذهب ويضع الكتلة الحديدية وتبقى البلورات الكربونية وهي الماس حقيقي بحسب شهادة الدكتور سمتا في المجلة الفلسفية الاميركية

***

ويرى الدكتور هرشي ان الصعاب التي تحول دون صنع الالماس ليست الاَّ صعاباً فنية قابلة والاسلوب قد امتحنا وثبتا على الامتحان في خلال الاربعين السنة الاخيرة

*

اعادة الذاكرة بالتنويم

رصيف مغطى بالجليد . . . رجل تزل قدمه فيصطدم قذاله بالارض . . فيفقد ذاكرته ... فيبقى ثلاث سنوات كذلك . . . فيعالج بالتنويم فتعود ذاكرته الى سابق عهدها

هذه هي الخطوات الرئيسية في قصة عجيبة رويت امام المجمع الاميركي لتقدم العلوم في اجتماعه الاخير

وقد استوقفت هذه القصة عناية العلماء لانها تصف اصابة جسمانية غير مألوفة من هذا القبيل امكن علاجها علاجاً عقليًّا او نفسيًّا

والغريب في فقد الذاكرة في هذه الحادثة ان الرجل ظل يتذكر ما حدث له قبل وقوعه ولكنه تعجز عن تذكر اي شيء بعده

بنوك الدم

لا تعجب ايها القارىء من هذا العنوان . فقد عودنا ارتقاء المباحث العلمية ان لا يدهشنا ما يجب من الطوارق عادة او على الاقل من الامور غير المألوفة. ولا يخفى ان الانسان يحتاج في بعض العمليات او بعدها الى دم من رجل قوي البنية صحيح الجسم يصلح دمه للامتزاج بدم العليل من دون ان يقع الانتباذ في كرياته الحمر

وقد اطلعنا الآن على خلاصة بحث للدكتور فشر رئيس قسم الفسيولوجيا في جامعة اليتوي والدكتور دايفس مدير المدرسة الطبية فيها ان المباحث الحديثة التي قاما وأعوانهما بها في هذه الجامعة اسفرت عن اساليب تمكنهما من اخذ الدم من اي انسان كان وحفظه سليماً نقيًّا صالحاً لان يُحقَن به من يحتاج اليه ويصلح لهُ عند ما يشاء الطبيب المعالج

فالمرأة الحامل في آخر شهور الحمل مثلاً تكون قد خزنت في دمها مقداراً كبيراً من عناصر الغذاء اللازمة لها . فتستطيع في هذه الفترة ان تطلب ان يؤخذ من دمها مقدار معين ويحفظ في « بنك الدم » حتى اذا جاء وقت الولادة وأحست بالضعف امكن طبيبها حينئذٍ ان يأخذ ذلك الدم المحفوظ ويحقنها به فيقويها

وقد اسفرت تجارب الدكتور دايفس مدير المدرسة الطبية عن طريقة لاستخراج الدم من الذين قتلوا في حوادث صدام او عوارض فيحفظ دمهم ويستعمل عند الحاجة اليه فيحقن به من يصلح لهُ

«التوترينو» او المجايد الصغير

الذرة في علم الطبيعة هي اصغر جزء تتمثل فيه « شخصية » العنصر اي صفاته وخواصه . والذرة في علم الطبيعة الحديث مؤلفة من جزءين النواة والجو الكهربائي حولها اي الفضاء الذي توجد فيه الكهارب. والنواة كانت الى قبل سنوات مركبة في رأي العلماء من كهارب (الكترونات) وبروتونات . ثم اكتشفت طائفة من العلماء وعلى رأسها الاستاذ شدوك الانكليزي ان في النواة دقيقة اخرى اطلقوا عليها اسم (النوترون) وأثبت شدوك وجودها بالبرهان التجريبي . وقد ترجمنا النترون بلفظ « المجايد » لان هذا معناه

ثم اخذ علماء الطبيعة النظرية يكتبون ويقولون بوجوب وجود دقيقة اخرى دعوها « النوترينو » اي النوترون الصغير اي المجايد الصغير

ووجود هذه الدقيقة ضروري لتفسير بعض الظاهرات في نظائر العناصر . فاذا وجد لبعض العناصر نظائر مجهولة يقتضي وجود هذه الدقيقة النظرية وجودها فهذا برهان عملي غير مباشر على وجود « النوترينو » . وقد جاء بهذا البرهان الآن الاستاذ بايشردج احد علماء جامعة كمبردج

*

زيت الزيتون وتزييت السيارات

صرح الاستاذ باستيه احد علماء المعهد الزراعي بالجزائر ان زيت الزيتون يصلح لتزييت السيارات في البلدان الاستوائية ولكن يجب ان تستخرج الحوامض منهُ بعد عصره من الزيتون لكي لا تأكل المعدن الذي تصنع منهُ الاجزاء المزينة

استعمال طاقة الشمس

الطاقة التي تطلقها الشمس في الفضاء بل ما يقع على سطح الارض منها عظيم جداً لا تقاس به الطاقة التي تولدها المصانع والمعامل في جميع انحاء العالم . ومصادر الطاقة اللازمة للصناعة والنقل سواء في ذلك الفحم او البترول مشكلة تهم جميع الناس على السواء لانه اذا نفد الفحم والبترول لا نعرف سبيلاً عملياً الى توليد الطاقة الا من مساقط المياه . وهذه وحدها لا تكفي علاوة على انها لا تصلح الا لمنشآت مثبتة على سطح الارض الا اذا امكن اختراع بطاريات خازنة قوية خفيفة لتستعمل في الطائرات في الجو والسفن في البحار

لذلك عني علماء كثيرون باستخراج الطاقة او توليدها من مد البحار وجزرها ومن الفرق بين حرارة مياه البحار عند السطح وفي الاعماق ومن حرارة الشمس الساقطة على سطح الارض حرة مباحة لمن يشاء او بالحري لمن يعرف كيف يختزنها ويستعملها

وقد قرأنا الآن ان الدكتور أُبت سكرتير المعهد الشمسوي الاميركي اتقن جهازاً لالتقاط طاقة الشمس تبلغ كفاءته ١٥ في المائة اي ان هذا الجهاز يستطيع ان يختزن ١٥ في المائة من طاقة الشمس الواقعة عليه

وهو مؤلف من مرايا مقعرة تقعيراً خاصاً مصنوعة من خليط خاص من معدن الالومنيوم فتبقى لامعة ولا تتكدر

هذه المرايا تجمع الاشعة الواقعة عليها على سائل اسود غير شفاف فيمتص الحرارة فترتفع حرارته الى ٣٥٠ فرنهيت (اي نحو ١٧٦ درجة مئوية) ومن حرارته تستمد الطاقة لتحريك مولد للكهربائية

وليست هذه الطريقة بالجديدة في تاريخ البحث عن اسلوب لخزن حرارة الشمس واستعمالها فقد سبقت تجارب كثيرة في كاليفورنيا واريزونا ومصر وروسيا ولكن الجهاز الذي صنعه الدكتور ابت اكثرها اتقاناً وأشدها فعلاً

ولا يخفى ان جهازاً يعتمد في توليد الطاقة على شروق الشمس وغروبها وظهورها او احتجابها وراء الغيوم لا يستطيع ان يولدها توليداً مستمراً ولكن الدكتور أُبت اثبت انه يمكن استعمال هذا الجهاز في ساعات شروق الشمس وظهورها فتخزن الطاقة المولدة في بطاريات خازنة كبيرة او تستعمل في رفع الماء الى خزانات كبيرة ثم يستعمل سقوطها من الخزانات لتوليد الطاقة الكهربائية

*

عملية الطلق في الولادة

ثبت من بحث الهرمونين المتصلين بالحياة الجنسية في النساء ان احدهما يفصل فصل الكباس في البذقية عند تخين الولادة فيؤثر في الجهاز العصبي وهذا يؤثر بدوره في العضلات فتبدأ عملية الطلق وهي العملية التي تنتاب المرأة في خلالها الآلام المرة وبانقباض العضلات وارتخائها يقذف الجنين الى الخارج في الولادات السوية

هرمونات النبات

قد يجيء يوم في المستقبل القريب تستطيع فيه ان تذهب الى الصيدلي فتشتري منه عقاراً تذيبه في الماء الذي تروي به نباتك او تمزجه بالتربة حول جذوعه وجذوره فينمو النبات نمواً عجيباً لا عهد لك به من قبل

هذه هي النتيجة التي اعلنها باحثان اميركيان بعدما قاما بمباحث عظيمة الشأن في ما سمياه « هرمونات النبات » فنالا بجائزة الف ريال من المجمع الاميركي لتقدم العلوم في اجتماعه الاخير في دسمبر الماضي

والهرمون كلمة تطلق على المفرزات الداخلية التي تفرزها الغدد الصم في جسم الحيوان . ففي جسم الانسان مثلاً طائفة من الغدد التي لا قنوات لها ولذلك دعيت بالغدد الصم . ولكل لها مفرزات تفرزها رأساً الى الدم الذي يجري في الانابيب الشعرية داخلها

وهذه الهرمونات فعالة شديدة الفعل حتى اذا افرز منها مقادير يسيرة جداً . ومن اشهرها مفرزات الغدد الدرقية والكظوية والنخية والبنكرياس (الحلوة) وغيرها

وقد وجد هذان الباحثان الاميركيان الدكتور هتشكوك والدكتور زمرمان ان هناك مواد تؤثر في نمو النبات تأثيراً عظيماً ولو استعملت منها مقادير صغيرة جداً . ولكن هذه المواد لا تصنع جميعها في غدد في جسم النبات بل في معمل الكيماوي فاذا اضيفت الى الماء الذي يروى به النبات او الى التربة التي يستمد منها بعض الغذاء او مزجت بدهن او زيت واستعملت كما يستعمل المرهم اثرت فيه تأثيراً عظيماً

فاطلاق اسم « هرمونات » عليها ليس الا على سبيل الاستعارة من ميدان الفسيولوجية الحيوانية او على سبيل تسمية الكل باسم البعض

وقد وجد من هذه المواد خمس عشرة مادة تفعل هذا الفعل فجرب بها هتشكوك وزمرمان التجارب في معاهد نباتية مختلفة بأميركا ومن هذه المواد ما يجعل الجذور تنمو على الجذوع او حتى على الاوراق أحياناً واجزاء الازهار

وقد تستغرب ايها القارىء اذا قلنا لك — نقلاً عن رسالة العلم الاسبوعية — ان المادة الاولى التي استعملت في هذا السبيل هي غاز اكسيد الكربون الاول فنشأ عن استعماله نمو جذور في أماكن من جسم النبات لا عهد لها بالجذور مطلقاً . ثم مضى الباحثان في تجاربهما فكشفا مواداً اخرى منها ما يصنع بالتركيب الصناعي كالحامض الخليك المستخرج من التفتالين ومنها ما يستخرج من الجذور او الازهار والثمار التي قاربت النضج اي ان هناك مواد تفعل هذا الفعل طبيعية وصناعية او عضوية وغير عضوية

*

عمل عجيب

عنّ الدكتور فير احد اساتذة جامعة هارفرد الاميركية على عمارة من النمل العجيب في جزيرة ترينداد . ووجه العجب في هذه العمارة انها مؤلفة من ٣٣٠ نملة كل منها نصفها ذكر والنصف الآخر انثى

مكتبة المقتطف

تآليف المستشرقين

بقلم الدكتور بشر فارس

يوسف شخت — في الفقه الاسلامي — ١٤٥ ص — ٢٢ × ١٥

Joseph Schacht — G. Bergstraesser's Grundzuege des islamischen Rechts — Verlag von Walter de Gruyter & Co. Berlin 1935

من مخلفات المستشرق الكبير ج . برجشتراسر مجموعة محاضرات في الفقه الاسلامي وقد رتبها تلميذه الاستاذ شخت مدرس اللغات السامية في الجامعة المصرية ودونها تدويناً صالحاً . وهذه المحاضرات تعرض بسائط الفقه الاسلامي في وضوح واختصار . ولها مقدمة طريفة تبحث في جلالة شأن هذا الفقه وتدل على تأثيره الشديد في نواحي الحياة العقلية في البلدان الاسلامية على نحو تأثير القانون الروماني في ذهنية الرومان . وفي المقدمة تميز بين الفقه الاسلامي وقانون الكنيسة ثم بينهُ وبين الشريعة الموسوية . وخلاصة هذا التميز ان الاسلام يختلف عن المسيحية بانهُ لم يكن قط « كنيسة » بالمعنى المتواضع عليه اي هيئة دينية خلقها قوة منظمة ، ثم انهُ يختلف عن اليهودية بأنهُ ليس قانوناً خاصاً بجماعة من الناس خارجاً على قانون الدولة المالكة

ويتلو هذه المقدمة بحث في تاريخ التشريع الاسلامي وعرض مسئلة المذاهب عرضاً مقبولاً . وفي الخاتمة مناقشة تدور حول قيمة الفقه الاسلامي وخاصيته . ثم للكتاب جدول للاصطلاحات الفقهية باللغة العربية منقولة الى حروف لاتينية ثم جدول للاصطلاحات الفنية باللغة الالمانية

هذا وقد اثبت مقدم الكتاب وناشره طائفة من المصادر اللاحقة بالفقه الاسلامي (ص٦و٧) ، ولكنهُ حين اشار الى قانون عرب البادية لم يذكر الاَّ القليل من المراجع فما فاته « نخبة اعوام في شرقي الاردن » لبولس سلمان (حزيران ١٩٢٩) و « تاريخ سينا القديم والحديث » لتوم شقير (مصر ١٩١٦) و Jaussen et Savignac "Coutumes des Fugara" باريس ١٩٢٠ و "Etude Sociologique sur la famille musulmane contemporaine en Syrie" لكاظم الدفتاني (باريس ١٩٣٢)

الفن الاسلامي في مصر

للدكتور زكي محمد حسن — ١٣٣ ص و٣٧ لوحة — ٢٧ × ٤٣

ان الدكتور زكي محمد حسن من نخبة الفتيان المصريين الذين شخصوا الى اوربة يطلبون العلم الرفيع فعادوا منها ناجحين ثم شغلوا في مصر مناصب عالية كانت الطماء من الفرنجة قابضة

عليها . وقد صرف الدكتور زكي حسن عنايته الى تاريخ الاسلام ولاسيما فنه . فكان موضوع رسالته ، في جامعة باريس (١٩٣٣) « الطولونيون ، بحث في مصر الاسلامية في خاتمة القرن التاسع » ٣٣١ ص و ١٦ لوحة ، ٢٦ × ٣١ Les Tulonides—Etude de l'Egypte musulmane à la fin du IXe Siècle (Editions Geuthner Paris) وقد بسط في هذه الرسالة الوقائع التاريخية لهذا العهد ثم فحص عن احوال الدولة من ادارة ونظام وعن نواحي الحياة المختلفة من دين وادب وخلق وتجارة وصناعة وفن . وقد وقعت الرسالة موقعاً لطيفاً في اندية الاستشراق في اوربة (راجع مثلاً O. L. Z. Aug, Sept. 1935)

ومما يشرح له الصدر ان الدكتور زكي محمد حسن اصبح الامين العلمي لدار الآثار العربية عندنا وأنشأ يدرس التاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية . واليوم اخرج هذا العالم الشاب كتاباً جميل الطبع حسن الشكل في الفن الاسلامي في مصر بل في الفن الاسلامي الاول فيها. واذا كان هذا الفن قد ضاعت معالمه او كادت فانما تناول البحث الفن الطولوني خاصة

والكتاب مقسم تقسيماً لطيفاً ففيه مقدمة تاريخية ثم عرض الفن الاسلامي في سامرا ثم بسط مناحي الفن الطولوني من عمارة دينية وحربية ومدنية وزخرفة المباني ومنسوجات وحفر على الخشب وخزف وتصوير . ويلي البحث جدولان احدهما للمراجع والآخر لاسماء الاعلام الجارية في الكتاب . واما زينة الكتاب فعدد وفير من اللوحات مأخوذة بالفوتوغرافية تبرز للعين خصائص فن سامرا والعهد الطولوني

والذي يستخلص من هذا الكتاب النفيس أن « الفن الطولوني يكاد يكون قد اخذ كل اصوله عن الفن العراقي الذي نشأ في سامرا عاصمة الخلافة العباسية » (ص ٢١) وازدهر فيها وكان هذا الفن الاخير يرجع كثيراً او قليلاً الى الفن التدمري والتركي (ص ١١٩). غير ان الفن الاسلامي في مصر ما ابطأ على ايدي الطولونيين أن ينحو نحواً آخر استقلَّ به عن مأخذه الاول (ص ١١٩)

ومن محاسن الكتاب ان المؤلف يسرد جميع آراء العلماء عند عرض مسئلة دقيقة، ويساعده على ذلك معرفته الانجليزية والفرنسية والالمانية . غير ان القارىء ربما بدا لهُ ان المؤلف يفرط في التواري خلف اولئك العلماء أو التشبث بأهداب هذا او ذاك. انظر مثلاً ركونه الى «مؤرخي الفن الاسلامي » لتفنيد رأي واحد من العلماء ، من دون تعليل (ص ١١٠) . ومن المراجع التي لم يستند اليها كتاب عنوانه Muslman Painting by E. Blochet, London 1929 (راجع مقتطف مارس ١٩٣٥) هذا وهل لنا ان نسأل المؤلف لم لم يرتب المصادر العربية على حروف المعجم كما صنع عند اثبات المصادر الافرنجية ؟

بقي ان اسلوب المؤلف يعوزه ما نقول لهُ التشويق . والحق ان للكتب العلمية ان تكون

بعيدة عن مطارح البارة الرشيقة النظيفة الا أن هنالك تراكيب لا يخف حملها على الاذن العربية منها « وقد لعب دوراً كبيراً في الحوادث » (ص ١١) و « مكائد » (ص ١٣) و « . . . من الصعوبة بمكان يذكر » (ص ٣٥) و « تأثير . . . على الفن الطولوني » (ص ٣٨). ثم ان المؤلف يكثر من استعمال التعبير الواحد ومن ذلك استعماله « ومهما يكن من شيء » استعمالاً يصدم السمع لتواتره

***

اوبحين متفوخ — في نص عربي قديم — ٤ ص — ٢٥ × ١٧

E. Mittwoch—Eine arabische Baumschrift aus dem Jahre 136 H.
in "Orientalia" 1935, S. 235—238

ان الاستاذ اوبحين متفوخ من المتبحرين في اللغات السامية وقد تخرج عليه في جامعة برلين طائفة من طلاب العربية والسريانية والحبشية فيهم نفر من المصريين اذكر منهم الصديق العالم الشاب السيد مراد كامل . وقد اتفق لي ان سمعت على الاستاذ متفوخ مرتين ايام كنت اقيم ببرلين فوقعت طريقته في التعليم من نفسي ألطف موقع

وللاستاذ متفوخ تآليف ضخمة نشرها في السنين الماضية ، ثم له هذا البحث الصغير ومداره ضبط نص عربي قديم يرجع الى سنة ١٣٦ للهجرة . وقد عثر السيد محمد صلاح الدين النجار (من القاهرة) على هذا النص في حجاء منقوشاً في حجر . وفضل الاستاذ متفوخ انه حل مشكلات هذا النص ورد عباراته الى ما يشاكلها في القرآن وتاريخ الطبري وغيرهما

***

ميشال فغالي — قصص وأساطير وعادات شعبية لبنانية —

١٩٦ ص بالفرنسية و ٨٥ ص بالعربية — ٢٥ × ١٨

Michel Feghali—Contes, Légendes, Coutumes populaires du Liban
et de Syrie — Editions Adrien — Maisonneuve, Paris 1935

ان المسيو ميشال فغالي ممن يصرف همه الى البحث في لغة العامة بحثاً علمياً دقيقاً . ومن آثاره الماضية « لهجة كفر عيدة » (١٩١٩) و « نحو اللهجات العربية في لبنان » (١٩٢٨) و « نصوص لبنانية بالعربية الشرقية » (١٩٣٣) . والغرض البعيد من هذه المؤلفات تدريب طلاب العربية في فرنسة على فهم اللغة العامية اللبنانية

والحق ان المشتغلين بلهجاتنا العامية عدلوا الى لهجات المغرب ومصر والعراق وغيرها مهملين لبنان الا شيئاً . فانبرى المسيو ميشال فغالي له وهو من أبنائه والكتاب يعرض نواحي الكتابة

اللبنانية باللغة العامية فيه آثار الحياة الدينية والاجتماعية والعقلية والزراعية والتجارية وطائفة من الحكايات والاقاصيص . وكل هذه النصوص ادرجها المؤلف بالعربية ثم نقلها الى حروف لاتينية وترجمها الى الفرنسية وعلق عليها ارادة شرح الغوامض والدقائق الخاصة بلبنان

هذا واني وان كنت ممن لا يميل الى قراءة اللغة العامية لأعترف بأن نصوص هذا المصنف تكشف عن عادات اهل لبنان وتدل على ذهنيتهم وأنها تثبت نشوء الادب العامي ولا سيما الروايات والاغاني

***

هنري بيريس — كتاب الامامة والسياسة

ودخول الشعراء على عمر بن عبد العزيز عن ابن قتيبة — ١٧ ص — ٢٥ × ١٦

H. Pérès—Le Kitab al-Imâma wa's—Siyâsa... Extrait de la Revue Tunisienne 3e et 4e Trimestre 1934, p. 313—335.

مما لا يخفى على المشتغلين بالمشرقيات ان « كتاب الامامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة ليس له . وقد اقام الادلة على هذا مستشرقان توفاهما الله دوزي Dozy ودخُويه De Goeje وانك تجد ادلة دوزي مبذولة لقراء العربية على يد الاستاذ احمد زكي العدوي في كلامه على مؤلفات ابن قتيبة في الجزء الرابع من كتاب عيون الاخبار المطبوع في مصر سنة ١٩٢٥ الى ١٩٣٠ . وأما أدلة دخويه فنصيبها في مجلة ايطالية Rivista degli Studi orientali ، السنة الاولى، المجلد الاول، الجزء الثالث . كل هذا يعرفه صاحب هذه الرسالة وانما أراد أن يزيد في تلك الأدلة فسلك في سبيل هذا سبيلاً قويماً ذلك انهُ عارض قصة دخول الشعراء على عمر بن عبد العزيز من كتاب الامامة والسياسة بالقصة نفسها من كتاب الشعر والشعراء للمؤلف نفسه فنقل الروايتين الى اللغة الفرنسية نقلاً حسناً واستخلص من ذلك (ص ٣٢٩) :

(١) ان اسلوب كتاب الامامة والسياسة انما هو اسلوب الأساطير في حين اسلوب الشعر والشعراء اسلوب الاخبار (وهنا لا نسلم التسليم كله بأن صاحب « كتاب الامامة والسياسة » عمد في تلك القصة الى اسلوب الاساطير (٢) أن الرواة مختلفين — (٣) ان حجاب الخليفة مختلفون — (٤) ان الشعراء المأذون لهم في الدخول على الخليفة مختلفون

ثم ختم المؤلف رسالته اللطيفة (ص ٣٣٥) بقوله ان صاحب كتاب الامامة والسياسة اول من ساق خبر دخول جرير وغيره من الشعراء على الخليفة عمر بن عبد العزيز على النحو الذي ساقهُ وان تاريخ ذلك الكتاب يصعد الى مختتم القرن الثالث او مستهل القرن الرابع

تحر

تأليف توفيق الحكيم

ان الموضوع الذي اختاره المؤلف موضوع طريف حقاً والطرافة فيه آتية من ناحيتين : الأولى ان حياة محمد لم تكتب في قصة تمثيلية قبل الآن ، فالاقدام على ذلك شيء جديد . والثانية ان حياة نبي العرب احيط بها من جميع نواحيها ودونت كل دقائقها واكثر وقائعها وقيدت جميع الاحاديث التي تتعلق بها على وجه التقريب، فلم يترك المتقدمون من كتاب السير مادة واحدة يمكن ان يشعر المؤرخ حيالها بأنهُ في حاجة الى تفكير او مقارنة لاستخلاص حقيقة جديدة تخفى على الناس فيها . واذن يكون أمام رجل الفن الذي يريد ان يضع قصة يتناول فيها حياة النبي احد أمرين : فإما ان يقص الحوادث مستخلصة من كتب السير كما وصلتنا فيرتبها في قالب قصصي كما فعل الاستاذ الحكيم ، وإما ان يبحث عن ناحية من نواحي البطولة جديدة في حياته بحيث تكون قد طويت في تضاعيف الحوادث والاحاديث التي وصلتنا عنهُ فيجلوها في ثوب جديد وصورة جديدة . اما الاستاذ الحكيم فلم ينتح المذهب الثاني وإنما انتحى المذهب الأول ، فقص الحوادث كما وقعت ونقل الاقوال كما قيلت بلسان اهل العربية الفصيح ، ولم يزد من عنده على الاحاديث من شيء الاَّ وظهر كالرقعة الداكنة في الثوب القديم ، فأنقص ذلك بعض الشيء من قوة السبك الأسلوبي في بعض مواضع القصة . وكل ما هو جديد في ما كتب الاستاذ الحكيم ، انما هو الصور التي صور بها الاشخاص في بعض الحوادث فجعل هذا يقطب جبينه وذاك يجلس القرفصاء وغيرها يشير يده . على ان هذا ايضاً يمكن استخلاص الكثير منهُ من كتب السِّير التي احاطت بوقائع ذلك العصر احاطة شاملة

على هذا تجد أن ما في هذه القصة من فن انما هو فن الحوادث كما وقعت ، وكل ما فيها من بلاغة انما هي بلاغة الاقوال كما قيلت ، وعندي انهُ ليس في هذه القصة من جديد الاَّ فكرة ان يسوق الكاتب بعض حوادث كتب السير مساق قصة تمثيلية وهي فكرة حية

كذلك يلاحظ الناقد أن الاستاذ المؤلف لم يسق الحوادث التاريخية مرتبة كما وقعت تماماً . وهذا امر ان جاز في وضع قصة خيالية عن اشخاص غير تاريخيين ، فانهُ لا يجوز اطلاقاً ولا هو مما يسمح بهِ الفن في رجال عرفهم التاريخ ادق معرفة واحاط بأشخاصهم كل احاطة ودونت حوادث حياتهم أدقّ تدوين

على اننا اذا تجوزنا وقلنا بان للمؤلف ان يقدم في رواية بعض الحوادث وان يؤخّر في رواية البعض ، فاننا لم نعرف ما هي الحاجة الفنية التي حملتهُ على ذلك ، ولم نتبين وجه الحكمة التي ساقتهُ

اليه . فان هذا لم يظهر بعض الحوادث مسبوكة في قالب اشد روعة مما حدثت بترتيبها التاريخي ولم يزد من سبكها الاصيل شيئاً . بل ان الناقد ليشعر بان الحكمة كانت في جانب سوق الحوادث برتبة كما وقعت تماماً ، ما دام الكاتب لم يفتن فناً جديداً ، وإنما أكتفى بان يتخذ من فن الحوادث التاريخية مادة قصصية

يظهرك على ان الكاتب استعان بفن الحوادث ، انك تشعر في بعض المواضع بانقطاع فني في سلسلة الحوادث ، نظير ما يحدث في الحياة العادية تماماً . فقد تنتقل من المواقع الحامية وصليل السيوف وتطاحن الابطال فجاءة الى حديث عائشة وصفوان اي الى حديث الإفك ، فاذا انتهى منه خرج الى حديث آخر لا علاقة له بسابقه ولا بسابق سابقه ولا بلاحقه. وامثال ذلك في سياق القصة كثير

*

وعندي انه كان من المستطاع ان يقع المؤلف على مادة تمكنه من ان يجلو بطولة النبي العربي في صورة جديدة ، لو انه رجع الى كتب الاحاديث واطلع على تفسيرها وأحاط بدقائق العلاقات التي تصل حوادث السيرة بالاحاديث . غير ان هذه المهمة على ما ارى شاقة تحتاج الى كثير من الوقت والتعب . ولكنها خطة من الواجب ان ينتحيها كل كاتب يقدر ما للنبي العربي العظيم من قدسية واحترام. غير اننا نقول مع الاسف الشديد ان نزعة الآداب الحديثة تفضل آثاراً فنية خلصت قدر المستطاع من موازنات الحكيم وثقافة الفنان

كذلك اجد ان في الرواية نقصاً من ناحية الفن المسرحي بجانب ما فيها من نقص في الفن القصصي . فكيف يمكن اخراج فصل واحد مؤلف من ستة وثلاثين منظراً متعاقبة على مسرح واحد؟ اما علم ذلك عند المشتغلين بالتخريج ولعلهم يستطيعون ان يذللوا امثال هذه العقبات بادماج بعض المناظر في بعض . على اني ارى ان ذلك متعذر في مثل هذه القصة اسماعيل مظهر

مجلة الشباب الاسبوعية

ليس الاستاذ محمود عزمي في حاجة الى التعريف ، وهو صحافي يعد من طليعة الصحافيين الشرقيين براعة وعلماً ونشاطاً . ولكن انتقاله من ميدان الصحافة اليومية الى ميدان الصحافة الاسبوعية كسب عظيم ، لهذا الضرب من الصحف في الشرق . فقد كنا في حاجة الى مجلة اسبوعية ، تنقل الينا طرفاً من السياسة والتاريخ والادب والفن والعلم في كل اسبوع ، وهذا على ما يظهر لنا غرض « الشباب » . فالمقالات السياسية والاقتصادية فيها لا تنافس الصحف اليومية

في سرد الاخبار ، ولكنها تندر حوادث الاسبوع وتعلق عليها ، تعليقاً قد لا يتسع مجاله للصحف اليومية . وهذا في الواقع هو عمل الصحيفة الاسبوعية التي من هذا الطراز . فقد تقرأ صحف لندن اليومية ، ولكنك مع ذلك ، اذا كنت من المثقفين تحتاج الى مطالعة الـكتاتور والتيوسيتيمان الاسبوعيين . فطالعة المقطم او الاهرام او البلاغ او الجهاد لا تغني عن مطالعة الشاب . والمقالات العلمية والفنية تمتاز من ناحية بصلتها بحادث يقع في مصر او في بلد آخر من بلدان العالم او باكتشاف يكتشف تفسره وتبين مقامه ، وبالتبسيط الذي ترغب فيه العامة وترضاه الخاصة . فمجلة الشباب من اي النواحي اتيتها ، اداة فعّالة من ادوات الثقافة العامة العالية ، التي تحتاج اليها هذه البلاد ، في تنشئة شبانها وشاباتها . فعسى ان تجد من تأييدهم واقبالهم ما يضمن لها تحقيق هذا الغرض

الموسيقى

مجلة الموسيقى لسان حال المعهد الملكي للموسيقى العربية يرئس تحريرها الدكتور «محمود احمد الحفني» وهي مبوبة تبويباً فنيًّا . حاوية موضوعات قيمة في الصور الموسيقية المتنوعة . واتصالها بالأدب واثق . ولقد عرضت للغناء وارد في تاريخ الأدب . والأدب الموسيقي . ومبادىء الموسيقى النظرية . والتربية الموسيقية . والموشحات . ويشترك في تحرير موادها المختلفة طائفة من اعلام المثقفين والمفكرين امثال الاساتذة الأجلاء محمد زكي علي وحسن نبيه انصري وصفر علي وعلي الجارم وابراهيم رمزي

والمجلة تحوي ايضاً دروساً عملية في النوتة الموسيقية بأقلام مفتش الموسيقى بوزارة المعارف وهذه الدروس وان كانت بدائية الاَّ انها تهيء للمبتدئين طرق التقدم في هذا الفن لسهولتها وروعتها

والدراسات الموسيقية من بواعث تقدم الفن في النهضة الأدبية الحديثة . ولن ترقى الموسيقى بناتاً في عصور الركود الذهني . فالموسيقى لغة الحرية ولسان الفن

واساس الجمال في الموسيقى مبلغ الاثر الذي تتركه في الاحساس النفسي لأن الفنون لا تتصل الاَّ بالروح . وفن الموسيقى يقوم على قوة التركيب في موضوع الألحان والأيقاع وقوة المعنى . وينتهي الأثر الموسيقي الى ان يثير في النفس عوامل التفكير والشعور والانسجام

***

فالمجلة لها مكانتها الموضوعية والفنية وحاجة الهواة والطلبة اليها لا تنكر . فنرجو لها التقدم المطرد بقيادة الاستاذ « الحفني » الذي تقف ارفع ثقافة موسيقية في برلين

مكتبة القراءة والثقافة للجيب

تصنيف الدكتور فريد رفاعي

من الكتب ما لا تكاد تلمحهُ حتى تخاله يقول لك « ها أنذا » ومنها ما لا يمكن ان تلتفت اليه الاَّ اذا قيل لك « ها هوذا ». . . والكتب في هذا تشبه الناس ومن الناس ملايين يحيُون ويذهبون ولا يؤبه لهم جاءوا او راحوا . . . ولكن ناساً قليلين جداً هم الذين يفرضون شخصياتهم على الحياة فرضاً . اولئك هم السادة من الزعماء والقادة المفكرين . ومتى ظهر كتاب او رجل من هذا الصنف خرجَ بطاء الاجتماع أن يستعدوا لاستقبال بعض الظواهر المبثوثة في اثناء تلك المظاهر فليس ظهور هذا الكتاب او ذاك الرجل إلاَّ بشير تطور اجتماعي وفكري

ومنذ اعوام ظهر الرجل ثم ظهر الكتاب . أما الرجل فكان الدكتور احمد فريد رفاعي . وأما الكتاب فكان عصر المأمون ..

فتسابق الناس والصحف وتنافسوا في الترحيب به وعدَّه بعضهم وقتئذٍ كتاب العام ومع ذلك فقد ظهر انهم كانوا مقصرين لانهُ ليس كتاب عام وانما كان كتاب الجيل

ولكن الدكتور فريد لا تشبع نهمته ولا يكفيه ان يتقدم الى موضعه من الخلود بشهادة عصر واحد ولو كان هو عصر المأمون اعظم عصور العربية حضارةً وثقافةً وتفكيراً وكأنهُ يقول للجيل بل اذا أدهشكم حشد عصر واحد في كتاب فسوف اريكم كيف احشد العصور كلها في كتاب اصغر حجماً وأخف حملاً

وهكذا شرع مؤلف عصر المأمون في حشد عصور الادب العربي جميعاً ولكن في أي صورة؟ في صورة مكتبة صغيرة توضع في الجيب

اي والله لقد عمد الدكتور احمد فريد رفاعي الى الأدب العربي كله في جميع عصوره ونخلهُ وغربلهُ ثم غربلهُ ونخلهُ ثم بثهُ للناس خالصاً سائغاً في صور تستهوي الاعين وتصبي الافئدة وقد دعاها مكتبة القراءة والثقافة للجيب

ولكن لماذا ألف الدكتور هذه المكتبة ؟ قال في المقدمة :

ان اللغة العربية على ما فيها من نفائس وثروات وروائع وامهات وفنون وعيون وغرر ودرر وطرف وتُلع وكنوز وافادات ومواعظ وثقافات ما زالت العناية بالقراءة فيها بعد في ابانها وشد ما تحتاج توالفها بعثاً وتجديداً وبناء وتسديداً وتشذيباً وتهذيباً فلم تفارق بعد اسها ولم توجه كغيرها من اللغات توجيهاً يتفق والزمن والبيئة . فآثار شيوخ الأدب وأئمة الثقافة من السلف الصالح منبثة في كتبها وبينها يعنى الغربيون بتعدد ابواب القراءات واصدار متباين الطبعات واسعاف القارئين بمختلف الثقافات فاتنا لم نقدر بعد اوقات الحياة التي تقطعنا بشتى واجباتها ومتابع أعبائها

ولم نلبس مع كل زمان بردته . . وكم تساءل المفكرون عن حكمة الإحجام دون امتلاع الشباب بما دلت تجاريب الغرب على اصابته للصحة : من احيائهم تراث كتابهم الثابتين وادبائهم الثابتين وشعرائهم اصاحرين في طبعات بحجم الجيب يدرسها الطالب ليصيب منها علماً جديداً ويقوّم بها لساناً حديداً وذهناً رشيداً ونفاذاً لا نعى بث روح القراءة في الجميع ولماذا لا نحاول رفع مستوى القراءة وقد انحطت الى ما هو تافه رخيص من قصص الغرام وأحابيل الاجرام ومفاجآت البوليسيات والاسفاف بالبذاءات وسياسة قتل الوقت سدًى في غير نفع ولا افادة والوقت علم الله من ذهب...». هكذا كشف المؤلف الدكتور في المقدمة عن السبب في اقدامه على تأليف هذا الكتاب وأظن أنهُ لا يوجد أديب عربي واحد يطلع على هذا البرنامج الاّ ويرفع صوته قائلاً أحسنتَ أحسنتَ يا دكتور

بالأمس كان كتاب عصر المأمون فتحاً جديداً لفن جديد هو فن التأليف في الادب واليوم ها هي مكتبة الجيب فتح جديد لفن جديد ايضاً هو فن القراءة . وقد كنا نعجز عن تهنئة الرجل على نبوغه في فن واحد فكيف نقدر على تهنئته وقد نبغ في فنين. الحق ان الدكتور فريد رفاعي قد اثبت في هذا المؤلف الحديث انهُ احد جهابذة الاصلاح في عصره كما اثبت من قبل انهُ أحد أئمة الادب العصريين

***

البدائع — للدكتور زكي مبارك

جزآن — ٤٢٢ ص — ١٦×٢٤ — (المكتبة العمودية التجارية) ١٩٣٥

ان الدكتور زكي مبارك ممن يمتد نفس الفصحى على ايديهم في هذا الزمان فسواء نثر او نظم اتحفك بالشاء تصيبه في بطون الكتب التي كاد الناس ينصرفون عنها عفا الله عنهم. الاّ أن الدكتور مباركاً عرف كيف يخفف وقع قلم فرد عبارته سهلة واضحة بعيدة عن مطارح الاغراب قريبة من نواحي الاسلوب الحديث . هذا وكان ملازمة للدكتور مبارك لطائفة من كتب الادب العربي ارهفت صفحتين من صفحات قلمه ارهافاً تحيياً : صفحة التهزل ثم صفحة الذع . وكان للثانية الغلبة

واما الرجل فألمع صفاته صراحته ، وما أعرف شيئاً يرهق القلم واللسان مثل الصراحة

ويعد فهذه الطبعة الثانية لكتاب البدائع وهو مجموعة مقالات فيها من كل شيء طرف : ادب وسياسة وتاريخ وتأثر . والظريف ان المؤلف اثبت قطعاً لعهود مختلفة بحيث انك تقرأ زكي مبارك الازهري ثم السياسي ثم الطالب ثم الصحافي ثم الدكتور ثم الاستاذ . وهذه المقالات على بساطة موضوعاتها في الغالب (فقد كانت تعد للصحف السيارة مثل «الافكار» قديماً و«البلاغ» حديثاً) لتلذ القارىء من حيث انها تنطوي على سيرة كاتب ذي شأن وتاريخ جيل من المصريين

بشر فارس

رحلتي الى الحجاز

بقلم محي الدين رضا — صفحاته ١٦٠ — ثمنه ٥ قروش

كتب الرحلات لذيذة بطبيعتها ومشوقة لان اصحابها يكتبونها عادة اثر حافز نفسي قوي يدفعهم الى كتابتها . وهذه الرحلة ضمّت المباحث التي كتبها السيد محي الدين رضا على اثر حجّه وقد رمى فيها الى اظهار فضائل الحج الصحية والدينية . فالحج ركنٌ لا يتمّ إسلام المرء الاّ باداته اذا كان قادراً . وقد حقق في ما كتبهُ ان ابا بكر رضي الله عنهُ حجّ في شهر مارس من عام ٦٣١ م اي السنة العاشرة الهجرية وان الرسول عليه السلام حج في مارس من عام ٦٣٢ م اي الحادية عشرة الهجرية ودعا المسلمين الى التأسي بالخليفة الاول والنبي الكريم بان يحجوا فلبّى دعوتهُ كثيرون وكان من الذّ ما تمتعهُ في خلال حجّه قول بعض الحجّاج له في منى انهم حجّوا تلبيةً لدعوته

وقد توسع في تحبيب الحج الى الناس واظهار فوائده الصحية من استنشاق هواء البحار وهواء الصحاري وكلاهما منعش وجالب للقوة والعافية ، وقد نالهُ منهما قسط وافر . وسطّر على القرطاس ما اتيح لهُ مشاهدتهُ في الحجاز فوصف داخل الكعبة المشرفة وغار حراء ومسجد الرسول عليه السلام ومزارات المدينة ومنى وعرفات وطرق المواصلات والقصر الملكي ومقابلات الملك واساليب المقابلات ووقع الاعتداء على جلالة الملك وحالة الملك نفسه على اثر الاعتداء وتمنية الحجاج . وتحدث مع رئيس كشافة العراق عن طريق الحج البرّي بين العراق والحجاز ومع السيد عبود شلاش صاحب شركة السيارات التي أعدت تلك الرحلة ونقل كلّ ذلك الى القراء . ودفع عن الوهابيين تهمة عدم حبهم للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم بنقل اقوال عالم نجد الكبير الشيخ ابن بليهد وملك الوهابيين وامير المدينة كما نقل تلك الكلمة الجريئة التي قالها امير المدينة للمستر فلبي يتّهمهُ بان اسلامهُ على دخن ويقول له ارجع الى دينك بعد ما قضيت مأربك من تضليك بالاسلام وجواب المستر فلبي ومحربه بعد ذلك تأدية الفروض الدينية ولاسيما الصلاة في اوقاتها . ووصف كذلك رجال الدولة السعودية وما اشتهر به كلٌّ منهم وأشار الى المقصرين اشارات كانت على خفائها افعل من وخز الابر ونوّه بعمل مصر الخيري في الحجاز ولاسيما تبرع الوزارة النسيمية لاهل المدينة والاثر الطيب الذي خلفتهُ الدعوة التي قام بها الاستاذ محمد توفيق دياب للتبرع للحجاز وما جمعهُ بنك مصر لهذا الغرض الشريف وآراء اهل المدينة في ذلك واقوالهم الصريحة التي كان لها صدى استحسان في مصر

كل ذلك كتب فيه السيد محي الدين مفصلاً ومجملاً فجاء كتابهُ من أمتع الرحلات الاسلامية وأنفعها وحلاه بصور للملك والامراء ورجال الدولة السعودية ، جزاه الله عن الاسلام خير الجزاء

فهرس الجزء الثالث من المجلد الثامن والثمانين

صفحة
٢٩٧ العلم يجاري الطبيعة
٣٠٥ الموسيقى العربية وعبده الحمولي : لخليل مطران (مصورة)
٣١٢ المقامة الكبكجية : لأمين الريحاني
٣١٥ الحركات الاستقلالية في مصر القديمة : للدكتور حسن كمال (مصورة)
٣٢٣ بين الحقيقة والخيال (قصيدة) : لراجي الراعي
٣٢٦ تركة التاريخ في نفوس الشعوب الضعيفة : لعبد الرحمن شكري
٣٣٠ كوندياك وديدرو وأثرهما في فن التربية : لحسن كامل
٣٣٧ سياحة الى باطن النجوم : لفخري معلوف
٣٤٢ خيري الشاعر والفنان : لحليم متري (مصورة)
٣٥٢ موقعة ناقارين البحرية : للدكتور علي مظهر
٣٥٦ بهاء الدين العاملي : لقدري حافظ طوقان
٣٦١ اليزيدية عقائدهم وتقاليدهم : لقيصر صادر
٣٦٨ مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي
٣٧٢ ابدع طرق الشام وأروعها : لوصفي ذكريا
٣٧٩ النور والاضاءة : للدكتور الياس صليبي
٣٨٥ سير الزمان * اركان السلام هل يمكن أن تتولد : ابرهيم باشا : البرنس سابونجي
٤٠٢ حديقة المقتطف * سعدي الشاعر الفارسي : لبهية فرج
٤٠٧ باب المراسلة والمناظرة * ترجمة فرامين مصر : لسماحة حاييم نحوم افندي
٤١١ باب الاخبار العلمية * الافكار تقتل — مبارزة عدتها قوى النفس والمشيئة : الطب وجهاز كهربائي جديد : امواج العقل الكهربائية : التخدير بسم الكوبرا : الالماس الصناعي : اطاعة الذاكرة بالتنويم : بنوك الدم : «الانترينو» او العايد الصغير : زيت الزيتون وزيوت السيارات : استعمال طاقة الشمس : عملية الطلق في الولادة : هرمونات النبات : ثمن عجيب
٤١٨ مكتبة المقتطف * تآليف المستشرقين : للدكتور بشر فارس — محمد : لاسماعيل مظهر — الشباب — الموسيقى — مكتبة الغيب — البدائع — رحلتي الى الحجاز

بعض مؤلفات امين الريحاني

ثمن المجموعة ٩٠ غرشاً مصريًّا

ملوك العرب جزءان ثمنهما ٥٠ غرشاً مصريًّا
فيصل الاول جزء واحد ثمنه ٢٥ » »
قلب العراق » » » ٢٥ » »

وهو الكتاب الذي منعته الحكومة العراقية من الدخول الى العراق

ثمن المجموعة ٢٠ غرشاً مصريًّا

التطرف والاصلاح ٥ غروش مصرية
انتم الشعراء ٥ » »
جهان (رواية) طبعة ثانية ٥ » »
المكاري والكاهن طبعة ثانية مصورة ٥ » »
وفاء الزمان رواية الفردوسي (التمثيلية) ٥ » »

تطلب من مطبعة صادر سوق المرض بيروت

ومن مؤلفاته الانكليزية :

Around the Coasts of Arabia
Arabian Peak and Desert

ثمن الجزء الواحد سبع شلنات ونصف شلن

تطلب من

Constable & Co., Ltd.
10 Orange St., Heicester Sq., London. England.

الاصلاح

مجلة شقيقة علمية

تصدر مرة في الشهر في بونس ايرس عاصمة الارجنتين

لصاحبها ومنشئها الدكتور جورج صوايا

عنوانها شارع سان مرتين ٦٤٠ بونس ايرس

مجلة الشرق

ادبية سياسية مصورة

انشئت للدعاية عن الشؤون البرازيلية وما تي النزلاء الشرقيين في البرازيل تصدر باللغة العربية مرتين في الشهر — صاحبها ومحررها الاستاذ موسى كريم ويشترك في تحريرها طائفة من اكبر ادباء العربية في البرازيل وبدل اشتراكها ٢٤٠ قرشاً صاغاً وعنوانها

Journal Oriente.
Caixa Postal 1402, Sao Paulo, Brazil

الجريدة السورية اللبنانية

الجريدة الرسمية للنزالة العربية في الارجنتين

تصدر صباح كل يوم من ١٦ صفحة باللغتين العربية والاسبانية

أنشأها الاستاذ موسى يوسف عزيزه في ١٢ ك ٢ سنة ١٩٢٩

مديرها الحالي : أمين قسطنطين

رئيس التحرير المسؤول في القسم العربي : الياس قنصل

يحرر فيها نخبة من حملة الاقلام الحرة

عنوانها :

EL DIARIO SIRIOLIBANES
Reconquista 339
Buenes Aires—Argentina.

معمل تحليل وديع هواويني

كيماوي اسبتالية الدكتور ملتون عصر سابقاً . متخرج من جامعة الطب الاميركية ببيروت وجامعة استامبول شارع جلال باشا رقم ٦ تجاه تياترو الكسار بشارع عماد الدين بمصر

يعلن انه اعاد فتح معمله لتحليل البول كيماويًا ومكروسكوبيًا وفحص البصاق والمني والمادة ولبن الرضاعة وجميع مكروبات الامراض بغاية الدقة وبأحدث الطرق الكيماوية مع المهاودة الواجبة تليفون ٥٠٣٣٠

كتاب الموسيقى الشرقية

والغناء العربي

وكتاب عبده الحمولي

سيصدر قريباً بإذنه تعالى هذا الكتاب الذي يتضمن ذكر نشأة الموسيقى وفذلكة عن نصرة ساكن الجنان الخديوي اسماعيل محيي الفنون الجميلة والغناء العربي والتمثيل وهو الذي اوفد عبده الحمولي غير مرة الى الاستانة لتلقي الموسيقى التركية لما ظهر لهُ فيهِ من عبقرية فذة في حسن الغناء وقوة الصوت وسلامة الذوق وتاريخ عبده الحمولي وخططه المتنوعة واساليه الرشيقة ونوادره العجيبة وكرمه وتضحيته للؤساء وخدمته للفن وفيهِ بحوث وآراء لفحول الموسيقيين وفطاحل الشعراء والادباء ومعارضات في التجديد « والتطور» اللذين اوشكا ان يجهزا على الرمق الباقي منها وما لها من سحر وتأثير في النفوس وهو مزين بصور نادرة تاريخية ومطبوع على ورق جيد ويقع فيما يزيد على مئتي صفحة وثمنه عشرون قرشاً صاغاً تدفع لمؤلفه قسطندي رزق بشارع قطاوي رقم ١ بالدواكي امام مخازن صيدناوي

القاموس العصري

انكليزي عربي

تأليف الياس أنطون الياس

الطبعة الثالثة

تهنئ رجال التعليم والمدارس العلمية وطلبتها جميع الاقطار العربية بشرى صدور الطبعة الثالثة مزيدة بالتصحيح الاكثر في مجلد جديد وشكل بديع بعد تنقيحه تنقيحاً كاملاً وافياً واضافة نحو ٣٣ الف كلمة انكليزية تشتمل ما استحدث في مختلف العلوم والفنون . فهو اوسع وأكمل واصح المعاجم التي ظهرت الى الآن

والطبعة الثانية . التي قررتها وزارة المعارف لعلمي اللغة الانكليزية والمترجمة في مدارسها الثانوية .

تحوي ٢٦٠٠٠ كلمة انكليزية و ٣٧٥ صورة في ٤٣٢ صفحة من القطع الثالث

فتحوي ٥٦ « « ٦٥٠ « ٧٠٢ . وتباع الاثنتان

جملتان الثمن ٧٠ قرشاً صاغاً فلا يجاب عن البريد وفي ٤ قروش

لمصر والسودان و ٨ للخارج

للقلم المصري صندوق البريد رقم ٩٥٤ . مصر

صحيح مسلم مشكول

في ثمانية أجزاء حجم صفحاته ١٦٥٠ وثمنه أربعون قرشاً صاغاً ولا يخفى ما في ذلك من التضحية في سبيل النهوض ونشر العلم ليتمكن الفني والفقير من اقتنائه وذلك الكتاب الجليل الذي لا يستغني عنه مسلم يهمه أمر دينه ودنياه نفيس . فمن أراد اقتناء هذا الكتاب فليخابر مكتبة محمد علي صبيح بميدان الأزهر على سال القيمة مقدماً

ثمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

ص	
٣٥	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠	» » » » » (طبعة ثالثة)
٧٠	» » عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥	» القاموس عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	» » عربي انكليزي فقط
١٥	» » انكليزي عربي فقط
٧٠	» سفر اط سيرو عربي انكليزي (بالقفط)
٥٠	» » » انكليزي عربي (بالقفط)
١٠٠	» » » » » وبالعكس
١٠	التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢	الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (بالقفط)
١٠	الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠	عشرة ايام في السودان » »
١٢	مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥	روح الاشتراكية (لوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥	روح السياسة »
١٠	الآراء والمعتقدات »
١٠	اصول الحقوق الدستورية »
٨	الحضارة المصرية (لوستاف لوبون)
١٥	حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠	الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥	ملتقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨	اليوم والغد (الاستاذ سلامة موسى)
١٠	مختارات » »
٨	نظرية التطور وأصل الانسان »
٢٠	اناتول فرانس في مباذله، للاميرشكيب ارسلان
١٥	الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبد الله حسين)
١٠	جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥	المرأة بين الماضي والحاضر
٥	مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥	حصاد الهشيم (للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني)
١٠	فيض الريم » » » » »
٨	نسيات وزوابع شعر منثور مصور
١٠	رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠	الغزل في الادب المصري (تحاليل نفسية)
٥	حكايات للاطفال، اول (مصور بالالوان)
٥	» » ثان » »
٥	» » ثالث » »
٥	تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسكندر داغر
٢٥	جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦	مراقي النجاح (لاوشسترين بشير)
٥	مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

ص	
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري
٥	خواطر حائر (للاستاذ الجمل)
٥	التعليم والصحة (للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥	ذكرى وانين خاطبهم » » »
٥٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران) » »
١٥	أسرار الحياة الزوجية » »
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها (للدكتور نظري
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات » »
٢٠	الضعف التناسلي في الذكور والاناث »
١٥	الزبيقة الحمراء (للاستاذ احمد الساوي محمد)
١٠	تاييس » » » »
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (اسكندر داغر)
١٠	القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية اموال الاستبداد، مصورة
١٠	» فاتنة المهدي، او استعادة السودان
٨	» الانتقام الذيب (اسكندر خليل داغر)
٥	» فقر وعفاف (للاستاذ احمد وافت)
١٢	» باريزيت، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	» غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥	» روكامبول، ٧ اجزاء (طانيوس عبده)
٢٥	» ام روكامبول، ٥ اجزاء »
٢٠	» باردليان، ٣ اجزاء »
٢٠	» الملكة ايزابو، ٤ اجزاء »
٢٠	» الاميرة فوستا، جزآن »
٢٠	» عشاق نيبال، جزآن »
١٦	» الساحر العظيم، ٤ اجزاء »
١٦	» كابتان، جزآن »
١٦	» الوصية الحمراء، جزآن »
١٦	» بائعة الخبز »
١٢	» فلمبرج، جزآن »
١٠	» فارس المك »
١٠	» ضحايا الانتقام »
٨	» المرأة المفترسة »
٥	» المتشكرة الحمراء »
٥	» سروحة الاسود »
٥	» شهداء الاخلاص »
١٦	» دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠	» فرنسوا الاول » »
١٠	» الجنون فنون » »
٨	» حورية » »
٨	» الغلامان الطريدان » »
١٢	يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٥	النبي (» » »)
٥	آلهة الارض (» » »)

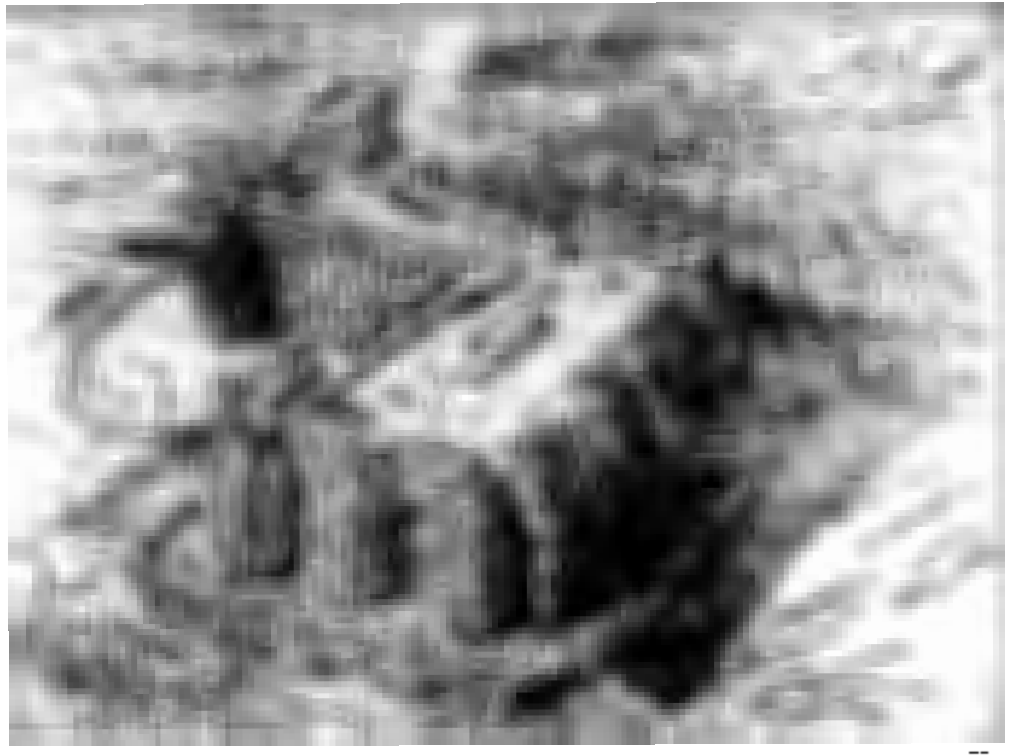

صورة تمثل فلتي صخته وقمه بعد الترميم جنوب وادي حلفا مأخوذة عن برّد وشيبيه

(مصر والسودان في التاريخ)